تعريف عام بدين الإسلام



علي الطنطاوي



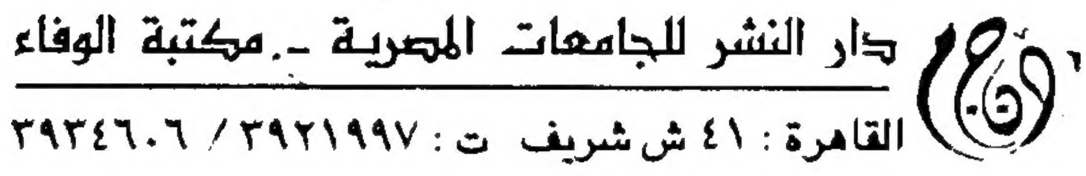


دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

تطلب جميع منشوراتنا من :



دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء

القاهرة : ٤١ ش شريف ت : ٣٩٢١٩٩٧ / ٣٩٣٤٦٠٦

تعريف عام

بدين الإسلام

الطبعة الحادية عشر ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٧ م

الطبعة الثانية عشر ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

الطبعة الثالثة عشر ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩ م

الطبعة الرابعة عشر ١٤١٢ هـ ـ ١٩٩٢ م

طبعة خاصة بدار الوفاء

بإذن خطى من المؤلف



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة . ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب
ت : ٣٤٢٧٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت : ٣٤٧٤٢٣ ص . ب : ٢٣٠ تلكس DWFA UN 24004

تَعْرِيفٌ عَامٌ
بِدِينِ الإِسْلامِ

كتبه سلطان

علي الطنطاوي

دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة . ش.م.م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة طبعة دار الوفاء بالمنصورة

كان من الحق عليّ لمصر أن تصدر الطبعة الأولى لهذا الكتاب عنها ، لأن أصلي منها ، من طنطا التي كانت تدعى (طنتدا) جاء منها جدي أبو أبي سنة ١٢٥٥ هـ مع عمه الذي كان من العلماء الكبار ، ولأني نشرت أول مانشرت في مصر سنة ١٣٤٨ هـ في (الفتح) وفي (الزهراء) عند خالي محب الدين الخطيب يوم كنت طالباً في (دار العلوم) ولم أكمل دراستي فيها ، ويوم كانت مصر كما يدعوها أهلها (أم الدنيا) ، أم الدنيا العربية ، ماكان لهم (جامعة) إلاّ الجامعة المصرية ، يؤمها الطلاب من أقطار العروبة كلها ، أما (الأزهر) فكان فحل الجامعات ، وكان مبعث النور حين خبت ــ أو كادت ــ مصابيح النور ، وكان مقصد طلاب العلم من بلاد المسلمين كلها ، لا يعدلون به غيره . الأزهر الذي عاش أكثر من ألف سنة ، كما عاش جامع القرويين في المغرب ، والزيتونة في تونس ، وإن لم يكن لهما بعض ماكان له من الأثر . وكانت دور النشر الكبرى في مصر ، والكتابُ الذي ينشر فيها ، ويصدر عنها يحمل جواز المرور فيصل إلى كل بلد عربي .

كان ذلك حقاً عليّ ، لكن الله لم ييسره لي ، فقد طبع الكتاب نحواً من عشرين طبعة قبل أن تصدر هذه الطبعة في مصر . بعض هذه الطبعات كان بإذن مني ، وبعضها سرق سرقة ــ وسرقة الكتب إحدى الثمرات المرة لهذه الحضارة الجديدة ، التي يسَّرت الوسائل ، ومهدت السبل ، لأهل الخير ولأهل الشر ، فمن لم يكن له دين يعصمه ، وخوف من الله يسدده ، أحكم السرقة حتى لاتكاد تكتشف ، وحتى إنك لو وضعت أمامك النسخة الأصلية من الكتاب والنسخة المسروقة ، لم تستطع أن تفرق بينهما ، فالورق هو الورق ، والحرف والحبر والتجليد ــ كل ذلك سواء في النسختين . ذلك لتعلموا أنه لا الحضارة ولا العلم ولا الأخلاق ، بالتي تغني عن الدين ، لأنها كلها للناس ، فإن لم ير صاحبها الناس ،

اعرض عنها وتناساها ، واتبع شهوته ومصلحته . أما صاحب الدين فيعلم أنه إن خلا بنفسه ، وغلّق عليه الأبواب ، وأسدل الستائر ، واستخفى من الناس ، فإنه لا يستخفي من الله ، وهو معه يسمعه ويراه ، وإن أنكر شهدت عليه يده التي اقترف بها الذنب ، ورجله التي مشى بها إليه ، وجلده الذي لا يستطيع أن يخلعه ، ويخرج منه ، كما يخرج من ثوبه ، ليلبس ثوباً غيره فلا يعرفه من يبصره .

ولقد حدّثت مرة حديث مدرس ، جاءنا ونحن صغار فقال لنا : كيف تشهد اليد ، وتشهد الرجل ؛ هل لها لسان فتنطق ؟

فكاد يدخل علينا الشكوك في ديننا ، والزيغ في عقيدتنا ، فكتب الله لنا أن نعيش حتى نسمع أسطوانة الحاكي (أي الفونوغراف) تتكلم ، وشريط المسجل يتكلم ، وصندوق الرائي (أي التلفزيون) يتكلم ... فرجع إلينا إيماننا ، وقلنا : أليس الذي علمنا كيف تنطق الأسطوانة والشريط والصندوق في الدنيا ، بقادر على أن يُنطق اليد والرجل في الآخرة ؟

وهذه الكشوف العلمية ، وهذه المخترعات تقوي الإيمان عند من كان من أهل الإيمان ، ويتخذها الشيطان وسيلة لتضليل من كان من أولياء الشيطان .

وبعد ، فأنا أكتب وأنشر من ستين سنة ، لا أحصي المقالات التي كتبتها ، ولا الجرائد والمجلات التى نشرت ماكتبت فيها ، ولي نحو من خمسين كتاباً ، ولكنني أرجو من الله بهذا الكتاب ما لا أرجوه من كل ماكتبت ، وأسأل الله أن يعيننى على إتمامه ، وأن ينفع قارئه به ، ولا يحرمني الثواب عليه .

مكة المكرمة ٢٤ صفر ١٤٠٧ هـ

علي الطنطاوي

بسم الله الرحمن الرحيم

قصة هذا الكِتاب

في صدر الطبعات السابقة ، فصل عنوانه (قصة هذا الكتاب) أعدت النظر فيه اليوم ، فوجدت أني لم أسرد فيه القصة من أولها .

ولعل أول القصة كان أيام الحرب الأولى (حرب سنة ١٩١٤) وهي الأيام التي بلغت فيها سنّ التمييز ، وأدركت ما يحيط بي ، فوجدت في بيت أبي دروساً يلقيها على تلاميذه بعد الفجر ، وقبل العشاء ، وكانت دروساً تختلف عن دروس المدرسة التي كنت أذهب إليها ، وكان التلاميذ فيها مشايخ بعمائم ولحى ، لم يكونوا صغاراً كتلاميذ المدرسة ، فكنت أستمع إليها ولو لم أفهمها ، كما أستمع إلى دروس المدرسة . فكانت دراستي بذلك مزدوجة : درست في المدارس إلى نهاية الجامعة ، وكنت مع ذلك أتلقى العلم عن العلماء . عن أبي (الشيخ مصطفى الطنطاوي) أولاً ، وكان من صدور الفقهاء في الشام ، وكان أمين الفتوى عند المفتي الشيخ أبي الخير عابدين ، فلما توفي رحمه الله ، في شعبان سنة ١٣٤٣هـ قرأت على غيره من العلماء [١] .

---

(١) ثم اتصلت بعدد لا أحصيه الآن من العلماء . منهم من قرأت عليه . ومنهم من حضرت دروسه ، ومنهم من جلست إليه واستفدت منه ، في الشام ومصر والعراق .

من هؤلاء الشيخ بدر الدين الحسني المحدث الأكبر ، وقرينه السيد محمد بن جعفر الكتاني ، صاحب الرسالة المستطرفة ، والشيخين المعمرين : الشيخ عبد المحسن الأسطواني ، والشيخ سليمان الجوخدار ، ومفتي الشام الشيخ عطا الكسم ، وخلفه المفتي الشيخ محمد شكري الأسطواني ، وخلفه المفتي (الطبيب) الشيخ أبو اليسر عابدين ، والسيد محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وخالي المؤرخ العالم الكاتب محبّ الدين الخطيب ، والمربي الكبير الشيخ أبو =

فكنت أول من جمع في دمشق بين أسلوبي الدراسة ، وكان العلماء يومئذ بين (شيخ) لا يعرف من علوم الدنيا الحديثة شيئاً ، وبين (أفندي) لا يفقه من علوم الدين شيئاً ، إلا شيئاً قليلاً لايغني ولا يجزي .

فتنبهت مبكراً إلى ضرورة عرض الإسلام بأسلوب عصري ، وكتبت في ذلك مقالات ، ونشرت رسائل ، ذكرت منها من نحو خمسين سنة بعض الآراء التي أوردها اليوم ، في هذا الكتاب .

ففي كتابي (الإصلاح الديني[٢]) في الصفحة (١١) منه ، عند الكلام على ضرورة التدين ، قلت ما نصّه :

« هل يمكن للإنسان أن يعيش بلا دين ؟

= الخير الميداني ، والعالم المحدث الراوية الشيخ صالح التونسي ، والعالم الأديب السلفي النظار الشيخ محمد بهجة البيطار ، والعالم الشيخ توفيق الأيوبي ، والمربي العالم الشيخ أحمد النويلاتي ، والمفسر الشيخ عبد الله العلمي ، والعالم الواعظ الشيخ هاشم الخطيب ، وإمامي العربية وشيخي الأدب : الأستاذ سليم الجندي ، والشيخ عبد القادر المبارك ، وأستاذ الكتاب المؤرخ الكاتب محمد كرد علي منشىء المجمع العلمي في دمشق ، والشيخ المصنف الأديب الشيخ عبد القادر المغربي ، والأديب الراوية الأستاذ عز الدين التنوخي ، والكاتب العبقري الأستاذ معروف الأرناؤوط ، والأستاذ الحقوقي العالم شاكر الحنبلي ، والمحامي العالم الأستاذ سعيد محاسن ، والعالم المصنف الشيخ عبد القادر بدران الحنبلي ، والعالم المصنف الشيخ محمد الكافي المالكي ، والفقيه الشيخ نجيب كيوان الحنفي ، والعلامة الشيخ أمين سويد ، والمربي المصنف الشيخ زيد زين العابدين التونسي ، والمربي الشيخ أحمد النويلاتي ، وشيخ علماء لعراق الشيخ أمجد الزهاوي ، والعالم الحقوقي الحاج حمدي الأعظمي العراقي ، ومفتي بغداد الشيخ قاسم القيسي ، والفقيه المؤرخ المحدّث الشيخ زاهد الكوثري ، والعلامة الأديب الشيخ البشير الإبراهيمي الجزائرى ، والمربي المصلح الشيخ كامل القصاب ، والشيخ عيد السفرجلاني ، وجودت القرآن على شيخ قراء الشام الشيخ محمد الحلواني ، والشيخ عبد الرحيم دبس وزيت ، وولده شيخنا (وتلميذ والدى) الفقيه الحنفي الشيخ عبد الوهاب ، والقارىء المبدع الشيخ عبد الله المنجد ، وخلق غيرهم كثير أسأل الله لهم الرحمة والغفران ، من ذكرت منهم هنا ، ومن غاب الآن اسمه عن ذاكرتي ، وأظن أني لو عددتهم لأربى عددهم على المئة جزاهم الله خيراً .

(٢) المطبوع في دمشق سنة ١٣٤٨هـ وهو الجزء الأول من (رسائل في سبيل الإصلاح) التي كان لصدورها أصداء ، وألفت في الكلام عنها كتب ، منها كتاب (الإفصاح عن رسائل الإصلاح) للشيخ أحمد الصابوني الحلبي .

لافرق بين هذا السؤال و بين قولك : « هل يمكن للإنسان أن يعيش بالمادة وحدها ، وينبذ كل ما وراءها حتى نفسه التى بين جنبيه ، وحبه الدي يجيش به صدره ، وشعوره بالطبيعة وجمالها ، والطيور وتغريدها ، والمقبرة ووحشتها ؟ » .

وبعد أن تحدثت عن عالم المثل الأفلاطونية ، واستشهدت بأقوال (كانْت) و (أوغست كونت) و (باستور) و (نيوتن) و (باسكال) و (مالبرانش) و (هارفي) و (غوليه) و (هوكسلي) ذلك لأني كنت حديث العهد بدراسة الفلسفة ، وكان مكتوباً على غلاف الكتاب (بقلم علي الطنطاوي بكالوريوس في الآداب وفي الفلسفة) .

قلت بعد ذلك ، في الردّ على من يدّعي أن هذا الكون وجد بالمصادفة ، ما نصّه : « إذا وضعنا في كيس أربع كرات بيضاء وواحدةً حمراء ، وسحبنا واحدة منها ، كان احتمال خروج الحمراء واحداً من خمسة ، وإذا وضعنا تسعاً بيضاً وواحدة حمراء ، كان واحداً من عشرة ، فلو وضعنا مالا نهاية له (∞) من البيض كان الاحتمال واحداً من لانهاية ، ولا يقول عاقل إن الحمراء تخرج حتماً من السحب مرة أو مرتين أو مئة مرة .

وهذه الكواكب التى لا نهاية لها ، ليس لها إلاّ حالة واحدة ، تجعلها تسير بهذا النظام ، ويمتنع بينها الصدام ، فكيف نقول إن هذه الحالة حصلت بالمصادفة من غير مسيّر حكيم عليم ؟ » .

★ ★ ★

هذا ما قلته من نحو خمسين سنة في كتاب لى مطبوع موجود .

ثم صح العزم مني على إصدار كتاب فى هذا الموضوع ، وجعلتُ عنوانه (لماذا أنا مسلم) ، وأعددتُ فصوله وأعلنتُ عنه ، ونشرتُ مقدمته في رسائل (سيف الإسلام) التى كنت أصدرها سنة ١٣٤٩ (١٩٣٠) ، ولكن تعذر الطبع ، وضاعت الأصول ، ولم يصدر الكتاب .

ولما ذهبت إلى العراق سنة (١٩٣٦) مدرّسا للأدب العربي فى الثانوية المركزية في بغداد ، وكلفت حيناً بتدريس الدين ، جعل الطلاب يسألونني عن كتاب واحد ، يفهمون منه الإسلام ، لا يريدون كتاب تجويد ، ولا كتاب توحيد ، ولا كتاب تفسير ، ولا فقه ولا أصول ، ولا حديث ، ولا مصطلح ، بل كتاباً في الإسلام ، يعرضه كما كان رسول الله ﷺ يعرضه ، على من يفد عليه من العرب (أو الأعراب) فيفهمونه فى يوم واحد ، أو في بعض يوم .

فلم أكن أجد مثل هذا الكتاب ، فكتبت في الرسالة ،وكنت من كتّابها عشرين سنة كاملة من سنة تأسيسها إلى سنة احتجابها .

كتبتُ مقالات أدعو فيها العلماء إلى تأليف هذا الكتاب ، وأعدتُ الدعوة ، فما استجاب لها أحد .

* * *

ومرت الأيام ، ورأيت الطريق الذى كنتُ أسلكه وحدي ، أو مع نفر من أمثالي ، منذ أربعين سنة (طريق الجمع بن الإلمام بعلوم الدين ، والإلمام بعلوم الدنيا) ، قد كثر بحمد الله سالكوه ، وصاروا عشرات ، ثم صاروا (بحمد الله مرة ثانية) مئات ، ونشأ فيهم من هو أكثر مني علماً ، وأفصح لساناً ، وأكثر إيماناً ، وأفضل في كل شيء ، وألّفوا عشرات من الكتب الإسلامية الجيدة ولكن هذا الكتاب لم يؤلف .

وجاءت سنة (١٣٨٧هـ) ، فنشرت مقالة فى (مجلة رابطة العالم الإسلامي) ، عنوانها (تعريف عام بدين الإسلام) تنبّه لها صديقنا معالي الشيخ (محمد عمر توفيق) ، وزير الحج والأوقاف يومئذ ، فكتب للرابطة لتكليفي بتأليف كتاب في هذا الموضوع .

وتنبّه لها صديقنا الشيخ مصطفى العطار ، فكتب لمعالي وزير المعارف الشيخ (حسن بن عبد الله آل الشيخ) ووجدتُ منه ، ومن معالي الشيخ عبد

الوهاب عبد الواسع (وكان يومئذ وكيل وزارة المعارف) كل التشجيع .

وعملت الصيف كله ، والسنة الجامعية بعده ، لكني كنتُ أدافع الكسل ، وأشتغل على ملل ، وتجمعت لديّ ثلاثة ظروف كبار ، فيها فصول كاملات ، وفيها قصاصات ومذكرات ، تحتاج إلى تصنيف ، وترتيب ، وعمل كثير .

وجاء الصيف الجديد ، وذهبت إلى عمان ، ومن خوفي على هذه الظروف حملتها بيدي ، وأذكر أنني خرجت من المطار ، ودخلت السيارة لتحملني إلى دار زوج بنتي ، وهي معي .

وشغلت بمتاعب الانتقال ، ومباهج الاستقبال ، ولقاء الأصحاب والآل ، فلم أذكرها إلاّ بعد أسبوعين ، فبحثتُ عنها فلم أجِدها ، ونفضتُ الدار نفضاً وسألت كل سائق سيارة ، وراجعتُ كل مخفر شرطة ، فلم أصل إلى شيء ، وبقيت أياماً ، وأنا ذاهل متألم ، لا أهنأ بطعام ، ولا أستغرق في منام ، حتى إذا هدأت نفسي ، ورجع لي عقلي ، قررت أن أستعين الله وأبدأ من جديد .

وكنتُ أنزل في ضاحية من عمان : مكتبتي في دمشق ، وأوراقي في مكة ، وما عندي إلا المصحف ، فقلت : لعل هذا هو الخير ، فما أؤلف هذا الكتاب للفقهاء والعلماء ، بل للشبان ، أعرّفهم فيه ما الإسلام ، وكلما أقللت النقل عن الكتب ، وجئت بشيء جديد كان خيراً لهم .

وباشرتُ العمل وأنجزتُ هذا الجزء الأول ، وهو جزء العقيدة ، في عشرة أيام ، وحملتُ مخطوطته معي إلى مكة .

فطبع أولاً في (المدينة) والفضل في طبعه لله ، ثم للأستاذ (عثمان حافظ) . ثم نشرته وزارة المعارف الأردنية ، في عدد خاص من مجلتها (رسالة المعلم) ، وطبعت منه اثني عشر ألف نسخة ، وزعتها على جميع المعلمين والمعلمات ، في المملكة الأردنية ، وكان الفضل في ذلك لله ، ثم

لمعالي وزير المعارف والأوقاف السابق الدكتور (إسحاق الفرحان) وكان يومئذ مدير دائرة الكتب والمناهج فى الوزارة ، ولمعالي وزيرها يومئذ الأستاذ بشير الصباغ ، وللأخ الدكتور الشيخ إبراهيم زيد الكيلاني ، والأخ الأستاذ سليم الرشدان ، ثم نشرته وزارة الدفاع الأردنية ، وكان الفضل في ذلك لمعالي الصديق اللواء (معن أبي نوّار) سفير المملكة الآن في لندن ، والصديق أبي أنور العقيد (أحمد العبيدات) ، وقرأه أفراد الجيش الأردني .

ثم قامت مؤسسة الرسالة في بيروت بطبعه أولاً طبعة رخيصة ، ثم عادت فطبعته طبعة أنيقة . فهذه الطبعة التى أقدم لها هذه المقدمة هي في الواقع (الطبعة السادسة) من الكتاب .

أما الجزء الثاني والثالث اللذيْن أرجو أن أتكلم فيهما عن الإسلام ، وعن الإحسان (أي السلوك الإسلامى) ؛ فأنا والله في خجل من القراء ، وعذري أن القلوب بيد الله ، والله هو باعث الهمم ، ومنشيء العزائم ، وقد والله ضعفت همتي ، ووهن العزم مني ، ولقد كنتُ في شبابي في توثب دائم ، أكتب وألتمس الناشر ، على قلة البضاعة ، وضحالة التفكير ، والآن حين نضج الفكر ، واختمرت المعلومات ، وكثر الناشرون ، لم أعد أقوى على العمل ، فإن ألهم الله واحداً من القراء ودعا لى بظهر الغيب بأن يسهل الله عليّ كتابة الجزأين ، كتبتُهما بتوفيق الله وعونه كما كتبتُ الأول في عشرة أيام .

ولكن متى تجيء هذه الأيام العشرة ؟ العلم عند الله .

* * *

ومن الإنصاف أن أذكر أن جماعة من إخواننا قد ألّفوا كتباً في تلخيص الإسلام ، منهم أخي وابن شيخي الأستاذ محمد المبارك ، الذي عمل على تدريس هذا التلخيص في الجامعات باسم مادة (نظام الإسلام) ، وشارك في وضع مناهجه ، وألّف فيه كتباً ثلاثة .

وألّفوا كتباً في العقيدة ، كل كتاب له أسلوب ، وله طريقة ، منهم أخي

الأستاذ محمد القاسمي ، وأخي الأستاذ الدكتور سعيد ابن الملاّ رمضان البوطي ، وأخي الأستاذ عبد الرحمن ابن الشيخ حسن حبنكة حفظه الله وحفظ هؤلاء الإخوان ، وقوّاهم وأمدّهم بعونه .

هذا ، وأنا أرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب ، وأن يكون زاداً لي يوم لا زاد إلاّ التقوى وصالح الأعمال . ولقد ذكرت في مقدمة الطبعة السابقة ، أني أكتب من نحو خمسين سنة (من سنة ١٣٤٧هـ) ، والمطبوع مما كتبتُ يزيد على أحد عشر ألف صفحة ، وأن لي أكثر من أربعين كتاباً ما بين رسالة صغيرة وكتاب كبير ، وأني أحاضر في النوادي من سنة (١٣٤٥هـ) ، وأتحدث في الإذاعات بلا انقطاع من يوم أنشئت محطة الشرق الأدنى في يافا ، قبل الحرب الثانية ، وأن لديّ الآن أصول أحد عشر كتاباً لا تحتاج إلاّ إلى عمل قليل لتقدم للمطبعة .

وأنا أرضى أن أنزل عن هذا كله . ويوفق الله إلى إكمال هذا الكتاب ، وإكمال كتاب (ذكريات نصف قرن) الذى أروي فيه خبر ما رأيت وما سمعت ، من تبدل الدول ، وتحول الأحوال ، ومن لقيت من الرجال ، فلقد شهدت في الشام حكم العثمانيين ، وحكم الشريف فيصل ، وحكم الفرنسيين ، وعهد الاستقلال وما بعده من العهود ، وعشت حيناً من عمري في مصر ، وفي العراق ، وفي لبنان ، وفي السعودية ، ورحلت أقصى المشرق حتى لم يبق بيني وبين (سيدني) في أوستراليا ، إلاّ مرحلة ساعتين بالطيارة ، ورحلتُ إلى (فولندام) في أقصى الشمال من هولندا ، ورأيت حلواً ورأيت مرّاً ، وذقت الفقر وذقت الغنى ، ووجدت الوفاء ووجدت الغدر ، وتركت من التلاميذ في سوريا والعراق ولبنان والسعودية آلافاً وآلافاً ، منهم من صار رئيس جمهورية ، ومنهم من بلغ رياسة الوزراء ، ومن كان وزيراً أو قاضياً كبيراً ، أو موظفاً أو سفيراً ، أو أستاذاً في الجامعة ، أو مقدماً في عالم المال والأعمال .

ولقد كنت في عمري كله بعيداً عن غمزة المجتمع معتزلاً الناس ، لكني كنت أرى وأسمع كل شيء ، ولطالما وقفتُ مواقف كانت حديث الناس

وكانت حادث الساعة . وكنت فيها ملء الأسماع والأبصار ، وكان اسمي فيها على كل لسان .

ولكن ذلك كله مضى ، وسيمضي العمر ، ويذهب الجاه والمال ، كما ذهب الشباب ، وينسى الناس كل ما عملت ، وعمل غيري ، ولا يبقى إلا الذي يحمله معه العبد إلى آخرته ، هذا وحده الذي يبقى وكل ما سواه إلى زوال .

فيارب لا تجعل عملي يذهب سُدى ، واكتب لي بفضلك ورحمتك بعض الثواب عليه . اللهم اجعل ما كتبت وما خطبت من العلم النافع الذي لا ينقطع بانقطاع العمر .

اللهم إني استغفرك ، وأتوب إليك

وأسألك حسن الخاتمة ، والوفاة على الإيمان

مكة المكرمة (أجياد) ٢٣ جمادى الأولى ١٣٩٤هـ

علي الطنطاوي

بَيْنَ يَدَي الكِتاب

هذه خواطر ...
قدمتها بين يدي الكتاب .
وأعددت بها للقارىء الجو الذي يعينه
على الدخول فيه .

إذا كنت مسافراً وحدك فرأيت أمامك مفرق طريقين : طريقاً صعباً صاعداً في الجبل ، وطريقاً سهلاً منحدراً إلى السهل . الأول فيه وعورة وحجارة منثورة ، وأشواك وحفر ، يصعب تسلقه ، ويتعسر السير فيه ، ولكن أمامه لوحة نصبتها الحكومة ، فيها : إن هذا الطريق على وعورة أوله ، وصعوبة سلوكه ، هو الطريق الصحيح ، الذي يوصل إلى المدينة الكبيرة والغاية المقصودة .

والثانى معبّد ، تظلله الأشجار ذوات الأزهار والثمار ، وعلى جانبيه المقاهي [٣] والملاهي فيها كل ما يلذ القلب ، ويسر العين ، ويشنف [٤] الأذن ، ولكن عليه لوحة فيها : إنه طريق خطر مهلك ، آخره هوة فيها الموت المحقق ، والهلاك الأكيد .

فأي الطريقين تسلك ؟ .

لا شك أن النفس تميل إلى السهل دون الصعب ، واللذيذ دون المؤلم ، وتحب الانطلاق وتكره القيود ، هذه فطرة فطرها الله عليها ، ولو ترك الإنسان نفسه وهواها ، وانقاد لها ، سلك الطريق الثاني ، ولكن العقل يتدخل ، ويوازن بين اللذة القصيرة الحاضرة يعقبها ألم طويل ، والألم العارض المؤقت تكون

---

(٣) أقهى : داوم على شرب القهوة .
(٤) الشنف القرط (الحلق) وهذا التعبير هنا على المجاز .

بعده لذة باقية ، فيؤثر الأول .

هذا هو مثال طريق الجنة ، وطريق النار ...

طريق النار فيه كل ما هو لذيذ ممتع ، تميل إليه النفس ، يدفع إليه الهوى ، فيه النظر إلى الجمال ومفاتنه ، فيه الاستجابة للشهوة ولذاتها ، فيه أخذ المال من كل طريق ؛ والمال محبوب مرغوب فيه ، وفيه الانطلاق والتحرر ، والنفوس تحب الحرية والانطلاق ، وتكره القيود .

وطريق الجنة فيه المشقات والصعاب ، فيه القيود والحدود ، فيه مخالفة النفس ، ومجانبة الهوى ، ولكن عاقبة هذه المشقة المؤقتة في هذا الطريق ، اللذة الدائمة في الآخرة . وثمرة اللذة العارضة في طريق النار ، الألم المستمر في جهنم . كالتلميذ ليالي الامتحان يتألم حين يترك أهله عاكفين على الراني [٥] ، يشاهدون ما يسر ويمتع ، وينفرد هو بكتبه ودفاتره ، فيجد بعد هذا الألم لذة النجاح . وكالمريض يصبر أياما على ألم الحِمْية عن أطايب الطعام فينال بعدها سعادة الصحة .

وضع الله الطريقين أمامنا ، ووضع فينا ملكة نفرق بها بينهما ، نعرف بها الخير من الشر ، سواء في ذلك العالم والجاهل ، والكبير والصغير . كلٌّ منهم يستريح ضميره إذا عمل الخير ، وينزعج إذا أتى الشر ، بل إن هذه الملكة موجودة حتى في الحيوان : القط إذا ألقيت إليه بقطعة اللحم أكلها أمامك ، متمهلاً مطمئناً ، وإذا خطفها ذهب بها بعيداً ، فأكلها على عجل ، وعينه عليك يخاف أن تلحق به ، فتنزعها منه ، أفليس معنى هذا أنه أدرك أن اللقمة الأولى حق له ، والثانية عدوان منه ؟..

أليس هذا تفريقاً منه بين الحق والباطل ، والحلال والحرام ؟.

والكلب إذا عمل حسناً تمسح بصاحبه ، كأنه يطلب منه المكافأة . وإذا

---

(٥) الراني والرائي : كلمتان وضعتهما للتلفزيون ، وهما (اسم فاعل) بمعنى (اسم المفعول) على المجاز العقلي ، كقوله تعالى : ﴿ فهو في عيشة راضية .. ﴾ ، أي : في عيشة مرضية .

أذنب ذنباً نأى فوقف بعيداً ، يبصبص بذنبه ، كأنه يبدي المعذرة أو يتوقع العقاب .

وهذا تأويل قوله تعالى : ﴿ وهديناه النجدين ﴾ .

وأقام الله على طريق الجنة دعاةً يدعون إليه ، ويدلّون عليه ، هم الأنبياء . كما قام على طريق النار ، دعاةٌ يدعون إليه ، ويرغّبون فيه هم الشياطين . وجعل العلماء ، ورثة الأنبياء ، فاطمة بنت محمد ماورثت منه مالا ولا عقاراً ، والعلماء ورثوا منه هذه (الدعوة) ، فمن قام بها حق قيامها استحق شرف هذا الميراث .

وهذه (الدعوة) صعبة ، لأن النفس البشرية طبعت على الميل إلى الحرية ، والدين يُقيدها ، وعلى الانطلاق وراء اللذه ، والدين يُمسكها ، فمن يدعو إلى الفسوق والعصيان ، يوافق طبيعتها ، فتمشي معه مشي الماء في المنحدر . اصعدْ إلى خزان الماء في رأس الجبل ، فاثقبه بضربة معول ، ينزل الماء وأنت واقف حتى يستقر في قرارة الوادي ، فإذا أردت أن تعيده لم يعد إلا بمضخات ، ومشقات ، ونفقات بالغات . والصخرة الراسية في الذروة ، لا تحتاج إلا إلى زحزحتها وإمالتها ، حتى تتدحرج وتهوي ، تنزل بلا مشقة ولا تعب ، فإذا أردت أن ترجعها ، وجدت المتاعب والمشقات .

وهذا هو مثال الإنسان .

الرفيق الشرير يقول لك : ها هنا امرأة جميلة ترقص عارية فتميل إليها نفسك ، ويدفعك إليها هواك ، ويسوقك إليها ألف شيطان ، فلا تشعر إلا وأنت على بابها . فإذا جاء الواعظ ليصرفك عنها ، صعب عليك الاستجابة إليه ، ومقاومة ميل نفسك ، وهوى قلبك .

فدعاة الشر لا يتعبون ولا يبذلون جهداً ، ولكن التعب وبذل الجهد على دعاة الخير ، وعلى الواعظ . داعي الشر عنده كل ما تميل إليه النفس ، من العورات المكشوفة ، والهوى المحرم ، وكل ما فيه متعة العين والأذن ولذة

القلب والجسد ، أما داعي الخير ، فما عنده إلا المنع .

ترى البنت المتكشفة فتميل إلى اجتلاء محاسنها ، فيقول لك : غض بصرك عنها ، ولا تنظر إليها . ويجد التاجر الربح السهل من الربا ، يناله بلا كد ولا تعب ، والنفس تميل إليه ، فيقول له : دعه وانصرف عنه ، ولا تمد يدك إليه . ويبصر الموظف رفيقه ، يأخذ من الرشوة في دقيقة واحدة ما يعادل مرتبه عن ستة أشهر ، ويتصور ما يكون له بها من سعة ، وما يقضي بها من حاجات ، فيقول له : لا تأخذها ، ولا تستمتع بها .

يقول لهم : اتركوا هذه اللذات الحاضرة المؤكدة ، لتنالوا اللذات الآتية المغيّبة . دعوا ما ترون وما تبصرون ، إلى ما لاترون الآن ولا تبصرون .. قاوموا ميل نفوسكم ، وهوى قلوبكم ، وذلك كله ثقيل على النفس ، ولا تنكروا وصفي الدين بأنه ثقيل ، فإن الله سماه بذلك في القرآن ، فقال : ﴿ سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ . وكل المعالي ثقيلات على النفس ، ترك التلميذ الراني والإقبال على الدرس ثقيل ، وترك العالم مجلس التسلية والاشتغال بالقراءة والإقراء ثقيل ، وترك النائم فراشه والنهوض إلى صلاة الفجر ثقيل ، وهجر الرجل زوجه وولده ومشيه إلى الجهاد ثقيل .

لذلك تجد الطالحين أكثر من الصالحين ، والغافلين السادرين في الغيّ أكثر من الذاكرين السالكين سبيل الرشاد ، ولذلك كان اتّباع الكثرة بلا بصر ولا دليل ، يُضل فاعله في أكثر الأحيان .. ﴿ وإن تُطِع أكثَر مَنْ في الأَرْض يُضلُّوكَ عنْ سَبيل الله ﴾ . ولولا أن القلة والندرة ، من صفات السموّ والرفعة ، ما كان الألماس [٦] نادراً ، والفحم كثيراً موفوراً ، ولا كان العباقرة والنابغون ، والأبطال المتميزون ، قلّةً في الناس .

إن الأنبياء وورثتهم من صالحي العلماء هم الدعاة إلى طريق الجنة ،

---

(٦) الذي جاء في أكثر كتب اللغة : أن لامها أصلية ، وذلك خلافاً لما في (القاموس المحيط) للفيروز ابادي .

والشياطين وأعوانهم من الفاسدين المفسدين من الناس ، هم الدعاة إلى طريق النار . وقد جعل فينا ــ في داخلنا ــ أنصاراً لهؤلاء وأنصاراً لهؤلاء ، في داخلنا حزب هو مع الأنبياء ، وحزب هو حزب الشياطين في النفس الأمارة بالسوء .

تقولون : ما العقل وما النفس ؟ ولست أدعي أني أضع لكل منهما حدوداً ظاهرة ، وأميّزها تمييزاً واضحا . فإن هذه الأمور ، لاتزال في ظلمات جَهْلنا بها ، لم يستطع العلم أن يضيء جوانبها . كلنا يقول : (قلت لنفسي) و (قال لي عقلي) ، فما أنت وما نفسك ؟ وما نفسك وما عقلك ؟ لم يتضح ذلك لنا بعد[٧] ، فلست أكشف هنا المجهول ، ولكن أذكر بمثال مشاهد معلوم :

تكون نائماً في ليالي الشتاء ، متمتعاً بدفء الفراش ، ولذة المنام ، فتسمع قرع المنبه يدعوك إلى الصلاة ، فتحسّ صوتاً من داخلك يقول لك : (قم إلى الصلاة) . فإذا جئت تقوم ، سمعت صوتاً آخر ، يقول لك : (نم قليلاً) . فيعود الصوت الأول يقول : (الصلاة خير من النوم) . فيقول الثاني :

---

(٧) إذا قلت (أنا) فإن جسدي جزء من الـ (أنا) ، ولكن ليس كل الـ (أنا) لأن المرء قد تبتر يداه ورجلاه ولاتنقص الـ (أنا) بالنسبة إليه ، ونفسي ــ أي ميولي وعواطفي ولذاتي وآلامي ــ جزء من الـ (أنا) وليس كل الـ (أنا) ، لأن المشاهد أن الإنسان يبدل عواطفه وميوله ، وأن ما يلذني اليوم وأنا على عتبة السبعين ، ما كان يلذني وأنا شاب ، وما كان يؤلمني وأنا شاب ، لم يعد يؤلمني اليوم .

فالجسد إذن يتبدل ــ حتى لا تبقى فيه خلية مما كان فيه قبل سنين ــ والنفس تتبدل آمالها وآلامها ــ فما الشيء الذي لا يتبدل في . والذي هو (أنا) على التحقيق ؟

هو الروح . وما الروح ؟

الله أطلعنا على كثير من وظائف أعضاء الجسم وأسرارها ، وأمراضها وعلاجها . وعلى كثير من أحوال النفس وعوارضها وأمراضها ، وقال لنا إن من النفوس : الأمارة بالسوء ، واللوامة ، والمطمئنة ، وإن النفس ذائقة الموت ، ولكنه لم يطلعنا على شيء من أحوال الروح لأنها من أمر ربي .

الروح لا تخضع لقيود الزمان والمكان . فقد ينام النائم ربع ساعة أمامك ، فيرى أنه سافر إلى أميركا أو الهند ، وعاش عشرين أو ثلاثين سنة ، وأحس بأقصى السرور أو بمنتهى الألم . فكيف دخلت عشرون سنة في عشرين دقيقة ؟ كيف تداخل المكانان ؟ هذا مثال لعذاب القبر والنعيم .

الروح لا يؤثر فيها المرض ولا الصحة ، الروح هي التي كانت موجودة قبل ارتباطها بهذا الجسد وبهذه النفس ، وستبقى بعد تحلل الجسد ، وفناء النفس ــ فأنا إذن الروح ــ وقد مدت لي هذه المعاني وأنا أعد الكتاب للطبعة الخامسة .

(النوم لذيذ ، والوقت متسع ، فتأخر دقائق) . ولا يزال الصوتان يتعاقبان ، تعاقب دقات الساعة : (نم . قم . نم . قم ..) [٨] . هذا هو العقل ، وهذه هي النفس . وهذا مثال يتكرر آلاف المرات ، في آلاف الصور ، كلما عرض للمرء مثل هذا الموقف فوقف أمام لذه محرمة تدعوه نفسه إلى غشيانها ، وكان في قلبه إيمان ، يدفع عقله إلى منعه منها ، وعلى مقدار ما يكون من انتصار العقل ، تكون قوة هذا الإيمان .

وليس معنى هذا أن ينتصر العقل دائما ، وأن لا يقارب المسلم المعاصي أبداً . فالإسلام دين الفطرة ، دين الواقع ، والواقع أن الله خلق خلقاً للطاعة الخالصة ، ولمحض العبادة ، هم (الملائكة) ، ولم يجعلنا الله ملائكة ، وخلق خلقا شأنهم المعصية والكفر هم (الشياطين) ، ولم يجعلنا كالشياطين ، وخلق خلقا لم يعطهم عقولاً ولكن غرائز ، فلا يكلفون ولا يسألون ، وهم (البهائم والوحوش) ، ولم يجعلنا الله وحوشاً ولا بهائم .

فما نحن إذن ؟ ما الإنسان ؟

الإنسان مخلوق متميز ، فيه شيء من الملائكة ، وشيء من الشياطين ، وشيء من البهائم والوحوش ، فإذا استغرق في العبادة ، وصفا قلبه إلى الله عند المناجاة ، وذاق حلاوة الإيمان في لحظات التجلي ، غلبت عليه في هذه الحال الصفة الملكية ، فأشبه الملائكة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فإذا جحد خالقه ، وأنكر ربه ، فكفر به ، أو أشرك معه في عبادته غيره ، غلبت عليه في هذه الحال الصفة الشيطانية .

وإذا عصف به الغضب ، فأوتر أعصابه ، وألهب دمه ، وشد عضلاته ،

---

(٨) ويحس مثل ذلك من يريد القفز من فوق حفرة أو ساقية ، وهو يرجو الوصول ويخشى السقوط ، ويسمع من نفسه صوتين يتعاقبان : ثب .. ارجع ، ثب .. ارجع . فإن وثب عند قول : (ثب) ولم يتردد نجح . وإن تردد حتى جاء قول : (ارجع) ووثب .. سقط ، وهذا مجرب .

فلم يعد له أمنية إلا أن يتمكن من خصمه فيعضه بأسنانه ، وينشب فيه أظافره ، ويطبق على عنقه بأصابعه ، فيخنقه خنقاً ثم يدعسه دعساً ، غلبت عليه في هذه الحال الصفة الوحشية ، فلم يبق بينه وبين النمر والفهد كبير فرق ، وإذا عضه الجوع ، وبرّح به العطش ، وانحصرت آماله ، في رغيف يملأ معدته ، وكأس تبل صداه ، أو تملكته الشهوة ، وسيطرت على نفسه (الرغبة الجنسية) فغلا بها دمه ، واشتعلت بها عروقه ، وامتلأ ذهنه بخيالات الشبق وأمانيه ، غلبت عليه في هذه الحال الصفة البهيمية ، فكان كالفحل أو الحصان ، أوماشئت من أصناف الحيوان .

هذه حقيقة الإنسان ، فيه الاستعداد للخير ، والاستعداد للشر ، أعطاه الله الأمرين ، ومنحه العقل الذى يميز به بينهما ، والإرادة التي يستطيع بها أن يحقق أحدهما ، فإن أحسن استعمال عقله فى التمييز ، وأحسن استعمال إرادته في التنفيذ ، ونّمى استعداده للخير ، حتى تخلق به وأنجزه ، كان في الآخرة من السعداء . وإن كانت الأخرى ، كان من المعذبين .

صحيح أن النفس مطبوعة على الحرية ، والدين قيد ، ولكن لابدّ من هذا القيد ، ولو تركناها تأتي الفواحش كما تشاء انطلاقاً من طبع الحرية فيها ، لصار المجتمع (مارستاناً) كبيراً ، لأن الحرية المطلقة للمجانين ، المجنون يفعل كل ما يخطر على باله ، يمشي في الطريق عارياً ، ويركب على كتفي سائق السيارة العامة ، ويستحسن ثوبك فيأخذه من فوق كتفيك ، وتعجبه ابنتك فيطلبها منك بحق الغرام ، لا بشرعة الإسلام .

المجنون هو الحر الحرية المطلقة ، وأما العاقل ، فإن عقله يقيد حريته . وما العقل ؟ إنه قيد ، إن لفظهُ مشتق من الأصل الذي اشتق منه (العقال)،أي الحبل الذي يقيد به الجمل . والحكمة ، قريب المعنى ، من (حَكَمة الدابة) وهي كذلك قيد ، والحضارة قيد ، لأنها لا تدعك تفعل ما تريد ، بل توجب عليك مراعاة حقوق الناس وأعراف المجتمع . والعدالة قيد ، لأنها تضع نهاية لحريتك ، حيث تبدأ حرية جارك .

ثم إن المعاصي لذيذة ، لأنها توافق طبيعة النفس ، إنك تجد لذة في سماع الغيبة والمشاركة فيها ، لأنها تشعرك بأنك خير من هذا الذي يذكرونه بالسوء وأفضل ، والسرقة لذيذة لأن فيها امتلاك المال بلا كد ولا نصب ، والزنا لذيذ لأن فيه إعطاء النفس هواها ، وإنالتها مشتهاها ، والغش في الامتحان لذيذ ، لأنه يوصل إلى النجاح بلا جهد ، والهرب من الواجب ــ مهما كان ــ لذيذٌ على النفس ، لأن فيه الراحة والكسل .

ولكن الإنسان حين يفكر ويستعمل عقله ، يجد أن هذه الحرية المؤقتة لا تساوي ما بعدها من سجن في جهنم طويل ، وهذه اللذة المحرمة ، لا تعدل ما بعدها من العذاب .

من يرضى أن نجعل بيننا وبينه عهداً ، (اتفاقية عند الكاتب العادل) مدتها سنة ، نعطيه خلالها كل ما يطلب من مال ، ونسكنه فى القصر الذي يريد ، في البلد الذى يختار ، ونزوجه بمن شاء من النساء ، مثنى وثلاث ورباع ، ولو طلق كل عشية واحدة ، وتزوج كل صباح أخرى ، ولا نمنع عنه شيئاً يريده ، ولكنا إذا انقضت السنة ، علقناه من عنقه على المشنقة حتى يموت ؟ ألا يقول : « تعساً وبعداً للذة سنة بعدها الموت ؟ » ألا يتصور نفسه ساعة يعلق على المشنقة ، فيرى أنه لم يبق في يده شيء منها ؟ مع أن ألم الشنق بضع دقيقة ، وعذاب الآخرة دهر طويل .

ليس منا أحد لم يقارف في عمره معصية ، ولم يجد لهذه المعصية لذة ، أقلها أنه آثر متعة الفراش مرة على القيام لصلاة الفجر ، فماذا بقي في أيدينا الآن من هذه اللذة التي أحسسنا بها قبل عشر سنين ؟ وليس منا أحد لم يكره نفسه على أداء طاعة ، ولم يحمل لهذه الطاعة ألماً ، أقله الجوع والعطش في رمضان ، فماذا بقي في نفوسنا الآن ، من ألم الجوع في رمضان ، الذي جاء من عشر سنين ؟ لاشيء .

ذهبت لذات المعاصي وبقي عقابها ، وذهبت آلام الطاعات وبقي ثوابها .

وساعة الموت ، ماالذي يبقى لنا ــ تلك الساعة ــ من جميع اللذائذ التي ذقناها ، والآلام التي حملناها ؟

إن كل مؤمن يريد أن يتوب ويرجع إلى الله ، ولكنه يؤجل ويسوف ، أنا كنت أقول : إذ حججت تبت وأنبت ، ثم رأيت أني حججت وما تبت ، وكنت أقول : إذا بلغت الأربعين تبت ، فبلغتها وما تبت ، وجاوزت الستين وما تبت ، وشبت وما تبت ، ليس معنى هذا أني مقيم على المحرمات ، مرتكب للفواحش ، لا وبحمد الله . ولكن معناه ، أن الإنسان يرجو لنفسه الصلاح ، ولكنه يسوف ، يظن أن في الأجل فسحة ، يحسب أن العمر طويل ، فيرى الموت قد طرقه فجأة . وقد رأيت أنا الموت مرتين ، وعرفت ما شعور الميت ، لقد ندمت على كل دقيقة أضعتها في غير طاعة ... إي والله . فلما نجوت ، بقيت على هذا الشعور شهوراً ، صرت فيها صالحاً ، ثم انغمست مرة ثانية في غمرة الحياة ، ونسيت .. نسيت الموت .

كلنا ننسى الموت ، نرى الأموات يمرون بنا كل يوم ، ولكن لا نتصور أننا سنموت . نقف في صلاة الجنازة ونحن نفكر في الدنيا ، يظن كل واحد منا أن الموت كتب على الناس كلهم إلا عليه ، مع أن الإنسان يعلم أن الدنيا مولية عنه ، وأنه مُوَلٍّ هو عنها .

مهما عاش الإنسان فهو ميت ، ليعش ستين سنة ، ليعش سبعين ، ليعش مئة سنة ، ألا تنقضي ؟ ألا تعرفون من عاش مئة سنة ثم مات ؟ نوح لبث يدعو قومه تسعمئة وخمسين سنة . فأين نوح الآن ؟ هل بقيت له الدنيا ؟ هل سلم من الموت ؟ فلماذا لانفكر في الموت ، ونستعد له ، إن كان لابد منه ؟

من كانت أمامه سفرة لايعرف موعدها ألا يتهيأ لها ، حتى يكون جاهزاً ، فإذا دعي أجاب ؟ رأيت (وكنت الصيف الماضي في عمان) المعلمين الأردنيين ، الذين تعاقدوا مع المملكة العربية السعودية للعمل فيها ، وقد خبروهم أن الطيارات تنقلهم تباعاً ، فليستعدوا ، فمن أنجز جواز سفره ،

وأكمل حزم متاعه ، وودع أهله ، ووضع إلى جنبه ثيابه ؛ فإنه يلبي في أي ساعة يدعى فيها ، فيلبس ثيابه ويمضي إلى المطار . ومن أهمل وأجّل ، حتى إذا دعي قال لهم : أمهلوني حتى أنزل إلى السوق فأشتري متاعي ، وأذهب إلى القرية فأودع أهلي ، وأراجع الحكومة لاستخراج جوازي ؟ لم يمهلوه ، بل ذهبوا وتركوه . ولكن ملك الموت إذا جاء لا يتركه ويذهب ، بل يأخذه كرها ، يأخذه ولو كان آبياً ، لايمهله ساعة ، ولادقيقة ، ولا لمحة ، ولا يملك أن يمهله. وليس يعرف أحد منا متى يأتي ليأخذه ملك الموت .

وما الموت ؟ ما حقيقته ؟ إن لحياة الإنسان مراحل ، فمرحلة وهو جنين في بطن أمه ، ومرحلة وهو في هذه الدنيا ، ومرحلة وهو في البرزخ بين الدنيا والآخرة ، من يوم موته إلى يوم القيامة ، والمرحلة الدائمة وهي الحياة الحقيقية ، مرحلة الآخرة . ونسبة كل مرحلة لما قبلها كنسبة ما بعدها إليها .

إن سعة هذه الدنيا بالنسبة لضيق بطن الأم ، كسعة البرزخ بالنسبة لهذه الدنيا ، وسعة الآخرة بالنسبة للبرزخ . إن الجنين يحسب دنياه هذا البطن ، ولو عقل وفكر ، وسئل وأجاب ، لقال بأن خروجه منه موت محقق ، ولو كان في البطن توأمان ، فولد أحدهما قبل الآخر ، ورآه نزل قبله ، ففارقه وقد كان معه ، لقال بأنه مات ، ودفن في الأعماق . ولو رأى المشيمة التي كانت من جسده ، ملقاة مع القمامة لظن بأنها هي أخوه ، وبكى عليها ، كما تبكي الأم حين ترى جسد ولدها الذي كانت تخشى عليه مس الغبار قد أودع التراب ، لاتدري أن هذا الجسد كالمشيمة ، قميص توسخ وألقي ، ثوب انتهى وقته ، وانقضت الحاجة إليه .

هذا هو الموت ، إنه (ولادة جديدة) ، خروج إلى مرحلة أطول وأرحب من مراحل الحياة ، وماهذه الدنيا إلا طريق ، حياتنا فيها كحياة المهاجر إلى أميركا ، إنه يحسن اختيار غرفته في الباخرة ، ويحرص على راحته فيها ، ويهتم بها ، ولكن هل ينفق ماله كله على تجديد فرشها ، ونقش جدرانها ، حتى لايبقى معه شيء فيصل إلى أميركا مفلساً خالي الوفاض ؟ أم يقول : إن مدة

بقائي في هذه الغرفة أسبوعاً ، فأنا أرضى فيه بما تيسر ، وأمشّي فيه الحال ، وأدخر المال لإعداد الدار التي سأسكنها في أميركا ؛ لأن فيها المقام ؟

أتعرفون مامثال الدنيا والآخرة ؟ أعلنت أميركا مرة عن تجربة ذرية تجريها في جزيرة صغيرة من جزر البحر الهادي ، وكان ذلك من خمس عشرة سنة (أو نحوها) ، وكان في الجزيرة بضع مئات من السكان من صيادي الأسماك ، فطلبت إليهم إخلاء مساكنهم ، على أن تعوضهم عنها وعما فيها ، ببيوت مفروشة ، في أي بلد يريدون من البلدان ، على أن يعلنوا استعدادهم لإخلائها ، وإحصاءهم لما فيها ، قبل موعد كذا (وحددت لهم موعدا) ، ثم تأتي الطيارات فتحملهم من الجزيرة .

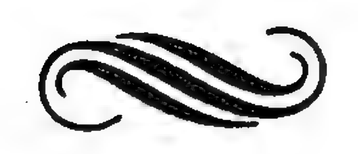
فمنهم من أعلن الاستعداد للإخلاء ، وقدم الإحصاء قبل الموعد ، ومنهم من أهمل وأجل حتى قرب الموعد ، ومنهم من قال هذا كله كذب . مافي الوجود مكان اسمه أميركا ، وما الدنيا إلا هذه الجزيرة ، ولسنا نتركها ، ولانرضى أن نفارقها ، ونسي أن الجزيرة ستنسف كلها فتكون أثراً بعد أن كانت عيناً .

هذا مثل الدنيا ، والأول مثل المؤمن الذي يفكر في آخرته ، ويستعد بالتوبة والطاعة دائماً للقاء ربه ، والثاني مثل المؤمن المقصر العاصي ، والثالث مثل المادي الكافر ، الذي يقول : إنما هي حياتنا الدنيا ، لا حياة بعدها ، وإن الموت نوم طويل ، وراحة دائمة ، وفناء محقق .

وليس معنى هذا أن الإسلام يطلب من المسلم أن يزهد في الدنيا مرة واحدة ، وينفض أصابعه منها ، ولا أن يسكن المساجد فلا يخرج منها ، ولا أن يأوي إلى مغارة يمضي حياته فيها ، لا ... بل إن الإسلام يطلب من المسلمين أن يكونوا في الحضارة الخيرة سادة المتحضرين ، وفي المال أغنى الأغنياء ، وفي العلم ـــ العلم كله ـــ أعلم العلماء ، وأن يعرف كل مسلم حق جسده عليه بالغذاء والرياضة ، وحق نفسه بالتسلية والإجمام والمتعة بغير الحرام ، وحق أهله

بالرعاية وحسن الصحبة ، وحق ولده بالتربية والتوجيه والعطف ، وحق المجتمع بالعمل على كل مايصلحه . كما يعرف حق الله بالتوحيد وبالطاعة .

يجمع المال ولكن من الحلال ، ويستمتع بالطيبات المباحة ، ويكون في الدنيا على أحسن مايكون عليه أهلها ، بشرط أن يبقى صحيح التوحيد ، لايداخل إيمانه شرك ظاهر أو خفي ، صحيح الإسلام ، يدع المحرمات ، ويأتي الفرائض ، وأن يكون المال في يده لا في قلبه ، لا يكون اعتماده عليه ، بل يكون اعتماده على ربه ، وأن يكون رضا الله هو مقصده ومبتغاه .



دينُ الإسلام

ما الإسْلام ؟

قلت مرة لتلاميذي : « لو جاءكم رجل أجنبي ، فقال لكم : إن لديه ساعة من الزمن ، يريد أن يفهم فيها ماالإسلام ، فكيف تفهمونه الإسلام في ساعة » . قالوا : « هذا مستحيل ، ولا بد له أن يدرس التوحيد والتجويد ، والتفسير والحديث والفقه والأصول ، ويدخل في مشكلات ومسائل ، لايخرج منها في خمس سنين » . قلت : « سبحان الله أما كان الأعرابي يقدم على رسول الله ﷺ ، فيلبث عنده يوماً أو بعض يوم ، فيعرف الإسلام ويحمله إلى قومه ، فيكون لهم مرشداً ومعلماً ، ويكون للإسلام داعياً ومبلغاً ؟ وأبلغ من هذا ، أما شرح الرسول الدين كله (في حديث سؤال جبريل) بثلاث جمل ، تكلم فيها عن : الإيمان ، والإسلام ، والإحسان ؟ فلماذا لا نشرحه اليوم في ساعة ؟ .. » .

فما الإسلام ؟ وكيف يكون الدخول فيه ؟

كل نحلة من النحل الصحيحة والباطلة ، وكل جمعية من الجمعيات النافعة والضارة ، وكل حزب من الأحزاب الخيرة والشريرة ، لكل ذلك (مبادىء) وأسس فكرية ، ومسائل عقائدية ،[9] تحدد غايته وتوجه سيره ، وتكون كالدستور لأعضائه وأتباعه .

ومن أراد أن ينتسب إلى واحد منها ، نظر أولا إلى هذه (المبادىء) ،

---

(٩) تجوز النسبة إلى الجمع إذا جرى مجرى العلم ، فتقول : (حقوق دولية) ، و (قوانين عمالية) ، و (مظاهرات طلابية) ، و (مسائل عقائدية) . كما قالوا كذلك : (عالم أصولي) ، و (رجل أنصاري) ، و (مائدة ملوكية) ، و (رسائل إخوانية) ..

فإن ارتضاها واعتقد صحتها ، وقبل بها بفكره الواعي وبعقله الباطن ، ولم يبق عنده شك فيها ، طلب (الانتساب) إلى الجمعية ، فانتظم في سلك أعضائها ومتبعيها ، ووجب عليه أن يقوم بالأعمال التي يلزمه بها دستورها ، ويدفع رسم الاشتراك الذي يحدده نظامها ، وكان عليه (بعد ذلك) أن يدل بسلوكه على إخلاصه لمبادئها ، فيتذكر هذه المبادىء دائماً ، فلا يأتي من الأعمال ما يخالفها ، بل يكون بأخلاقه وسلوكه ، مثالا حسنا عليها ، وداعية فعليا لها .

فالعضوية في الجمعية هي : (علم) بنظامها ، و (اعتقاد) بمبادئها (إطاعة) لأحكامها ، و (سلوك) في الحياة موافق لها . هذا وضع عام ، ينطبق على الإسلام . فمن أراد أن يدخل في دين الإسلام عليه (أولا) أن يقبل أسسه العقلية ، وأن يصدق بها تصديقا جازما ، حتى تكون له (عقيدة) . وهذه الأسس تتلخص في أن يعتقد أن هذا العالم المادي ليس كل شيء ، وأن هذه الحياة الدنيا ليست هي الحياة كلها . فالإنسان كان موجوداً قبل أن يولد ، وسيظل موجوداً بعد أن يموت ، وأنه لم يوجد نفسه ، بل وجد قبل أن يعرف نفسه ، ولم توجده هذه الجمادات من حوله ، لأنه عاقل ولا عقل لها ، بل أوجده وأوجد هذه العوالم كلها من العدم إله واحد ، هو وحده الذي يحيي ويميت ، وهو الذي خلق كل شيء ، وإن شاء أفناه ، وذهب به ، وهذا الإله لا يشبه شيئا مما في العوالم ، قديم لا أول له ، باق لا آخر له ، قادر لا حدود لقدرته ، عالم لا يخفى شيء عن علمه ، عادل ولكن لا تقاس عدالته المطلقة بمقاييس العدالة البشرية ، هو الذي وضع نواميس الكون التي نسميها (قوانين الطبيعة) ، وجعل كل شيء فيها بمقدار ، وحدد من الأزل جزئياته وأنواعه ، ومايطرأ عليه (على الأحياء وعلى الجمادات) من حركة وسكون ، وثبات وتحول ، وفعل وترك ، ومنح الإنسان عقلا يحكم به على كثير من الأمور ، التي جعلها خاضعة لتصرفه ، وأعطاه عقلا يختار به مايريد ، وإرادة يحقق بها مايختار ، وجعل بعد هذه الحياة المؤقتة حياة دائمة في الآخرة ، فيها يكافأ المحسن في الجنة ، ويعاقب المسيء في جهنم .

وهذا الإله واحد أحد ، لاشريك له يعبد معه ، ولا وسيط يقرب إليه ويشفع عنده بلا إذنه ، فالعبادة له وحده خالصة ، بكل مظاهرها .

له مخلوقات مادية ظاهرة لنا ، تدرك بالحواس ، ومخلوقات مغيبة عنا ، بعضها جماد وبعضها حي مكلف ، ومن الأحياء ماهو خالص للخير المحض ، (وهم الملائكة) ، ومنها ما هو مخصوص بالشر المحض (وهم الشياطين)[10] ، وماهو مختلط ، منه الخير والشرير ، والصالح والطالح (وهم الإنسُ والجن) . وأنه يختار ناساً من البشر ، ينزل عليهم الملك بالشرع الإلهي ليبلغوه البشر ، وهؤلاء هم الرسل .

وأن هذه الشرائع تتضمنها كتب وصحائف أنزلت من السماء ، ينسخ المتأخر منها ماتقدمه أو يعدله . وأن آخر هذه الكتب هو القرآن ، وقد حرفت الكتب والصحف قبله ، أو ضاعت ونسيت ، وبقي هو سالما من التحريف والضياع ، وأن آخر هؤلاء الرسل والأنبياء هو محمد بن عبد الله العربي القرشي ، ختمت به الرسالات ، وبدينه الأديان ، فلا نبي بعده .

فالقرآن هو دستور الإسلام ، فمن صدق بأنه من عند الله ، وآمن به جملة وتفصيلا ، سمي (مؤمنا) . والإيمان بهذا المعنى ، لايطلع عليه إلا الله ، لأن البشر لا يشقون قلوب الناس ، ولا يعلمون مافيها ، لذلك وجب عليه ليعدّه المسلمون واحداً منهم ، أن يعلن هذا الإيمان بالنطق بلسانه بالشهادتين .

وهما : « أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله »

فاذا نَطق بهما صار مسلما ، أي : (مواطنا) أصيلا في دولة الإسلام ، وتمتع بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلم ، وقبل بالقيام بجميع الأعمال التي يكلفه بها الإسلام .

وهذه الأعمال (أي العبادات) قليلة ، سهلة ، ليس فيها مشقة بليغة ،

---

(١٠) والشياطين من الجن .

وليس فيها حرج .

أولها : أن يركع في الصباح ركعتين يناجي فيهما ربه ، يسأله من خيره ، ويعوذ به من عقابه ، وأن يتوضأ قبلهما أي يغسل أطرافه ، أو يغسل جسده كله (إن كانت به جنابة) .

وأن يركع في وسطه أربعا ، ثم أربعا ، وأن يركع بعد غياب الشمس ثلاثاً ، وفي أول الليل أربعاً .(١١)

هذه هي الصلوات المفروضة ، لايستغرق أداؤها كلها نصف ساعة في اليوم ، لايشترط لها مكان لا تؤدى إلا فيه ، ولا شخص معين (أي رجل دين) لا تصح إلا معه ، ولا واسطة فيها (ولا في العبادات كلها) بين المسلم وربه .

الثاني : أنَّ في السنة شهرا معينا ، يقدم فيه المسلم فطوره ، فيجعله في آخر الليل بدلا من أن يكون في أول النهار ، ويؤخر غداءه إلى مابعد غروب الشمس ، ويمتنع في النهار عن الطعام والشراب ومعاشرة النساء ، فيكون من ذلك شهر صفاء لنفسه ، وراحة لمعدته ، وتهذيب لخُلقه ، وصحة لجسده ، ويكون هذا الشهر مظهرا من مظاهر الاجتماع على الخير ، والتساوي في العيش .

الثالث : أنه إذا فضل عن نفقات نفسه ، ونفقات عياله ، مقدار من المال محدود ، بقي سنة كاملة لا يحتاج إليه ، لأنه في غنى عنه ، كلف أن يخرج منه بعد انقضاء السنة ، مبلغ (٥ر٢) في المئة ، للفقراء والمحتاجين ، لا يحس هو بثقلها ، ويكون منها عون بالغ للمحتاج ، وركن وطيد للتضامن الاجتماعي ، وشفاء من داء الفقر ، الذي هو من شر الأدواء .

الرابع : أن الإسلام رتب للمجتمع الإسلامي ، اجتماعات دورية .

اجتماع بمثابة مجالس الحارات ، يعقد خمس مرات في اليوم ، مثل

---

(١١) وتحديد وقتها وبيان كيفيتها يكون بعد

حصص المدرسة ، هو صلاة الجماعة ، يوثق كل عضو فيه عبوديته لله بالقيام بين يديه ، ويكون من ثماره أن يعين الأقوياء الضعيف ، ويعلّم العلماء الجاهل ، ويسعف الأغنياء الفقير . ومدة انعقاده ربع ساعة . فلا يعطل عاملا عن عمله ، ولا تاجراً عن تجارته ، وإذا تم الاجتماع وتخلف عنه مسلم فصلى في بيته ، لم يعاقب على تخلفه ولكن فاته ثواب حضوره .

واجتماع لمجالس الأحياء . يعقد مرة في الأسبوع ، هو (صلاة الجمعة) ، ومدة انعقاده أقل من ساعة . وحضوره واجب على الرجال .

واجتماع كمجالس المدينة ، يعقد مرتين في السنة ، وهو (صلاة العيد) . وحضوره ليس على سبيل الإلزام . ومدة انعقاده أقل من ساعة .

واجتماع ، هو كالمؤتمر الشعبي العام ، يعقد كل سنة في مكان معين ، هو في الحقيقة دورة توجيهية ورياضية وفكرية ، يكلف المسلم بأن يحضره مرة واحدة في العمر ، إذا قدر على حضوره . وهو (الحج) .

هذه هي (العبادات) الأصلية التي يكلف بها .

ومن العبادات أن يمتنع عن أفعال معينة ، أفعال يجمع عقلاء الدنيا على أنها شر ، وأن الواجب الامتناع عنها ، كالقتل بلا حق ، والتعدي على الناس ، والظلم بأنواعه ، والمسكر الذي يغيب العقل ، والزنا الذي يذهب الأعراض ، ويخلط الأنساب ، والربا ، والكذب ، والغش ، والغدر ، والفرار من الخدمة العسكرية التي يراد منها إعلاء كلمة الله ، ومنها (بل من أشدها) عقوق الوالدين ، والحلف كاذباً ، وشهادة الزور . وأمثال ذلك من الأعمال القبيحة الشريرة ، التي تجتمع العقول على إدراك قبحها وشرها .

وإذا قصر المسلم في القيام ببعض الواجبات ، أو ارتكب بعض الممنوعات ، ثم رجع (وتاب) وطلب العفو من الله ، فإن الله يعفو عنه ، وإن لم يتب فإنه يبقى مسلما معدودا في المسلمين ، ولكنه يكون (عاصيا) يستحق العقاب في الآخرة ، ولكن عقابه مؤقت ، لا يدوم دوام عقاب الكافر .

أما إذا أنكر بعض المبادىء ، أي العقائد الأصلية ، أو شكّ فيها ، أو جحد واجبا مجمَعاً على وجوبه ، أو حراما مجمَعاً على حرمته ، أو أنكر ولو كلمة واحدة من القرآن ، فإنه يخرج من الدين ، ويعتبر مرتداً تنزع عنه الجنسية الإسلامية ،والردة أكبر جريمة في الإسلام ، فهي كالخيانة العظمى في القوانين الحديثة ، جزاؤها (إن لم يرجع عنها ، ويتنصل منها) الموت .

قد يترك المسلم بعض الواجبات ، أو يأتي بعض الممنوعات ، وهو معترف بالوجوب والحرمة ، فيبقى مسلما ، ولكنه يكون (عاصياً) ، أما الإيمان فلا يتجزأ، فلو آمن مثلا بتسع وتسعين عقيدة ، وكفر بواحدة فقط ، كان كافرا .

وقد يكون المسلم غير مؤمن ، كمن انتسب إلى حزب أو جمعية ، وحضر اجتماعاتها ، ودفع اشتراكاتها ، وقام بواجب العضو فيها ، ولكنه لم يقبل بمبادئها ، ولم يقتنع بصحتها ، بل دخل فيها للتجسس عليها ، أو إفساد أمرها .

وهذا هو (المنافق) الذي ينطق[١٢] بالشهادتين . ويؤدي العبادات ظاهرا ، ولكنه غير مؤمن بالحقيقة ولا ناج عند الله ، وإن كان عند الناس معتبرا من المسلمين ، لأن الناس لهم الظواهر ، والله وحده يطّلع على السرائر والقلوب .

فإذا آمن الإنسان بالأسس الفكرية للإسلام ، وهي التصديق المطلق بالله ، وتنزيهه عن الشريك والوسيط ، وبالملائكة ، وبالرسل ، وبالكتب ، وبالحياة الأخرى ، وبالقدر ، ونطق الشهادتين ، وصلى الفرائض ، وصام رمضان ، وأدى زكاة ماله ؛ إن وجبت عليه الزكاة ، وحج مرة في العمر إن

---

(١٢) النفاق هو إظهار الإيمان . وإبطان الكفر . وليس منه قوله ﷺ « آية المنافق ثلاث الخ .. » فمن أخلف الوعد ، وكذب القول ، أو خان الأمانة ، لا يعتبر بهذا وحده كافرا ، وإنما هو نفاق اجتماعي ، غير النفاق الأصلي ، نفاق العقيدة الذي ذكرناه .

استطاع ، وامتنع عن المحرمات المجمع على حرمتها ؛ فهو مسلم مؤمن ، ولكن ثمرة الإيمان لا تظهر منه ، ولايحس بحلاوته ، ولايكون مسلما كاملا ، حتى يسلك في حياته مسلك المسلم المؤمن . وقد لخص رسول الله ﷺ ، منهاج هذا السلوك ، بجملة واحدة ، كلمة من جوامع الكلم ، ومن أبلغ مانطق به بشر .

كلمة تجمع الخير كله ، خير الدنيا ، ومافي عقبه من خير الآخرة .

هي : أن يتذكر المسلم في قيامه وقعوده ، وخلوته وجلوته ، وجده وهزله ، وفي حالاته كلها ، أن الله مطلع عليه ، وناظر إليه ، فلا يعصيه وهو يذكر أنه يراه ، ولايخاف أو ييأس وهو يعلم أنه معه ، ولا يشعر بالوحشة وهو يناجيه ، لايحس بالحاجة إلى أحد ، وهو يطلب منه ويدعوه ، فإن عصى — ومن طبيعته أنه يعصي — رجع وتاب ، فتاب الله عليه .

كل ذلك من قوله ﷺ ، في تعريف (الإحسان) : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

هذا هو دين الإسلام بالقول المجمل ، وتفصيله يأتي : (العقيدة) في هذا الجزء ، و (الإسلام) و (الإحسان) في الأجزاء التالية إن شاء الله .





تعريفـات

لابد لي في هذا الفصل الذي أعرّف فيه (العقيدة) من أن أعرض إلى توضيح بعض المصطلحات التي يكثر دورانها على ألسنة العلماء ، وورودها في كتب العقائد ، وهي : (الشك) ، و (الظن) ، و (العلم) ، لأصل منها إلى تعريف (العقيدة) .

(ديكارت) في منهجه المشهور ، ومن قبله (الغزالي) في (المنقذ من الضلال) ، بدآ بالشك ليصلا منه إلى اليقين ، شك ديكارت ، ليتخذ من الشك سبيلا للتحقق ، فما هو الشك ؟

إذا كنت في مكة مثلا ، وسألك سائل : هل في الطائف الآن مطر ؟ لاتستطيع أن تقول : (نعم) ، ولاتستطيع أن تقول : (لا) . لأن من الممكن أن يكون في الطائف في تلك الساعة مطر ، ومن الممكن أن يكون الجو فيها صحوا لامطر فيه ، إمكان وجود المطر خمسون في المئة مثلا ، وإمكان عدمه خمسون ، تساوى الطرفان فلا دليل يرجح الوجود ، ولا دليل يرجح العدم . وهذا هو الشك .

فإن نظرت فأبصرت في جهة الشرق ، (والطائف شرقي مكة) غيوما تلوح على حواشي الأفق من بعيد ، رجح عندك رجحانا خفيفا أن في الطائف مطرا . وهذا الرجحان الخفيف لإمكان الوجود ، هو مايسمونه (الظن) ، فأنت تقول : أظن أن في الطائف الآن مطرا ، فالظن ستون في المئة مثلا (نعم) ، وأربعون (لا) .

فإن رأيت الغمام قد ازداد وتراكم ، واسود وتراكب ، وخرج البرق يلمع

من خلاله ، وازداد ظنك بنزول المطر في الطائف ، فصار لـ (نعم) سبعون أو خمس وسبعون في المئة ، كان هذا مايسميه علماؤنا بـ (غلبة الظن) ، فأنت تقول لسائلك : يغلب على ظني أن في الطائف الآن مطرا ، فإن أنت ذهبت إلى الطائف ، فرأيت المطر بعينك ، وأحسست به على وجهك ، أيقنت بنزوله ، وعلماؤنا يسمون هذا اليقين (علما) .

فصار لكلمة (العلم) معانٍ : (العلم) المطلق الذي يقابل الجهل ، (والعلم) الذي يقابل الفن والفلسفة . فالكيمياء علم ، والفيزياء علم . أما الرسم فهو فن ، والشعر فن . والعلم بهذا المعنى هو الذي تكون غايته الحقيقة ، وأداته العقل ، ووسيلته المحاكمة ، والتجربة ، والاستقراء . والفن هو الذي تكون غايته الجمال ، وأداته الشعور ، ووسيلته الذوق .

(والعلم) الذي يجيء بمعنى اليقين ، ويقابل الشك والظن ، هو الذي نقصده في هذا البحث.[١٣]

العلم الضروري والعلم النظري :

العلم الذي يحصل بالحس والمشاهدة ، لايحتاج إلى دليل . الجبل الذي تراه أمامك لاتحتاج إلى إقامة الدليل على وجوده ، إنك تعلم — ضرورة — بأنه موجود ، وكل من يراه (من العقلاء) يعلم أنه موجود .

وهذا مايسمى (العلم الضروري) ، أما العلم بأن مربع الوتر (في المثلث القائم الزاوية) يساوي مجموع مربعي الضلعين القائمين ، فيحتاج إلى دليل عقلي ، فالعالم أو طالب العلم الذي يصل إلى الدليل ، يعلم هذه الحقيقة ، أما العامي الجاهل فلا يعلمها ، ولايصدق بها ، مادام لم يطلع على هذا الدليل .

---

(١٣) أما العلم بالمعنى الخاص : كقولنا (علم النحو) ، و (علم الكيمياء) . فلعلمائنا فيه تعريفات كثيرة ، ولكن أوضح تعريف وأبعده عن التعقيد ، هو ما عرفه به (سارتون) بقوله : « العلم هو مجموعة معارف محققة ومنظمة .. » . فبقوله (معارف) خرجت المشاعر والخيالات ، وبقوله (محققة) خرجت النظريات والفروض ، وبقوله منظمة خرجت المعارف المبعثرة المتفرقة .

ولو رأى المثلث أمامه ، ولو أقيم على كل ضلع منه ، مربع له . وهذا مايسمى به (العلم النظري) ، وهو الذي لايحصل إلا بالدليل العقلي .

البديهية والعقيدة :

ومن العلم النظري ، مايحتاج في الأصل إلى دليل ، ولايدرك بمجرد الحس والمشاهدة ، ولكنه يعم ويشتهر ، حتى يدركه العالم والجاهل ، والكبير والصغير ، وحتى يصير أقرب إلى (العلم الضروري). مثاله : العلم بأن (الجزء أصغر من الكل) ، الرغيف الناقص أصغر من الرغيف الكامل ، هذه حقيقة هي في الأصل من العلم النظري الذي يحتاج إلى دليل ، ولكنك لا تجد من يشك فيها ، ويطلب الدليل عليها ، فالطفل إذا أخذت منه كف (الشكلاطة) الكامل ، وأعطيته كفا ناقصا لايقبله ، وإذا حاولت إقناعه بأن هذا أكبر لم يقنع ، لأن كون (الجزء أصغر من الكل) بديهية .

و(مقولة الهُوية) — أي كون الشيء هو نَفْسُه — بديهية ، ولو قال لك قائل : « أثبت لي أن هذا القلم الذي تحمله بيدك ليس ملعقة شاي » . تقول له : « هذه بديهية ، لاتحتاج إلى إثبات لأن القلم قلم .. » .

فالبديهيات[(١٤)] هي الحقائق العقلية التي يقبلها الناس جميعا ، ولايطلب أحد عليها دليلا ، فإذا دخلت البديهية العقل الباطن ، واستقرت فيه ، وأثرت في الحدس والشعور ، ووجهت الإنسان في تفكيره (عقله الواعي) ، وفي أعماله ، سميت : (عقيدة) ، وسمي الاعتقاد بها : (إيمانا) .

ولكنا نعرف أن الإنسان يعتقد الحق أحيانا ، ويعتقد الباطل حينا ، ونشاهد في هذه الأيام ، من أتباع المذاهب المنحرفة ، و (المبادىء) الباطلة ، من امتزج بها قلبا وقالبا ، وتمسك بها ظاهرا وباطنا ، وبذل ماله ونفسه

---

(١٤) القياس : أن نقول في النسبة إلى البديهية (بدهي) ، ولكن علماءنا استعملوا من القديم كلمة (بديهي) و (طبيعي) ، كما يستعملها جمهور الناس اليوم ، وأنا أوثر أن استعمل العامي الفصيح ، تنبيها على فصاحته ، وقد نبهت في حواشي كتبي إلى عشرات وعشرات من هذه الكلمات .

في نصرتها وحمايتها ، فهل نسمي هؤلاء (مؤمنين) ؟

أما إطلاقا فلا ، ولكن يمكن أن نطلق عليه اسم الإيمان مضاف إلى الباطل الذي يؤمنون به ، على نحو قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ والطَّاغُوتِ ﴾ ؟.

ويمكن إطلاق اسم الإيمان مقيدا بالوصف ، نحو قوله تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ باللهِ إلاَّ وَهُم مُشْرِكُونَ ﴾ .

أما (الإيمان) بالمعنى الخاص ، الذي لاينصرف إذا أطلق إلا إليه ، ولا يدل إلا عليه ، المعنى الذي يراد كلما ورد ذكر الإيمان ومشتقاته ، في الكتاب والسنّة ، وعلى ألسنة العلماء ، فهو :

الاعتقاد بالله ربا واحدا .

ــ ومالكا مختارا متصرفا .

ــ وإلها مفردا بالعبادة ، لايشرك معه غيره في كل ماهو من جنس العبادة .

ــ والاعتقاد بكل ماأوحى به إلى نبيه ، من : خبر الملائكة ، والرسل ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره .

وصاحب هذا الاعتقاد هو (المؤمن) ، فإن نقص[15] شيئا منه ، أو ردّه ، أو تردد في تصديقه ، أو شك فيه ، فَقَدَ صفةَ الإيمان ، ولم يعدْ يعدُّ مع المؤمنين .



---

(١٥) نقص شيئاً منه بمعنى أنقص .

قواعدُ العقائدِ (١٦)

القاعدة الأولى :

ماأدركه بحواسي لاأشك في أنه موجود .

هذه بديهية عقلية مسلّمة ، ولكن المشاهد أني أمشي في الصحراء ساعة الظهيرة ، فأرى بركة ماء ، تلوح ظاهرة للعين ، فإذا جئتها لم أجد إلا التراب لأن الذي رأيته سراب . وأضع القلم المستقيم في كأس الماء ، فأراه منكسرا ، وهو لم ينكسر .

ويكون المرء في سهرة ، الحديث فيها عن الجن والعفاريت ، ثم يذهب إلى داره ، فإن كان الطريق خاليا مظلما ، وكان مخلوع القلب ، واسع الخيال ، رأى أمامه جنيا أو عفريتاً ، فشاهده وأحس بوجوده ، وما ثمة شيء مما

---

(١٦) استأذن قارىء كتابي : أن أمهد لذكر هذه القواعد بكلمة ليست من موضوع هذا الكتاب ، ولكنها تبين قصتها ، وكيف وصلت إليها . وتفصيل ذلك :

أنني كنت أدرس الأدب العربي في بغداد قبل الحرب الثانية ، فكلفت في النصف الثاني من العام أن ادرس معه الدين ، وكان منهج الدين سورا من القرآن تفسر وتشرح .. فقبلت ودخلت فإذا الفصل في هرج ومرج ، وكان عهدي به درس الأدب هادئا ساكنا ، وإذا الطلاب يتخذون من درس الدين مسلاة ومضيعة للوقت ، وأدركت أن سبب ذلك ضعف الإيمان في نفوسهم ، فقلت لهم : ارفعوا المصاحف واسمعوا ، وألهمني الله إلهاما مفاجئا ، بلا إعداد سابق بحثا جديدا في الإيمان ، وضعت فيه بعض هذه القواعد ، ونشرت خلاصته في الرسالة سنة (١٩٣٧) أو سنة (١٩٣٨) ، وهو في كتابي : (فكر ومباحث) . ولما كلفت وضع مناهج مدارس الأوقاف في سورية (أيام الوحدة) ، ووضعتها كلها وحدي ، وطبقت كما وضعتها ، أدخلت هذه القواعد في المنهج ، ودللتَ على ما كتبته ليكون مرجعا . فأخذه أحد المؤلفين في العقائد وادعاه لنفسه ، ووضعه في كتابه ، ولكن لم يهتد إلى ما أريده منه . فمشى في أول الطريق وضاع في آخره . فلما أحلت على المعاش (وكنت مستشار محكمة النقض) ، ذهبت إلى الرياض ، ثم إلى مكة ، أدرس في كلية التربية فيها سنة ١٣٨٤ ، رجعت إلى هذه القواعد ، وزدت فيها حتى بلغت ثماني قواعد ، هي التي أذكرها هنا .

رأى ، والسحرة والمشعوذون يعرضون غرائب تراها ولا حقيقة لها .

فالحواس إذن تخطىء ، وتخدع ، وتتوهم ، أو يتوهم صاحبها . فهل أشك لهذا في وجود ماأحس به ؟

لا ، لأني إن شككت فيما أرى وأسمع وأحس ، تداخلت لديّ الحقائق والخيالات . وصرت أنا والمجنون سواء .

ولكن أضيف شرطا آخر لحصول العلم (أي اليقين) بوجودما أحسه — هو ألا يحكم العقل بالتجربة السابقة أن الذي أحس به وهم أو خداع حواس ، والعقل يخدع أول مرة ، فيحسب السراب ماء ، فإذا رآه مرة أخرى أدرك أنه سراب . والعقل يحكم بعد أن رأى القلم منكسراً أول مرة ، أنه لايزال مستقيما كما كان ، وإن بدا للعين منكسرا ، والأمور التي تخطىء فيها الحواس أو تخدع ، أمور محدودة معدودة معروفة ، لاتبطل القاعدة ولا تؤثر فيها ، ومنها عمل سحرة فرعون ، ومايعمله سحرة (السيرك) في هذه الأيام .

القاعدة الثانية :

هناك أشياء ماشاهدناها ولا أحسسنا بها ، ولكنا نوقن بوجودها كما نوقن بوجود مانشاهده ونحس به ، نوقن بوجود الهند والبرازيل ، ولم نزرهما ولم نرهما ، ونوقن بأن (الاسكندر المقدوني) فتح بلاد فارس ، (والوليد بن عبد الملك) بنى الجامع الأموي ، ولم نحضر حروب الاسكندر ، ولا شهدنا بناء الجامع الأموي .

ولو نظر كل واحد منا في نفسه لرأى أن مايوقن بوجوده من الأشياء التي لم يرها ، أكثر من (الأشياء) التي رآها من الممالك والبلدان ، ومن حوادث التاريخ الذي كان ، ومما يقع الآن .

فكيف أيقن بوجود هذه الأشياء وهو لم يدركها بحواسه ؟

أيقن به حين نقله جماعات عن جماعات ، لايتصور إمكان اتفاقهم (في

العادة) على اختراع هذه الأخبار ، ونقلها كذبا .

فالقاعدة الثانية : أن اليقين كما يحصل بالحس والمشاهدة ، يحصل بالخبر الذي نعتقد صدق صاحبه .

القاعدة الثالثة :

مامدى العلم الذي تبلغه الحواس ؟ وهل تستطيع أن تصل إلى إدراك كل موجود ؟

إن مثل النفس والحواس مع الموجودات ، كمثل رجل سجنه الحاكم في برج القلعة ، وسد عليه الأبواب والنوافذ ، ولم يترك له إلا شقوقا في جدار البرج ، شقا يطل منه على النهر يجري في الشرق ، وشقا على الجبل الذي يقوم في الغرب . وشقا على القصر الذى يجثم فى الشمال ، وشقا على الملعب الذي يقع في الجنوب .

السجين هو النفس ، والقلعة الجسد ، وهذه الشقوق هي الحواس ، حس النظر يشرف منه على عالم الألوان ، وحس السمع على عالم الأصوات ، وحس الذوق على عالم الطعوم ، وحس الشم على عالم الروائح ، وحس اللمس على عالم الأجسام .

١ ــ والسؤال الآن : هل أدرك بكل حاسة من هذه الحواس كل ما في العالم الذي تشرف عليه ؟ السجين عندما ينظر من شق النهر ، لا يرى النهر كله ، ولكن جزءاً منه ، وكذلك العين حين تشرف على عالم الألوان . لاتراه كله بل ترى بعضه .

أنا لا أرى نملة تمشي على بعد ثلاثة أميال ، مع أن النملة موجودة ، ولا أرى الجراثيم والحوينات[١٧] في كأس الماء الصافي ، مع أن في الكأس الملايين

---

(١٧) حوين تصغير حيوان ، وهذا ما يسمى في علم الصرف (تصغير الترخيم) ويكون بعد حذف الزوائد من الاسم .

من هذه الجراثيم . ولا أرى الكهارب التي تدور وسط الذرة ، دوران الكواكب في فضاء الأفلاك . وإن لهذه النملة صوتا ، ولكني لا أسمعه ، لأن أذني تلتقط الهزات من خمس إلى عشرين ألفا ، فما نقص لاتسمعه ، ومازاد ثقب طبلة الأذن فبطل بذلك السمع . وأنا لاأشم للسكر رائحة ، مع أن النملة والذباب يشمه ويسرع إليه . فالحواس إذن لاتدرك من العوالم التي سلطت عليها إلا جزءا منها .

٢ ــ ثم ألا يمكن أن يكون بين عالم الألوان الذي تشرف عليه العين ، وعالم الأصوات الذي تطل عليه الأذن عالم آخر ، لا أدركه أصلا لأنه ليس عندي الحاسة لإدراكه ؟

ألا يمكن أن يكون بين النهر وبين الجبل بالنسبة لسجين البرج بستان عظيم ، لم يره ولم يعلم به ، لأنه لايجد شقا يطل منه عليه ؟ فهل يحق له أن ينكره لأنه لايراه ؟

الأكمه (الذي ولد أعمى) قد يستطيع بالسماع معرفة أن البحر أزرق ، والمرج أخضر ، ولكنه لا يستطيع أن يدرك ما هي الزرقة وما هي الخضرة . والأصم ، قد يعرف بالتعلم أن في الأنغام : البيات ، والرصد ، والسيكا . ولكنه لا يستطيع أن يدرك حقيقة النغم ، فهل يحق للأعمى أن ينكر وجود الخضرة ، وللأصم أن يجحد حقيقة النغم لأنه لايدركها ؟

إن الغرفة التي تبدو لك ساكنة سكونا عميقا ، فيها ــ في جوّها ــ جميع الأغاني والأصوات التي تذاع الآن ، من جميع الإذاعات . أنت لا تحس بها لأنها ليست لوناً تراه بعينك ، ولاصوتا تسمعه بأذنك . إنها اهتزازات من نوع آخر ، فيها صوت ولكن لاتدركه الأذن ، فإذا جئت بالرّاد[١٨] الذي يردّها عليك ، سمعتها .

الضغط الجوي لاتحس باختلافه القليل ، لأنه ليس لديك حاسة تدركه

---

(١٨) الراد : اسم فاعل من رد وضعتها لـ (الراديو) ، لأنه يرد الصوت الذي يرسله المذياع .

بها ، فإذا جئت بـ (البارومتر) أدركته به . الهزات الخفيفة لا تدركها ، ولكن (الرادار) يدركها ، ففي الوجود أشياء كثيرة لا تدخل في نطاق الحواس ؛ لأنها ليست لونا يرى ، ولا صوتا يسمع ، ولا جمادا يلمس ، ولا رائحة تشم ، ولا طعما يذاق ، فهل يحق لي أن أنكرها ، لأن حواسي المحدودة لا تدركها ؟

٢ ــ والحواس هل هي كاملة ؟ كان الأقدمون يحصرونها في خمس حواس فقط ، لا يتصورون إمكان الزيادة عليها . ولكن كشفت في الإنسان الآن حواس أخرى أودعها الله فيه ، وما يقبل الزيادة يوصف بالنقصان .

أنا أغمض عيني ، وأبسط يدي أو أقبضها ، فأحس بأنها مبسوطة أو مقبوضة ، لم ألمسها ولم أرها ، فبأي حاسة أحسست بها ؟ بما يسمى (الحسّ العضلي) ،وأحس بالتعب والونى ، وبالغثيان ، وبالانبساط أو الانقباض ، وما أحسست بذلك بواحدة من الحواس الخمس ، بل (بالحس الداخلي) . وأمشي فلا أميل ، مع أن الطفل أول مشيه يميل ، وراكب الدراجة ، ولاعبو (السيرك) ، الذين يأتون بالعجائب ، بأي حاسة ضبطوا توازنهم ؟

إن هناك حاسة ثامنة هي (حاسة التوازن) ، وأذكر أنهم كشفوا موضعها ، الذي وضعها الله فيه ، في الأذن الداخلية مادة سائلة قليلة ، بها يكون التوازن ، وأذكر أنهم (في تجاربهم) استخرجوها من أرنب ، فصارت تمشي الأرنب مترنحة كأنها سكرى .

فالقاعدة الثالثة : هي أنه لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لا ندركها بحواسنا .

القاعدة الرابعة :

قلنا إن الحواس محدودة المدى ، فأنا لا أستطيع أن أرى ببصرى كل مرئي ، وهذا صحيح ، ولكن الله أعطانا (ملكة) نتم بها نقص الحواس ، هي الخيال . أنا إن لم أستطع أن أرى داري في دمشق وأنا في مكة، أستطع أن أتخيلها فكأنني أراها ، فالخيال يكمل الحواس . فهل للخيال حدود ، أم أنه

مطلق غير محدود ؟ هل أستطيع أن أتخيل شيئا لم أدركه بالحواس ؟

الخيال عند علماء النفس خيالان : خيال مرجع ، كتخيلى الدار في دمشق ، وأنا في مكة ، وخيال مبدع ، هو خيال الشعراء والقصاصين والرسامين ، وسائر أهل الفنون . فانظروا إلى خيالات هؤلاء الفنانين ، هل جاؤوا بشيء غير ما في الواقع ؟ الذى نحت تمثال (فينوس) جاء بصورة لم نر من يماثلها تماماً ، ولكن هل كانت جديدة ، أم أخذ أجزاء من الواقع ، فألف بينها ؟ أخذ أجمل أنف رآه ، وأجمل فم ، وأجمل جسم ، فجمع هذا إلى ذاك ، فجاء بجديد ، ولكن هذا الجديد مؤلف من أجزاء قديمة .

وتمثال الثور المجنح الأشوري في متحف باريس ، ما فيه إلا أن ناحِتَهُ أخذ رأس رجل فوضعه على جسد ثور ، ووضع له أجنحة طائر . صورة جديدة ، ولكنها مؤلفة من أجزاء قديمة .

وكذلك الحيوان العجيب الذي تخيله القزويني ، وخيالات الشعراء مهما أوغلت في باب الاستعارة والتشبيه والكناية والمبالغات العجيبة ، لا تخرج عن كونها جمعا بين أجزاء متفرقة في الواقع .

بل إننا إذا أوغَلْنا في الإغراب في جمع هذه الأجزاء ، نجد الخيال نفسه قد عجز عن الإلمام بهذا الجمع ، خذوا — مثلا — جزءاً من عالم اللون ، وجزءا من عالم الصوت : فقولوا إن فلانا المغني قد غنى نغمة معطرة بعطر الورد ، أو أن العطر الفلاني له رائحة لونها أحمر ، واعرضوا هذه الصورة على خيالكم ، تجدوا أنكم لم تستطيعوا أن تتخيلوها ، مع أنها جميعا ما خرجت عن عالم الواقع .

فنحن لا نستطيع أن نتخيل نغمة عطرة ، ولا رائحة حمراء ، ولا نتصور إلا الأبعاد الثلاثة (الطول والعرض والارتفاع) ، لا نستطيع أن نتصور بعداً رابعاً [19] ، ولا دائرة ليس لها محيط ، ولا مثلثا ليس له زوايا . فكيف (إذن)

(١٩) المقصود البعد الحقيقي ، أما ما ذهب إليه (انشتاين) من اعتبار الزمان بعداً رابعاً ، فهو شيء اعتبارى لا حقيقى .

نتخيل الآخرة وما فيها ، وهي عالم يختلف عن عالمَنا ؟ إن الآخرة بالنسبة لهذه الدنيا ، كالدنيا بالنسبة لبطن الجنين ، لو أمكن أن نتصل بالجنين ونسأله وأمكن أن يجيب ، وقلنا له : ماالكون ؟ لقال ، إن الكون هو هذي الأغشية التي تغشاني ، وهذه الظلمات التي تحيط بي .

ولو قلنا له : إن هاهنا كونا آخر فيه شمس وقمر ، وليل ونهار ، وبر وبحر ، وسهل وجبل ، وصحارى قاحلة ، وجنات عارشات ؛ لما فهم معنى هذا الكلام ، ولو فهمه لما استطاع تخيّل حقيقته .

ومن هنا قال ابن عباس : « مافي الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء » . فلا خمر الآخرة كخمرة الدنيا ، ولا حورها كنسائها ، ولا نار جهنم كنارها ، ولا الصراط الممدود على جهنم كالجسور الممدودة على الأودية والأنهار . فالقاعدة الرابعة ، أن الخيال البشري لا يستطيع أن يُلّم إلا بما أدركته الحواس .

القاعدة الخامسة :

لما أبصرت العين العود المستقيم أعوج ، وهو في كأس الماء ، لم ينخدع العقل بما رأت العين ، بل عرف أنه لم يزل مستقيما ، ولما رأت التراب ماء في الصحراء ، عرف العقل أنه سراب ، وأنه ليس ماء ولكنه تراب . ولما أبصرنا ساحر (السيرك) يخرج من فمه مئة منديل ، ومن كمّه عشرين أرنباً أدرك العقل أنها خدعة . فالعقل أصبح حكما ، وحكمه أبعد مدى ، ولكن هل يحكم على كل شيء ، ويمتد مداه إلى غير ما نهاية ؟

إن العقل لا يستطيع أن يدرك شيئاً ، حتى يحصره بين اثنين : الزمان والمكان ، فما لم ينحصر بينهما ، لم يدركه العقل بنفسه . فلو قال لك مدرس التاريخ ؛ إن حربا وقعت بين العرب والفرس ، ولكنها لم تقع قبل الإسلام ولا بعده ، ولم تقع في زمن من الأزمان ، ولكنها وقعت فعلا ، لم تدرك ذلك ولم تصدقه ، ولم تقبله . ولو قال لك مدرس الجغرافية ؛ إن بلدة ليست في سهل ولا جبل ، ولا في بر ولا بحر ، ولا في أرض ولا سماء ، ولا في مكان من

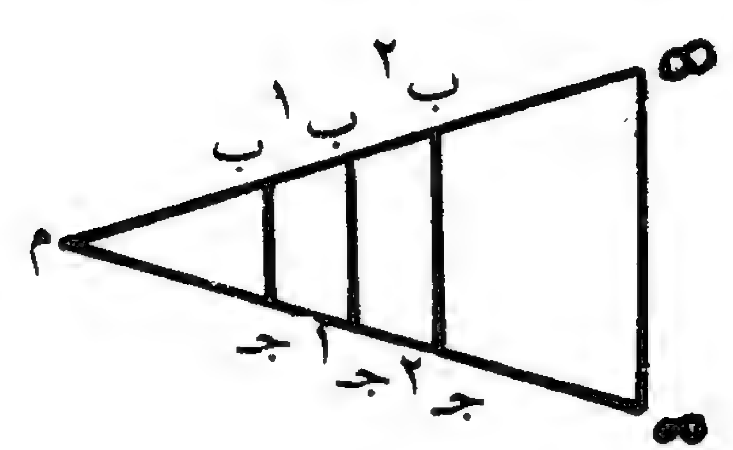
الأمكنة ، ولكنها موجودة ـــ لم تدرك ذلك ، ولم تصدقه ، ولم تقبله .

فالعقل لا يحكم إلا في حدود الزمان والمكان . فما كان خارجا عنهما من مسائل الروح ، وأمور القدر ، وآلاء الله وصفاته ، فلا حكم للعقل عليه .

ثم إن العقل محدود ، لا يحكم على غير المحدود ، ولا يستطيع أن يحيط به . تصور خلود المؤمنين في الجنة ! إن عقل المؤمن موقن بأنه حقيقة ، وقد جاءه هذا اليقين من الخبر الصادق . ولكن انظر هل يحيط عقلك بالخلود ؟ ركز فكرك فيه ، تجد أنك تتصور بقاءهم في الجنة قرنا وقرنين ، ومئة قرن ، ومليون وألف مليون ، ثم تجد عقلك يقف عاجزا ، ويسأل : وبعد ؟ إنه يريد أن يضع لذلك نهاية . إنه لايدرك الـ (لا نهاية) ، وإذا افترض الوصول إليها وقع في التناقض الذي يقول ببطلانه .

إن للفيلسوف الألمانى (كانْت) كتابا مشهورا ، في إثبات أن العقل لا يستطيع أن يحكم إلا على عالم المادة وحده . ولكن ما قال به (كانْت) قاله علماؤنا من قبل ، وردّدوه وأثبتوه ، حتى صار كالبديهية المسلّمة ، وصار الكلام فيه كالحديث المعاد . حتى (متناقضات كانت) المشهورة ، سبق إليها علماؤنا ، وبينوا بالأدلة الرياضية أن (الدور والتسلسل) باطل .

من أقرب أدلتهم هذا الدليل ، وهو أن تخرج من نقطة (م) مثلا (في الشكل) شعاعين ، أي خطين مستقيمين متباعدين ، وتفرض مدّ كل خط إلى ما لا نهاية له (∞) وتصل بين الخطين على أبعاد متساوية خطوطا : (ب جـ) و (ب١ جـ١)(ب٢ جـ٢) وهكذا ، حتى تصل إلى الخطّ (∞ ∞) هل هذا الخط محدود ، أم هو غير محدود ؟



إذا قلت إنه محدود يردّ عليك أنه بين لا نهايتين ، فكيف يكون محدودا ؟ وإن قلت إنه غير محدود ، ردّ عليك بأنه بين نقطتين ، فكيف يكون غير محدود ؟ فهو محدود ، وغير محدود ، وهذا تناقض !

فثبت أن العقل يختل ميزانه إن حاول الحكم على غير المحدود ، ويقع في التناقض المستحيل ، إذا بحث فيما لا ينتهي .

فالعقل إذن لا يستطيع أن يحكم ، ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية المحدودة . أما (ما وراء المادة) ، أي عالم الغيب (الميتافيزيك) ، فلا حكم للعقل عليه . وهذ الذي أثبته (كانت) في كتابه ، وقاله علماؤنا من قبل ، موجود في كتاب شرح المواقف للسيد ، ورسالة (المقصد الأسنى) للغزالي[٢٠] وسائر كتب علم الكلام .

القاعدة السادسة :

إن الناس جميعاً ، المؤمن منهم والكافر ، والناشيء في صوامع العبادة ، والمتربي في مخادع الفسوق ، إذا ألمّت بهم ملمّة ضاقوا بها ذرعاً ، ولم يجدوا لها دفعاً ، لم يعوذوا منها بشيء من هذه الكائنات ، وإنما يعوذون بقوة وراء هذه الكائنات ، قوة لا يرونها ولكنهم يشعرون بأرواحهم وقلوبهم ، وكل عصب من أعصابهم بوجودها ، وبعظمتها وجلالها . يقع هذا لكثير من الطلاب أيام الامتحان ، ولكثير من المرضى عند اشتداد الألم ، وعجز الطبيب . كلهم

---

(٢٠) بقيت هذه الرسالة(المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) في مكتبتي أكثر من ثلاثين سنة ، لم أجد دافعاً إلى قراءتها ، ثم أخذتها فوجدت فيها شيئا عجيباً من عبقرية الغزالي . فهو يتكلم عن الاسم والمسمى والصلةبينهما ، ويربط بين أسماء الله وسلوك المسلم بأسلوب جديد وطريقة مبتكرة ، وهذا شأن الغزالي في كل موضوع يكتب فيه ، وإن كان في كتابه العظيم (الإحياء) كثير من الصوفيات المخالفة للسنة ، وكان فيه كثير من الأحاديث التي لا أصل لها ، وكان أثره في نفس قرائه العزلة والخمول ، والبعد عن روح المغامرة والجهاد . مع أنه ألف في عهد الحروب الصليبية ، التي وجب فيها الجهاد على الرجال والنساء ، كما هو واجب الآن ، لإخراج الكافر من أرض المسلمين التي يحتلها .

وأنا أقول بأن الغزالي أعظم مفكر إسلامي ، ولكنه ليس بمعصوم — والإنصاف العلمي يستوجب ذكر عيوبه المعدودة — وكفى المرء نبلا أن تعد معايبه .

يعودون إلى ربهم ، ويقبلون على عبادته . فهل سألتم أنفسكم ، ما السبب في هذا وأمثاله ؟ لماذا نجد كل من وقع في شدة يرجع إلى الله ؟ نذكر جميعا[٢١] أيام الحرب الماضية ، والتى قبلها ، كيف كان الناس يقبلون على الدين ، ويلجؤون إلى الله . الرؤساء والقواد يؤمّون المعابد ، ويدعون الجنود إلى الصلاة .

ولقد قرأت في مجلة (المختار) المترجمة عن مجلة (ريدرز دايجست) ، مقالة نشرت أيام الحرب ، لشاب من جنود المظلات (يوم كانت المظلات والهبوط بها شيئاً جديدا) يروي قصته فيقول : إنه نشأ في بيت ليس فيه من يذكر الله أو يصلي ، ودرس في مدارس ليس فيها دروس للدين ، ولا مدرس متدين ، نشأ نشأة (علمانية) مادية ، أي مثل نشأة الحيوانات التي لا تعرف إلا الأكل والشرب والسفاد ، ولكنه لما هبط أول مرة ، ورأى نفسه ساقطاً في الفضاء قبل أن تنفتح المظلة ، جعل يقول : ياالله يا رب . ويدعو من قلبه ، وهو يتعجب من أين جاءه هذا الإيمان ؟ .

وبنت (ستالين) نشرت من عهد قريب مذكراتها ، فذكرت فيها كيف عادت إلى الدين ، وقد نشأت في غمرة الإلحاد ، وتعجب هي نفسها من هذا المعاد . وما في ذلك عجب ، فالإيمان بوجود إله ، شيء كامن في كل نفس ، إنه فطرة (غريزة) من الفِطر البشرية الأصلية ، كغريزة الجنس ، والإنسان (حيوان ذو دين) .

ولكن هذه الفطرة ، قد (تغطيها) الشهوات والرغبات والمطامع ، والمطالب الحيوية المادية ، فإذا هزتها المخاوف والأخطار والشدائد ، ألقت عنها غطاءها فظهرت ، ولذلك سمي غير المؤمن (كافرا) ، ومعنى الكافر في لسان العرب (الساتر) ، ومن العجيب أني وجدت تأييد هذه الفكرة في

---

(٢١) أعني الكهول والشيوخ الذين أدركوا الحرب الأخيرة : سنة (١٩٣٩) ، ومن قبلها الحرب الأولى : سنة (١٩١٤) ، وقد أدركتهما وقلت ما قلت عنهما ، عن مشاهدة وعيان .

كلمتين متباعدتين ، في الزمان والمكان والظرف والقصد ، ولكنهما متقاربتان في المعنى .

كلمة لعابدة مسلمة تقية معروفة هي (رابعة العدوية[٢٢]) ، وكلمة لكاتب فرنسي ملحد معروف هو (أناتول فرانس) . وأناتول فرانس يقول في معرض كفره وإلحاده : « إن المرء يؤمن إذا ظهر بنتيجة فحص البول أنه مصاب بداء السكري ، (يوم لم يكن قد عرف الأنسولين) ... » . ورابعة ، قيل لها : « إن فلانا أقام ألف دليل على وجود الله » ، فضحكت وقالت : « دليل واحد يكفي » قيل : « وماهو ؟ » ، قالت : « لو كنت ماشياً وحدك في الصحراء ، وزلت قدمك فسقطت في بئر ، لم تستطع الخروج منها ، فماذا تصنع ؟ » قال : « أنادي يا (الله) .. » قالت : « وذاك هو الدليل .. » .

في قرارة نفس كل إنسان الإيمان بإله ، هذه حقيقة نعرفها نحن المسلمين ؛ لأن الله خبرنا أن الإيمان فطرة فطر الناس عليها . وقد عرفها الإفرنج من جديد ، (دوركايم) أستاذ الاجتماع الفرنسي المشهور[٢٣] له كتاب في أن الإيمان بوجود إله بديهية . لا يمكن أن يعيش الإنسان ويموت من غير أن يفكر في وجود إله لهذا الكون ، ولكن ربما قصر عقله فلم يهتد إلى المعبود بحق ، فعبد من دونه أشياء ، عبدها على توهم أنها هي الله ، أو أنها تقرب إلى الله.

فإذا جد الجد ، وكانت ساعة الخطر ، رجع إلى الله وحده ، ونبذ هذه المعبودات . مشركو قريش ، كانوا يعبدون (هبل) ، و (اللات) . و (العزى) ، حجارة وأصنام ، (هبل) صنم من العقيق ، جاء به (عمرو بن لحيّ) من عندنا ، من (الحمّة)[٢٤]، قالوا له : إنه إله عظيم قادر ، فحمله على جمل

---

(٢٢) ظهرت من سنوات قصة غنائية مصورة ، زعموا أنها تمثل حياة رابعة العدوية ، مع أنها لا تمثل إلا ما في نفس مؤلفها من خيالات وتهاويل ، وما فيها من حقائق التاريخ إلا القليل .

(٢٣) دوركايم أستاذ الاجتماع الفرنسي : هو يهودي مثل (فرويد) الذى أفسد عقول الناس حيناً من الدهر .

(٢٤) الحمة ذات الينابيع المعدنية التي أخذها اليهود من سورية بعد حرب الأيام الستة .

وجاء به ، فسقط على الطريق فانكسرت يده ، فعملوا له يدا من ذهب . إله تنكسر يده ! وكانوا مع ذلك يعبدونه !! يعبدونه في ساعات الأمن ، فإذا ركبوا البحر ، وهاجت الأمواج ، ولاح شبح الغرق ، لم يقولوا : يا (هبل) ، بل قالوا : ياالله .

وهذا مشاهد إلى اليوم عندما تغرق السفن ، أو تشب النيران ، أو يكون الخطر ، أو يشتد المرض ، تجد الملحدين يرجعون إلى الدين .

لماذا ؟ لأن الإيمان غريزة ، أصدق تعريف للإنسان أنه (حيوان متدين) . وانظروا إلى هؤلاء الملحدين الماديين ، عندما يأتيهم الموت ، هل تظنون أن (ماركس) أو (لينين) لما أيقن بالموت ، دعا (وسائل الإنتاج) التي يؤلهها ، أم دعا الله ؟ ثقوا أنهما لم يموتا حتى دعوا الله ، ولكن حين لا ينفع الدعاء ، و(فرعون) تكبر وتجبر ، وقال ، أنا ربكم الأعلى ، فلما أدركه الغرق ، قال : (آمنت بالذي آمنت به بنو إسرائيل ..) .

وفي عاطفة الحب التي يحس بها المحبون دليل على أن الإيمان فطرة في النفوس ، الحب صورة مصغرة للإيمان ، ونوع من أنواع العبادة . والفرنسيون لما غلب عليهم ترك الدين ، استعملوا كلمة (العبادة) في الحب[٢٥] . وقلدهم في ذلك بعض المتفرنجين منا ، فصاروا يقولون في قصصهم : (يحبها ويعبدها) ، و (أحبها حتى العبادة) ، وما ذلك إلا لأن العبادة هي المظهر الفطري للاعتقاد بالإله ، ولأن في الحب شبها من الإيمان .

المحب يطيع محبوبه ، وينفذ كل رغبة له ، وكذلك يكون المؤمن مع الله ، والمحب لا يبالي أن يسخط عليه الناس كلهم إن رضي المحبوب ، وكذلك يكون المؤمن مع الله . والمحب يخاف المحبوب ، ويخشى غضبه ، ويرضى بكل ما يكون منه وكذلك المؤمن مع الله . فالحب (أي العشق) دليل على أن الإيمان فطرة في النفوس .

---

(٢٥) كلمة العبادة هي في اللغة الفرنسية : (Adorer) .

ضيق الألفاظ :

وليس معنى هذا أن حب الله ، من جنس حب المعشوق ، لا . فالعاشق يطيع معشوقه ويخشاه ، ويرضى بكل ما يجيء ذكرها ويؤثر رضاه على رضى الناس ، للذته به ، فهو يحب فيه نفسه ، ولو أن (ليلى) أصابها الجذام فشوه وجهها ، وأكل أنفها وعينها لما دنا منها (قيس) ، ولما مال عليها ، بل لفرّ منها ، ونأى عنها ، هذا هو فرق ما بين حب المخلوق وحب الخالق .

إنهما نوعان مختلفان ، ولكن اللغات البشرية لضيقها عن استيعاب المعاني الروحية ، تستعمل اللفظ الواحد ، في معان كثيرة ، فنحن نقول : « فلان يحب مناظر الجبال » ، و « فلان يحب علم التاريخ » ، و « فلان يحب الرز باللحم » ، « والوالد يحب ولده » ، و « والمجنون يحب ليلى » ، و « المؤمن يحب الله » ، وكل حب (منها) ، يختلف عن الآخر . ومثل ذلك كلمة : (الجمال) ، نستعملها وهي لفظ واحد ، للدلالة على ألف معنى . ومن ذلك قولنا : ﴿ الله سميع بصير ﴾ ، و « فلان سميع بصير » ، أي : ليس أصم ولا أعمى . وسمع الله وبصره لا يشبه سمع العبد ولا بصره ؛ لأن الله لا يماثل شيئاً من المخلوقات ولا يماثله شيء ، وجميع آيات الصفات جاءت من هذا الباب والله ليس كمثله شيء .

القاعدة السابعة :

هي أن الإنسان يدرك بالحَدْس أن هذا العالم المادي ليس كل شيء ، وأن وراءه عالماً روحياً مجهولاً ، يدرك منه لمحات تدل عليه ، ذلك أن الإنسان يرى اللذات المادية محدودة ، إذا هي بلغت غايتها ووصلت إلى حدها ، لم تعد اللذة لذة ، ولكن صارت (عادة) ، فذهب طعمها ، وبطل سحرها ، وصارت كالنكتة المحفوظة ، والحديث المعاد .

يبصر الفقير سيارة الغني تمر به ، وعمارة الغني يمر بها ، فيحسب أنه يحوز الدنيا إن حاز مثلها ، فإن صارت له ، لم يعد يشعر بالمتعة بها . ويسهر

المحب يحلم بوصل الحبيب ، يظن أن متع الدنيا كلها بحبه ، والأماني كلها في قربه ، فإذا تزوج التي يحب ، ومر على الزواج سنتان ، اضمحلت تلك الأماني ، وماتت تلك المتع ، ولم يبق له منها إلا ذكرها ، ويمرض المريض ويتألم ، فيتصور اللذة كلها فى ذهاب الألم والشفاء من المرض ، فإذا عاودته الصحة ، ونسي أيام المرض ، لم يعد يرى في الصحة شيئاً من تلك اللذات . ويتمنى الشاب « الشهرة » ، ويفرح إن أذاعت الإذاعة اسمه ، ونشرت الصحف رسمه ، فإذا هو اشتهر وصار اسمه ملء السمع ، وشخصه ملء البصر ، صارت له الشهرة أمراً معتاداً .

ثم يجد أنه يسمع الأغنية الحالمة ، في الليلة الساجية ، قد خرجت من قلب مغن عاشق ، فهزت من سامعها حبّة القلب ، وأطلت على عالم الروح . ويقرأ القصة العبقرية ، للأديب البارع ، فيحس كأنها تمشي به في مسارب عالم مسحور ، فيه مع السحر شعر وعطر ، فإذا انتهت القصة رأى كأنه كان في حلم لَذٍّ فتّان ، وصحا منه ، فهو يحاول عبثاً أن يعود إلى لذته وفتونه .

ويعيش في لحظات التجلي ، حين تصفو النفوس بالتأمل فتتخفف من إثقال المادة ، فتعلو بجناحين من الصفاء والتجرد ، حتى تصل إلى حيث ترى الأرض ، وما عليها ، أصغر من أن ينظر إليها ، لما تجد من لذة الروح التى لا تَعْدلها لذة الطعام للجائع ، ولا لذة الوصال للمحروم ، ولا لذائذ المال والجاه للفقير المغمور .

وإذا بالنفس تتشوق أبداً إلى هذا (العالم الروحي) العلوي ، العالم المجهول ، الذي لا تعرف منه إلا هذه اللمحات ، التى لا تكاد تبدو لها حتى تختفي ، وهذه النفحات التي لا تهب حتى تسكن ، فيعلم أن اللذات المادية محدودة ، وأن اللذات الروحية أكبر منها كبراً ، وأعمق في النفس أثراً . ويُوقن (بالحدس النفسي ، لا بالدليل العقلي) ، أن هذه الحياة المادية ليست كل شيء ، وأن العالم المجهول ، المختبىء وراء عالم المادة ، حقيقة قائمة ، تحنُّ إليها الأرواح ، وتحاول أن تطير إليها ، ولكن هذا الجسد الكثيف يحجبها

عنها ، ويمسكها عن أن تنطلق وراءها ، وهذا هو الدليل النفسي على وجود العالم الآخر .

القاعدة الثامنة :

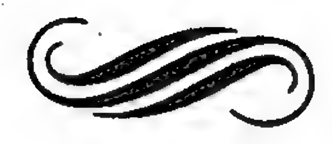
الاعتقاد بوجود الحياة الأخرى ، نتيجة لازمة للاعتقاد بوجود الله — وبيان ذلك أن الإله لا يكون إلا عادلاً ، والعادل لا يقرّ الظلم ، ولا يدع الظالم بغير عقاب ، ولا يترك المظلوم من غير إنصاف ، ونحن نرى أن في هذه الحياة من يعيش ظالما ويموت ظالما لم يعاقب ، ومن يعيش مظلوماً ويموت مظلوماً لم ينصف ، فما معنى هذا ؟ وكيف يتم هذا مادام الله موجوداً ، وما دام الله لايكون إلا عادلاً ؟ معناه أنه لابد من (حياة أخرى) يكافأ فيها المحسن ، ويعاقب المسيء .

وأن (الرواية) لا تنتهى بانتهاء هذه الدنيا ، ولو أنه عرض (فلم) في الراني (التلفزيون) ، فقطع من وسطه وقيل (انتهى) ، لما صدق أحد من المشاهدين أنه انتهى ، ولنادوا ماذا جرى للبطل ؟ وأين تتمة القصة ؟ ذلك لأنهم ينتظرون من المؤلف أن يتم القصة ، ويسدد حساب أبطالها . هذا والمؤلف بشر ، فكيف يصدق عاقل ، أن (قصة) الحياة تنتهي بالموت ؟ كيف ؟ ولم يسدد بعد الحساب ، ولا اكتملت الرواية ؟ فأيقن العقل من هنا ، أن لهذا الكون رباً ، وأن بعد الدنيا آخرة . وأن ذاك العالم المجهول ، الذي لمحت الروح ومضة من نوره في الأغنية الحالمة ، والقصة البارعة ، واستروحت نفحة من عطره ، في ساعة التجلي ، ليس عالم المثل [٢٦] الذي كان خيالا صاغه أفلاطون ، ولكنه عالم الآخرة ، الذي هو حقيقة أبدعها خالق أفلاطون . ورأى الإنسان أن أكبر لذائذ الدنيا ، لذة الوصال ، لا تدوم إلا نصف دقيقة ، فعلم أنها ليس إلا مثالا من لذات الآخرة ، إنها لقمة من الطعام تذوقها ، فإن أعجبك اشتريت منه فأكلت حتي شبعت ، إنها

---

(٢٦) المثل العليا : نظرية لأفلاطون معروفة (Idè alisme) ، ومنها جاء قولهم : « شيء مثالي » وهو (idèal) .

نموذج تجاري[٢٧] تراه ، فإن ارتضيته طلبت البضاعة . إن هذه اللذة التي لا تدوم إلا نصف دقيقة ، مثال مصغر للذات العالم الآخر ، التي تدوم أبـداً ، والتـي لا حد لها تقف عنده ، والتي تبقي (لذة) دائما ، ولا تصير (عادة) ، كما تصير اللـذات في الدنيا عادات .



(٢٧) النموذج التجاري : هو تعريف للاصطلاح الفرنسي : (Echantillon) وتلفظ : (اشانتيون) .

الإيمان بالله

الإيمان بالله يتضمن أربع قضايا ، هي : أن الله موجود بلا موجد ، وأنه رب العالمين ، وأنه مالك الكون المتصرف فيه ، وأنه الإله المعبود وحده ، لا يعبد معه غيره .

وجود الله :

قلنا في القاعدة السادسة : إن الاعتقاد بوجود الله من الأمور البديهية التى تدرك بـ (الحدس) النفسي قبل أن تقبل بالدليل العقلي ، فهي لا تحتاج إلى دليل ، وإن كانت الأدلة على صحتها ماثلة في كل شيء ، ولست أعرض هذه الأدلة فهي أكثر من أن تستقصى ، والعالم الدمشقي الشيخ جمال الدين القاسمي ذكر منها الكثير الكثير ، فى كتابة (دلائل التوحيد) مع أنه ألف من أكثر من نصف قرن ، ومع أنها قد جدت اليوم أدلة أظهرها العلم الحديث ، الذي لم يكن معروفا قبل خمسين سنة ، ومن نظر في كتاب : (الله يتجلى في عصر العلم) ، وقد كتبه ثلاثون من علماء الطبيعة والفلك ، ممن انتهت إليهم الرياسة في هذه العلوم ، ومثله كتاب : (العلم يدعو للإيمان) ، يجد أن العالم الحقيقي لا يكون إلا مؤمنا ، والعامي لا يكون إلا مؤمنا ، وأن الإلحاد والكفر إنما يبدوان من أنصاف العلماء ، وأرباع العلماء ، ممن تعلم قليلاً من العلم ، فخسر بذلك (الفطرة) المؤمنة ، ولم يصل إلى العلم الذي يدعو إلى الإيمان ، فوقع في الكفر .

في هذين الكتابين مقالات ، هي ثمرة ما وصل إليه تفكير هؤلاء العلماء ، من أمثال (فرنك ألن) الذى أثبت أن القول بقدم العالم ـــ كما كان يقول فلاسفة اليونان ـــ مستحيل ، وأن العلم كشف أن لكل شيء عمرا ، أى أن له بداية ، تنفي كونه قديما ، و (فرنك ألن) هذا ، من أكبر علماء الحياة (البيولوجيا) . وأمثال (روبرت موريس بدج) مكتشف الرادار ، وعالم

الكيمياء (جون كليفلاند كوثران) ، و (جون هربرت بلوند) أستاذ الفيزياء ، وأناأرجو أن تقرؤوا هذين الكتابين وأمثالهما ... وأمثالهما كثير .

أنا لا أحب أن أعيد سرد الأدلة القديمة على وجود الله ، أدلة علماء الكلام ، ولا الأدلة الحديثة التي جاء بها هؤلاء العلماء ، ولكن أشير إلى دليل واحد من الأدلة القرآنية ، وأدلة القرآن : واضحة ، صريحة ، حاسمة ، تأتي بالحجة الضخمة ، في العبارة القصيرة ، التي يفهمها العامي ، وتمتلىء نفس العالم الذي يدرك مغزاها . **إعجابا** منها ، وعجبا من قوتها ودقتها ووضوحها ، وكلاهما (العامي والعالم) لا يملك إلا أن يقول : صحيح !

نبهنا الله في القرآن بكلمة واحدة ، على أن الدليل فينا ، « في أنفسنا » ، فكيف ننكر قضية قد سطر على جباهنا ما يشعر بصدقها ، قال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ ، أَفَلا تُبْصِرُونَ ؟! ﴾ فنحن نشعر — من أعماق قلوبنا — بأنه موجود ، نلجأ إليه في الشدائد والملمات ، بفطرتنا المؤمنة ، بغريزة التدين فينا ، ونرى الأدلة عليه فينا ، وفي العالم من حولنا ، فالعقل الباطن يؤمن بوجوده بالحدس ، والعقل الواعي يؤمن بوجوده بالدليل .

فكيف لعمري يجحد الله الجاحد ، وهو — نفسه — الدليل على وجوده ؟! إنه كمن يحمل مالك بيده ، ويدعي أنه لم يأخذه ولم يلمسه ، ومن يلبس ثيابه مبتلة يقطر منها الماء ، ويدعي أنه لم يقرب الماء . هذه حقيقة الحقائق ، ولكن لماذا نجد أكثر الناس لا ينتبهون إليها ؟! .

الجواب : لأنهم لا يفكرون في أنفسهم ، ﴿ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُم أَنْفُسَهُمْ ﴾ . إنهم يفرون منها ، يخافون الانفراد بها ، لا يستطيع أحدهم أن يبقى وحيداً ، خالياً بنفسه بلا عمل ، لذلك يشتغل عنها بحديث فارغ ، أو كتاب تافه ، أو عمل يشغل نفسه ، ويصرم فيه عمره ، كأن نفسه عدو له يكرهه ، وينفر منه ، وكأن عمره — وهو رأس ماله — حمل على عاتقه ، يرمي به ليتخلص منه .

انظرإلى أكثر الناس تجدهم يأكلون ويشربون ، وينامون ويستيقظون . يحرصون على اللذة ، ويبتعدون عن الألم ، يبتغون الخير في الدنيا لأنفسهم وأهلهم ومن يحبون ، يصبح الواحد منهم فينظف جسده ، ويرتدي ثيابه ، ويتناول طعامه ، ويغدو إلى عمله ، يعمل لجمع المال ويستزيد من الربح ، ثم يعود إلى داره ، فيتغدى ويستريح ، ثم يعود إلى العمل ، أو يعمد إلى التسلية . يفتش عما يملأ به الفراغ ، ويضيع به الوقت ، ويقطع به العمر ، حتى يعاوده الجوع فيأكل ، أو يدركه النعاس فينام . ثم يستقبل يوماً جديداً ، فيعيد فيه (برنامج) اليوم الذي مضى . يذكر ماضيه ، وما ماضيه إلا الأيام التي أحس أنه عاشها في هذه الدنيا ، ويفكر في مستقبله ، وما مستقبله إلا الأيام التي يقدّر أنه يعيشها في هذه الدنيا .

أما المسلم ؛ فلا يكتفي من الحياة بأن يأكل ويشرب ويعمل ويتسلى ، بل يسأل نفسه ، من أين جئت ؟ وإلى أين أسير ؟ ما المبدأ ؟ وما المصير ؟ ينظر فيجد أن حياته لم تبدأ بالولادة حتى تنتهي بالموت ، يرى أنه كان جنينا في بطن أمه قبل أن يولد ، وكان حُوَيْناً منويا في ظهر أبيه قبل أن يَسْتَجِنّ ، وكان قبل ذلك دما يجري في عروق هذا الأب . وهذا الدم جاء مما تناول من الغذاء . وهذا الغذاء كان نباتا نبت من الأرض ، أو حيواناً تغذى من النبات .. أطوار مرّ بها قبل الولادة لا يعرف عنها شيئا ، سِلسِلة طويلة ، فيها حلقات قليلة واضحة ، وباقيها يحجبه عن عيوننا الظلام ، فكيف يوجد نفسه بعقله وإرادته وقد كان موجـودا قبل أن يكون له عقل وإرادة ؟

إن الواحد منا لا يعرف نفسه قبل بلوغه الرابعة من عمره ، لايذكر أحد منا مولده . من يذكر مولده ؟ من يذكر لمّا كان في بطن أمه ؟ فإذا كان موجودا قبل أن يعلم بوجوده ، فهل يمكن أن يقال إنه هو الذي أوجد نفسه ؟ سل هذا الكافر الملحد ـــ إن لقيته ـــ وقل له : هل خلقت أنت نفسك بإرادتك وعقلك ؟ هل أنت الذي أدخلت نفسك في بطن أمك ؟ وهل أنت الذي اختار هذه المرأة لتكون له أما ؟ وهل أنت الذي ذهب بعد ذلك فجاء بالقابلة لتخرجه

من هذا البطن ؟ فهل خلق إذن من العدم بلا فاعل ولا خالق ؟ هذا مستحيل .

فهل خلقته إذن هذه الموجودات التي كانت من قبله ؟ الجبال والبحار والشمس والكواكب ؟

(ديكارت) لما جرّب مذهب الشك الذي اشتهر به[٢٨] وشك في كل شيء ، وصل إلى نفسه ، فلم يستطع أن يشك فيها ، لأنه هو الذي يشك ولابد في الشك من شاكّ ، لذلك قال كلمته المشهورة (أنا أفكر فأنا موجود[٢٩]) ، موجود لاشك في وجوده ، فمن أوجده ؟ هل أوجدته هذه الكائنات المادية ؟ إنها جمادات لا عقل لها ، وهو عاقل ، فهل يمنح العقل من ليس بعاقل ؟ هل يعطي الشيءَ فاقدُه ؟

وهذا هو موقف إبراهيم أبي الأنبياء عليه السلام ، لما رأى أباه (وكان مَثّالا) ينحت الأصنام بإزميله ، يعمل من الحجر صورة ، فيتخذها هو وقومه آلهة ! حجر تصنعه يد الإنسان ثم تعبده ؟ إله أخلقه وأطلب منه أن يخلق لي ما أريد ؟! هذا أمر لا يقبله العقل . فأين هو الإله الحق إذن ؟ .

وذهب يبحث ويفكر ، وأدركه الليل ، وطلع عليه النجم برّاقا لامعا عاليا ، لم يخرج من الأرض كالصخرة التي تصنع منها التماثيل . لم يعمله الإنسان بيده ثم يعبده ، وظن أنه وجد الإله الذي يبحث عنه ، وإذا بالقمر يطلع فيختفي النجم ، ويرى القمر أكبر في النظر وأضوأ ، فيؤمن بأن القمر هو الإله ، ويرقبه الليل كله ، فإذا بالشمس تطلع فتطفىء شعلة القمر ، وتفيض النور على الأرض ، فيقول هذا هو الإله . ولكن الشمس تأفل (تذهب) تدع الأرض في الظلام ، فما هذا الإله الذى يمضي ، ويتخلى عن ملكه ؟ .. كلا ليست الشمس إلهاً خلقني ، ولا هذه الموجودات آلهة ، ولا أنا الإله . أنا ما خلقت نفسي ،

---

(٢٨) مذهب ديكارت في الشك : لم يكن جديداً ، فهو مسبوق إليه . راجع (المنقذ من الضلال) للغزالي .

(٢٩) (Je Pense donc Je suis) .

ولا خلقت من غير شيء ، فلم يبق إلا احتمال واحد ، هو الصحيح ، هو الحق وما عداه الباطل : هو أن وراء هذه الجمادات كلها ، إلها قادراً عظيماً هو الذي أوجدها وأوجدني وأوجد كل شيء .

هذا الدليل هو الذي عرض له القرآن في جملة واحدة ، هي معجزة من معجزات البيان الرباني ، ضربة قاضية على من يخضع للعقل ، ويحترم التفكير من الملحدين ، هي قوله تعالى :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ، أَمْ هُمُ الخالِقُونَ ﴾؟!

كان السخفاء من الملحدين ، من أرباع المتعلمين ، يقولون : (الطبيعة) ، الطبيعة أوجدت الإنسان ، الطبيعة وهبت العقل للإنسان . وكان من المعلمين من يقول لنا هذا ونحن صغار ، في أيام الحرب الأولى وفي أعقابها ، من المعلمين الذين شموا رائحة التمدن الجديد ، من (اسطنبول) أولا (وباريس) ثانيا ، فحسبوا أنهم صاروا يعدون بذلك من (المنوّرين) ، وكانت كلمة (المنورين) في تلك الأيام ، مثل كلمة (التقدميين) الآن . ولكل زمان ألفاظ يضحكون بها علينا ، كما كانوا يضحكون على ذقون الهنود الحمر في أميركا بالخرز والثياب الملونه ، ليأخذوا بدلا منها بلادهم .

وكبرنا بعد ، وسألنا : ما (الطبيعة) ؟ إن كلمة الطبيعة في اللغة على وزن (فعيلة) وهي بمعنى (مفعولة) ، فإذا كانت مطبوعة فمن (طبعها) ؟ .

قالوا : الطبيعة هي المصادفة ..قانون الاحتمالات .

قلنا : هل تعرفون ما مثال هذا الكلام ؟

مثاله : اثنان ضاعا في الصحراء ، فمرا على قصر كبير ، عامر ، فيه الجدران المزخرفة المنقوشة ، والسجاد الثمين ، والساعات والثريات .

قال الأول : إن رجلاً بنى هذا القصر وفرشه .

فرد عليه الثاني وقال : أنت رجعي متأخر ، هذا كله من عمل الطبيعة !!

قال : كيف كان بفعل الطبيعة ؟

قال : كان هنا حجارة فجاءها السيل ، والريح والعوامل الجوية

فتراكمت ، وبمرور القرون بالمصادفة ، صارت جدارا .

قال : والسجاد .

قال : أغنام تطايرت أصوافها ، وامتزجت وجاءتها معادن ملونة ، فانصبغت وتداخلت فصارت سجادا !!

قال : والساعات ؟

قال : حديد تآكل بتأثير العوامل الجوية ، وتقطع دوائر وتداخل ، وبمرور القرون ، صار على هذه الصورة .

ألا تقولون إن هذا مجنون ؟ هل المصادفات هي التي جعلت الخلية من خلايا الكبد التي لا ترى إلا بالمجهر تقوم بأعمال كيميائية تحتاج إلى آلات تملأ بهواً كبيراً ، ثم لا تستطيع أن تقوم إلا بجزء منها ؟! هذه الخلية تحول السكر الزائد في الدم إلى مولد سكر العنب (كليكوجين) ، لنستعمله عند الحاجة بعد أعادته إلى (كليكوز) ، وتفرز الصفراء ، وتعدل (الكولسترول) في الدم ، وتصنع الكريات الحمر ، ولها بعد أعمال أخرى !

والمصادفات جعلت في اللسان تسعة آلاف عقدة صغيرة كلها تصلح للتذوق ، وفي كل أذن مئة ألف خلية للسمع ، وفي كل عين مئة وثلاثين مليون خلية كلها تصلح لاستقبال الضوء . والأرض بما فيها من العجائب والأسرار ، والهواء الذي يحيط بها ، وما يحمله من أحياء لا ترى ولا تدرك ، والأشكال العجيبة لذرة الثلج التي تسقط ، خلقها بهذه الدقة ، وأودع فيها هذا الجمال الذي لم نره إلا من عهد قريب .

انظر إلى هذه الأرض وما فيها من معادن ، وما أودع فيها من أسرار ، وإلى أنواع حيوانها ونباتها ، وما فيها من الصحارى الشاسعة ، والبحار الواسعة ، والجبال السامقة ، والأودية العميقة .. ثم وازنها بالشمس ترها صغيرة ضئيلة إلى جنب الشمس وعظمها ، والشمس التي تكبر الأرض بمليون مرة ، هي بالنسبة لكوكب من هذه الكواكب حبة رمل في الصحراء الكبرى .

والشمس التي تبعد عنا بأكثر من مئة مليون كيل (كيلو متر) ، إذا قدرنا

بعدها بالزمن الضوئي ، وسرعة الضوء ثلاثمئة ألف كيل في الثانية الواحدة ، يبلغ بعدها عنا ثماني دقائق . فماذا يكون بعد النجوم التي يصل ضوْءُها إلينا في مليون سنة ضوئية ؟ السنة الضوئية تعدل عشرة آلاف مليار كيلو متر (٣٠). فكم كيلو متر في مليون سنة ؟

وهذه الكواكب ، ومنها كواكب المجرة ، التى لا يعرف علم الفلك عنها أكثر من أنها بقعة مضيئة ، فيها من الكواكب ما لايعلمه إلا الله ، هذه الكواكب على ضخامتها التي يعجز العقل عن تصورها ، تسير بسرعة هائلة ، سرعة تتخطى حدود الأرقام ، فكيف لا يقع فيما بينها اصطدام ؟

قرأت لأحد علماء الفلك ، أن احتمال اصطدامها ، كاحتمال اصطدام ست نحلات لو أطلقت في الفضاء المحيط بالأرض . إن سعة فضاء الأرض بالنسبة لست نحلات ، كذلك الفضاء بالنسبة لهذه الكواكب التي لا تعد ولا تحصى . .

وهذا الفضاء كله وسط كرة هائلة هي السماء الدنيا ، كرة من جرم حقيقى ليست هواء ولا فضاء(٣١)، ولا خطا وهميا هو مدار الكواكب كما تصور بعض المحدثين من المفسرين ، كرة محيطة بهذا الفضاء وما فيه ، ومغلقة عليه وهو في داخلها . كرة محفوظة لها أبواب تفتح وتغلق ، جعلها الله (سقفا محفوظا) لهذا الفضاء ، وجعل هذه الكواكب فيها كالمصابيح التي تزين السقف ، لها سَمْك ، وبعدها فضاء !.. الله أعلم بسعته . ربما كان كهذا الفضاء أو أكبر منه ، تحيط به كرة أخرى ، أكبر وأضخم ، ثم فضاء ثالث ، ثم كرة ثالثة . ثم فضاء رابع ثم كرة رابعة . ثم فضاء خامس ، ثم كرة خامسة . ثم فضاء سادس ، ثم كرة سادسة ، ثم فضاء سابع ثم كرة سابعة . ثم تأتي أجسام

---

(٣٠) أذكر في معرض هذا الحديث أن أبوللو (٩) التي وصلت إلى القمر ، قطعت في الذهاب والإياب أربعمئة ألف كيل (كيلو متر) ، أي : مدة ثانية وثلث فقط بالزمن الضوئي !

(٣١) هذا الذي قلته عن السماء : شيء فهمته من آيات الكتاب ، وسنن الله في الفلك التي كشفها العلماء ، ولم أجد من قال به ، وقد فصلت القول فيه في غير هذا الكتاب .

* ملاحظة : متوسط بعد القمر عن الأرض هو ٣٨٤ ألف كيلو متر .

غاية في الكبر والعظم ، هي العرش ، والكرسي ، وما أخبر الله عنه ، من هاتيك العوالم .

ومن أعجب العجب ، ومن أظهر الأدلة على الله ، أن هذا الفضاء بكل ما فيه موجود بصورة مصغرة ، بحيث لا يدرك العقل دقتها وصغرها — كما أنه لا يدرك سعة الفضاء ورحبه — موجود في الذرة .

الذرة التي لا ترى ولا بالمجهر الإلكتروني[*] . الذرة التي كان يسميها العلماء والفلاسفة الأقدمون الجوهر الفرد (الجزء الذي لا يتجزأ) ، الذرة التي قال العلماء إنه لو صف أربعون مليونا منها جنبا إلى جنب ، كان طولها (طول الأربعين مليونا) معشارا واحدا (سانتي متر) ، وسط هذه الذرة فضاء فيه نواة ، تدور حولها أجسام صغيرة[٣٢] كدوران الكواكب في الفضاء ، ونسبة النواة للذرة ، كنسبة حبة القمح للقصر العظيم ، والنواة يزيد وزنها وحدها عن وزن (١٨٠٠) من هذه الكهارب ، فهل هذا كله من عمل (المصادفات)[٣٣] ؟

وإن الذي يثلج صدر المؤمن ، أن هذه المقالات التافهة كالطبيعة والمصادفات وأمثالها ، قد انقطع ورودها على ألسنة العلماء ، ولم يبق من قائل بها إلا أشباه العوام ، ممّن يدّعون العلم وليسوا من العلماء .

الله رب العالمين :

هذه هي القضية الثانية من قضايا الإيمان بالله ، وهي : أن تعتقد أن الله (وحده) هو الذى أوجد هذه العوالم كلها ، عالم الحيوان ، وعالم النبات ، وعالم الأفلاك . العوالم الظاهرة لنا ، والمغيبة عنا ، أوجدها من العدم ، ووضع

---

(٣٢) هذه الأجسام الصغيرة : يسمونها الكهارب (الإلكترونات) .

(٣٣) كتبت هذا الجزء كما قلت في المقدمة وما تحت يدي ولا قريباً مني كتاب أرجع اليه . فكنت أكتب ما خطر على بالي ، وأمدتني به ذاكرتي ، فكانت هذه الأمثلة ، ومن أراد أمثلة أدق وأحق وجدها في كتاب صدر قريباً اسمه (الطب محرابٌ للإيمان) جيد جداً .

(*) جاءت هذه الجملة فى الطبعات السابقة (إلا بالمجهر الإكترونى) والصواب ما أثبت هنا .

لها هذه النواميس العجيبة ، التي لم نكتشف إلى الآن في الكيمياء والفيزياء والطب والفلك ، إلا الأقل الأقل منها ، وهو (وحده) الذي يعلم دقيقها وجليلها ، كم ورقة في كل شجرة ، وشكل كل ورقة ، ووضعها ، وكم (جرثومة) في الدنيا ، وطولها وعرضها وأجزاءها التي ركبها منها ، وما في كل ذرة من الكهارب الثابتة والمتحركة ، وعددها ، وما يطرأ على كل منها من عوارض ، وما تتصف به من حركة وسكون ، وتطور وتحول ، كل ذلك مسجل عنده في كتاب .

هذه العوالم كلها ، هو ربها ، هو الذي أوجدها ، وهو يحفظها ، وهو الذي يحولها من حال إلى حال ، وهو الذي جعل في كل ذرة منها ، ما يدل العاقل عليه ، ويرشده إليه .

هذه هي القضية الثانية من قضايا الإيمان بالله ، قضية لابد منها ، ولكن هل يكفي الإيمان بها ليكون الإنسان مؤمناً ؟

إذا جاءك من يقر بأن الله هو الخالق ، وهو الرب ، فهل تعتبره بهذا وحده من المؤمنين ؟

لا .. إن ذلك وحده لا يكفي ، لأن أكثر الأمم القديمة كانت تقول به ، كفار قريش ، الذين بعث محمد ﷺ لإنكار شركهم ، وتسفيه عقائدهم ، وكلف بحربهم ، كانوا إذا سئلوا عنه اعترفوا به ولم ينكروه .

بل إن إبليس — وهو شر الخلق — ما أنكر أن الله ربه ، تنبهت إلى هذا من قوله :

﴿ ربِّ بِمَا أغْوَيْتَنِي .. ﴾ وقوله : ﴿ ربِّ فأَنْظِرْني .. ﴾ .

فهو مقر بأن الله ربه !

الله مالك الكون :

والقضية الثالثة : أن الله هو مالك الكون ، يتصرف فيه تصرف المالك الحر بملكه ، يحيي ويُميت . هل تقدر أن تدفع عن نفسك الموت ، وتمنحها

في الدنيا الخلود ؟ يمرض ويشقي ، هل تقدر أن تشفي من حرمه الله الشفاء ؟ يمنح المال ويبتلي بالفقر ، يبعث السيول ويصيب بالجفاف ، كان في السنة الماضية فيضانات في شمالي إيطاليا ، جرفت المدن ، ودمرت العمران ، وكان في ذلك الوقت في الهند جفاف يبس معه الزرع ، وهلكت الماشية ، وصار توزيع الماء بالبطاقات .

فمن زاد الماء على هؤلاء حتى شكوا منه ، وحرمه أولئك حتى تمنوه ؟ من يعطي هذا بنات وهذا بنين ، ويجعل من يشاء من الناس عقيما ؟ هل يستطيع من رزق البنات أن يحولهن إلى بنين ، ومن كان عقيما أن ينجب الولد ؟

هو يكتب الموت على ناس وهم أطفال ، ويمد في عمر ناس حتى يصيروا شيوخا ، يبعث موجة البرد والصقيع على بلد ، ويبعث موجة الحر على بلد ، ويصيب بلدا بالزلازل . أمور مشاهدة ، لا يملك الإنسان لها دفعاً ولا منعا .

الإله المعبود :

لذلك يقر أكثر الناس بأنه هو مالك الملك ، المتصرف بالكون ، ولكن هل يكفي هذا ليكون مؤمنا ؟

لا .. بل لابد معها من القضية الرابعة ، وهي أنه وحده الإله المعبود . إذا اعترفت بأن الله موجود ، وأنه رب العالمين ، وأنه مالك الملك ، فلا تعبد معه غيره ، ولا تقابل غيره بأي صورة من صور العبادة ، وقد أراني الله معنى لسورة الناس ، فيه رد على من يقر بوجود الله وبربوبيته وملكه ، ولكنه لا يوحده توحيد الألوهية ، معنى لم أجد من المفسرين من ذكره ، وأرجو أن يكون صوابا .

يقول الله عز وجل :
﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إِلَهِ النَّاسِ ﴾ .

فلماذا كرر لفظ الناس ؟ وعمد إلى الإظهار بدلا من الإضمار ،! فلم يقل

مثلا : « رب الناس ، وملكهم ، وإلههم .. ؟! » . الذي ظهر لي : كأن ربنا (والله أعلم) يقول لهم : « هذه ثلاث قضايا ، متماثلة متكاملة ، كل قضية مستقلة بنفسها ، مع ارتباطها بأختها . فهو : ﴿ رب النّاسِ ﴾ أي خالقهم وحافظهم ، وهو : ﴿ مَلِكِ النّاسِ ﴾ أي مالكهم المتصرف فيهم . وهو : ﴿ إلهِ النّاسِ ﴾ أي المستحق وحده لعبادتهم ، ولا يجوز أن يكون له شريك فيها .. » . ومقتَضى ذلك أن تصدقوا بالقضايا الثلاث ، أو أن تنكروا القضايا الثلاث ، فما بالكم : تصدقون بالأولى والثانية ، وترفضون الثالثة ؟ كيف تفرقون بين المتماثلات ؟ فتقبلون بعضا وتأبون بعضا ؟ والثلاث سواء في الثبوت ، لا سبيل إلى التفريق بينهما في الحكم ؟ .



توحيدُ الألوهيَّة

الإيمان بأن الله رب العالمين ، وأنه مالك الكون ، عمل من أعمال القلب ، عقيدة يعتقدها الإنسان ، أما الإيمان بأنه الإله ، فلا يقتصر على الاعتقاد ، بل يتعداه إلى السلوك والعمل ، وإلى القيام بالعبادة ، وإفراد الله بها ، فإن استنكف عن عبادته ، أو عبد معه غيره لم يكن مؤمنا ، وإن صدق واعتقد أن الله هو رب العالمين ، ومالك الكون ؛ فما هي العبادة ؟ أول ما يبدر إلى الذهن ، أن العبادة هي الذكر والصلاة والصيام وتلاوة القرآن وأمثال ذلك مما يقرب إلى الله، وهذا حق . ولكن العبادة لا تقتصر على هذا ، بل إن كل عمل نافع ، لم يمنعه الشرع ، يعمله المؤمن ابتغاء ثواب الله ، يكون عبادة .

يأكل ليتقوى على الطاعة فيكون أكله بهذا القصد عبادة ، وينكح ليعف نفسه وأهله ، فيكون نكاحه عبادة ، وبمثل هذا القصد يكون كسبه المال عبادة ، وإنفاقه على أهله عبادة ، وتحصيله العلم والشهادات عبادة ، وشغل المرأة بأعمال بيتها ، وخدمة زوجها ، ورعاية أولادها عبادة ، وكل عمل مباح إن قصد فاعله قصداً فيه رضا الله كان عبادة ، فالعبادة يتسع معناها حتى يشمل كل أعمال الإنسان النافعة ، ويحيط بها كلها ، ولعل هذا هو المعنى المقصود بقوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنْسَ إلاَّ لِيَعْبُدُون .. ﴾ .

روح العبادة :

والعبادة لها روح ولها جسد ، فروحها العقيدة التي دفعت إليها ، والغاية التي عملت من أجلها ، وجسدها عمل الجوارح ، من لفظ اللسان ، وحركات الجسم . الصلاة مثلا حركات وألفاظ ، قيام وقعود ، وركوع وسجود ، وتلاوة وذكر وتسبيح ، ولكن هذا كله جسد الصلاة ، فإن لم يكن الدافع إليه توحيداً صحيحاً ، وعقيدة سليمة ، ولم يكن المقصود به امتثال أمر الله ، وطلب رضاه ، كانت الصلاة جسداً ميتاً لا روح فيه .

الأساس في توحيد الألوهية :

الأساس أن نعتقد أن الله وحده هو النافع وهو الضار ، ولابد لهذا من شيء من البيان : الله خالق كل شيء ، أوجد العوالم ، وبث فيها من كل شيء ، وأعطانا العقول وقال لنا : فكروا بعقولكم في هذه الأشياء التى خلقتها ، وانظروا ماذا في السموات والأرض ، فنظرنا فوجدنا أن الله الذي خلق هذه الأشياء ، قد سلط بعضها على بعض ، فالنار إذا مست الشجرة اليابسة أحرقتها ، والماء إذا صب على النار أطفأها ، والبعوضة (٣٤) إذا لدغت الإنسان أصابته بالبرداء (الملاريا) ، والمادة التي في قشور شجرة (الكينا) إذا دخلت جسد المريض شفته من البرداء .

وأنه جعل بين هذه الأشياء روابط ، وجعل اجتماعها بمقادير قدرها ، وامتزاجها بنسب عينها ، ينتج عنه أشياء جديدة ، فـ (الكلور) وهو مادة مؤذية ، و(الصوديوم) وهو مادة مؤذية ، إذا اجتمعا كان منهما مادة نافعة لابد للإنسان منها ، ولا يستغنى عنها وهي ملح الطعام .

ـــ ووجدنا أن الروابط والعلاقات ، تتبع كلها قواعد ثابتة ، وأساليب معينة ، لا تتبدل ولا تتغير هي سنن الله في الكون ، التي اصطلحنا على تسميتها (قوانين الطبيعة) .

٢ ـــ وأن هذه الروابط بين الأشياء التي سميناها قوانين الطبيعة ، ليست كلها كالعلاقة الظاهرة بين النار والخشب الذى نحرقه ، والنار والماء الذي يطفئها ، ليست كلها بهذه (البساطة) (٣٥) وهذا الظهور ، بل إن أكثرها أدق وأعمق .

الله وضع في هذا الكون دواء لكل داء ، ولكن لم يضع الدواء في مكان

---

(٣٤) أعني النوع المعروف منها .

(٣٥) البساطة في اللغة السعة ولكني قصدت بها المعنى العامي .

باد للعين ، ولم يجعله (جاهزاً) معداً للاستعمال ، بل جعله (تعالت حكمته) مخبوءاً في أوضاع عجيبة ، وفي أماكن لا يظن أنه موجود فيها ، فـ (البنسلين) الشافي ، وضعه ربنا في العفن الأخضر ، الذي يبدو أنه سم مميت ، كما وضع أجمل العطور ذوات الروائح العبقة ، وأبدع الأصبغة ذوات الألوان الزاهية ، في أقبح مادة ريحا وأبشعها شكلا ، المادة السوداء القبيحة التي اسمها القطران ، ومنها تستخرج العطور والألوان ! .

ولم توضع وضعا قريبا ، بل إن العنصر المؤثر المطلوب ، جعله ربنا ممزوجاً بمواد أخرى ، متداخلا معها ، يحتاج استخلاصه منها إلى عمليات وتجارب وجهود ، ومن قرأ كتاب (التلميذة الخالدة)[٣٦] ، علم كيف احتاج استخراج (غرام الراديوم) ، إلى تصفية ركام هائل كالتل الصغير ، من مواد مختلفة ، وإجراء العمليات المتعاقبة عليها ، التي استمر إجراؤها سنين .

٣ ــ ولم نكتشف إلى الآن من هذه (النواميس) الكونية التى وضعها خالق الكون إلا قطرة من بحر ، رأينا فيها العجب العجاب ، وصنفنا هذا القليل الذي كشفناه في زمر وأصناف سميناها (علوما) ، فكان منها علم الحياة ، وعلم الكيمياء ، وعلم الفيزياء ، وعلم الجسم (الفسيولوجيا) ، وعلوم الطب ، وسائر العلوم ، وانقطع إلى كل علم منها ناس منا ، تفرغوا لفهم قوانين الله فيه ، وكشف المزيد منها ، فكان منهم علماء الحياة ، وعلماء الكيمياء ، وسائر العلماء .

٤ ــ ووجدنا أن في الكون أشياء تضرنا وأشياء تنفعنا ، وأن النفع والضرر على نوعين . منه ما يكون بسبب ظاهر ، تطبيقا لقانون من قوانين الطبيعة ، التي كشفناها وأدخلناها في نطاق علومنا ، كمن يقف قلبه بتناول مادة سامة عرفناها ، وعلمنا ــ بالتجربة ــ تأثيرها في القلب ، ومنه ما يكون

---

(٣٦) قصة مدام كوري وزوجها . وأرجو أن يقرأ الطلاب هذا الكتاب ، ليروا كيف يكون الصبر على تحصيل العلم . وفي سير علمائنا الأولين مئات الأمثلة على مثل هذا الصبر ، وعلى الإخلاص للعلم والجد فيه .

بغير سبب ظاهر ، ولا يستند إلى قانون معروف ، كمن يكون قوي الجسد ، صحيح الجسم فيقف قلبه فجأة ، بسكتة قلبية لا نعرف سببها ، وكلا النوعين من الله ، فالله وحده هو النافع ، وهو الضار .

٥ ـ والله قد فطر الإنسان على جلب النفع ، فهو يتخذ لجلبه كل وسيلة ، وفطره على كره الضرر ، فهو يستعمل لدفعه عنه كل حيلة ، ويستعين على ذلك بكل طاقة ممكنة ، وهذه الاستعانة منها ما يجوزه الدين ، ومنها ما يمنعه ، ويراه منافيا للإيمان . فما هى الاستعانة المشروعة ، وما هي الاستعانة الممنوعة ؟

إذا مرض ولدك ، وكان الطبيب إلى جوارك يسمع كلامك (فدعوته) ، ففحص عن المرض ، ووصف له الدواء ، كانت هذه استعانة مشروعة ؛ لأنك استعنت على الشفاء بالقانون الطبيعي ، الذي وضعه خالق الكون ، وبالرجل العالم بهذا القانون ، ولكن إن دعوت دجالاً أو ساحراً ، ليعمل على شفائه بلا علم ، ولا قانون ، بل بقوى غيبية يزعم الاتصال بها ، لم يثبت وجودها بالعلم الحسي ، ولا بالدليل السمعي[٣٧] كانت استعانة ممنوعة .

وإن جئت قبر الطبيب بعد موته ، فدعوته وهو لا يقدر أن يفحص المريض ، وأن يصف الدواء ، كانت استعانة ممنوعة . وإن عجز العلم ولم ينفع الدواء ، فتوسلت إلى الشفاء بالدعاء ، أو بالصدقة ، أو طلبت من رجل صالح أن يدعو لك ، كانت هذه استعانة مشروعة ، وإن وقفت على قبر الرجل الصالح ، فاستعنت به وهو لا يملك تحريك لسانه بالدعاء لك ، ولا يقدر من عند نفسه على شفاء مريضك ، كانت هذه استعانة ممنوعة .

وتوسلك إلى الشفاء بسقي المريض الدواء الذي وصفه له الطبيب مشروع ، ولكن إن أخذت الوصفة فجعلتها (حجابا) علقته بعنق المريض ، أو نقعتها وسقيته ماءها ، واعتقدت أن ذلك يشفيه فذلك ممنوع ، وطلبك النفع

---

(٣٧) الدليل السمعي : هو آية من كتاب الله تعالى ، أو حديث ثابت من أحاديث رسول الله ﷺ .

بأشياء لم يجعلها الله سبباً ظاهراً له ممنوع ، فالمرأة العاقر التي تشتهي الولد ، إذا استعانت بطب الأطباء ، وبالأدوية التي أنزلها الله ، المستخرجة وفق قوانين العلم ، لم تأت أمرا ممنوعا ولم تخالف الدين ، ولكن إذا اعتقدت (كما كان يعتقد عجائز الشام[٣٨]) : أن قرع حلقة (جامع الحنابلة) في جبل قاسيون أول جمعة من رجب ، يسبب لها الحبل ، أو توسلت إلى ذلك بربط خرقة على شباك أحد القبور ، تكون قد ارتكبت ممنوعاً ، وخالفت عقيدة التوحيد .

فتبين من هذا أن الاستعانة بقوانين الطبيعة ، والرجوع إلى الرجل العالم بها ، واتخاذ الأسباب المعتادة لحصول النفع ، كل ذلك جائز مشروع ، على أن نذكر أن النافع في الحقيقة هو الله تعالى وحده دون سواه . وأن الاستعانة بقوة غيبية مزعومة ، لم يؤيدها العلم التجريبي ولم يثبتها الدليل السمعي ، إنما هي استعانة ممنوعة ، منافية لعقيدة التوحيد .

التحليل والتحريم لله وحده :

وهذه المنافع التي نصل إليها بتطبيق قوانين الطبيعة منافع دنيوية ، لأن الله سلط عقولنا على كشف هذه القوانين ، ولم يسلطها على كشف ما وراء المادة ، ولا على جلب المنافع الأخروية ، فنحن نعمل على جلب النفع ، ودفع الضرر ، في حدود المادة ، وفي هذه الدنيا ، ولا نملك لأنفسنا في العالم الآخر نفعاً ولا ضرراً .

ولما كان الله قد جعل للنفع الأخروي سببا ، وهذا السبب هو عمل الواجب،وجعل للضرر الأخروي سبباً ، وهذا السبب هو فعل الحرام ، كان التحريم والتحليل ، الذي يترتب عليه الثواب والعقاب لله وحده ، وليس لأحد أن يقول برأيه ، هذا حلال وهذا حرام . وليس لأحد أن يوجب أمراً لم يوجبه الله ، أو يحرم أمراً لم يحرمه الله ، ومن أعطى حق التحليل والتحريم لغير الله ،

---

(٣٨) وكما تعتقد نساء إيطاليا ، أن من تتطاول بكلتا يديها إلى نافذة ضريح أحد القديسين ، يزول عقمها إذا كانت عقيما . ولنساء أوربا وأميركا اعتقادات أغرب من هذا .

يكون قد عبده من دونه ، أو شاركه معه في عبادته [٣٩]

حب الله وخشية الله :

الإنسان يحب ويكره ، يحب الطعام اللذيذ ، ويحب المنظر الجميل ، ويحب الرجل المرأة ، وقد يبالغ في هذا الحب (أي : العشق) ، فيفيض عليه — كما قدمنا — بعض مظاهر العبادة ، ولكنه يبقى مع ذلك مقيدا محدودا ككل حب بشري .

فنحن نحب المنفعة التي ننالها من الشيء الذي نحبه ، أو اللذة التي نحس بها بقرب الشخص الذي نعشقه ، فإذا أصيب المحبوب بمرض مشوه تتساقط منه الجوارح ، ويذهب معه الجمال ، أو فسد الطعام وركبه العفن ، أو تبدل المنظر وذهب منه الجمال ، انتهى هذا الحب ، بل ربما تحول إلى كره .

أما حب الله الذى يحسه المؤمن فهو حب مطلق غير مقيد ولا محدود ، بل إن ما نحبه في الدنيا ، إنما نحب فيه الخالق الذي خلقه وأوجده ، وسخره لنا وأقدرنا على الانتفاع به ، أو التلذذ بمرآه أو ملمسه .

والإنسان يخشى كثيرا من المخلوقات ، يخشى النار المشتعلة ، والوحش المفترس ، والسم المميت ، والظالم القوي . ولكنها خشية محدودة مقيدة ، هى البعد عن الضرر الكامن في المخوف ، أو الناشيء عنه ، فإذا أمن الضرر ذهب من نفسه الخوف ، أما خوف الله فمطلق غير مقيد ولا محدود .

وحب الله والخشية منه ، هما من أسس التوحيد ، وهما روح العبادة ، ولابد من التنبيه على أن حب الله ليس معناه نظم قصائد الغزل بالله كما فعل ابن

---

(٣٩) ولو أن مسلماً شرب الخمر وهو معتقد حرمتها معترف بذنبه ، وآخر ادعى أن شراب الليمون — مثلا — حرام ، لكان ذنب من حرم الحلال بلا دليل ، أكبر من ذنب من ارتكب الحرام بلا إنكار لحرمته .. ولقد قرن ذلك في القرآن بالشرك : ﴿ وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء ﴾ .

الفارض ، ولا تسميته بالعشق الإلهى كما نسبوا إلى رابعة العلوية .

وخوف الله ليس معناه الفزع المؤدي إلى الكره ، ولا الجزع الموصل إلى الاختلال ، بل إن حب الله بطاعته وإيثار مرضاته على شهوات النفس ووساوس الشيطان ، واتباع رسوله ﷺ فيما جاء له :
﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فاتَّبِعُوْنِي .. ﴾

فالاتباع هو مقياس الحب ، وخوفه باجتناب محرماته ، وإيثار لذة الثواب في الآخرة ، على لذة المعصية في الدنيا .

ثم إن الطاعة لله ليست كالطاعة لمخلوقاته ، فنحن نطيع بعض البشر إما امتثالا لأمر الله كطاعة الرسول ، أو استجابة لدواعى الطبع ، أو خوفا من الخطر . فالشعب يطيع الحاكم ، والولد يطيع الوالد ، والمرأة تطيع الزوج ، والإنسان يطيع من أحسن إليه إذا أمره بما لا يضره ، وقد يكره أحدنا على الطاعة فيطيع خوفا من الأذى ، ولكن هذه كلها (عدا طاعة الرسول فهي من طاعة الله) كلها طاعة محدودة ، ليست الطاعة المطلقة التي لا حد لها ، لأن الطاعة المطلقة لله ، والطاعة في كل شيء ، الطاعة فيما يسرنا ويسوؤنا ، فيما نفهم حكمته وما لا نفهم حكمته ، وهذه الطاعة هي ثمرة حب الله ، وهي الدليل عليه .

آيات الصفات

لقد اجتنبت في هذا الكتاب الخوض في المسائل الكلامية ، وأعرضت عن سرد اختلافات المتكلمين ، ولكن مسألة (آيات الصفات) قد طال فيها المقال ، وكثر الجدال ، ولا بد من بعض البسط للكلام فيها .

لقد وصف ربنا نفسه في القرآن بألفاظ موضوعة في الأصل للدلالة على معانٍ أرضية ، ومقاصد بشرية ، مع أن الله ليس كمثله شيء ، وهو الرب الخالق ، تعالى على أن يشبه المخلوقين ، ولايمكن أن تفهم هذه الألفاظ حين إطلاقها على الله ، بالمعنى نفسه الذي تفهم به حين إطلاقها على المخلوق .

فنحن نقول فلان عليم ، وفلان بصير ، ونقول إن الله عليم ، بصير ، ولكن الكيفية التي يعلم بها العبد ويبصر ، ليست هي التي يعلم بها ربنا ويبصر . وعلم العبد وبصره ليس كعلم الله وبصره ، كذلك نقول استوى المعلم على منبر الفصل ، ونقول استوى الله على العرش ، ونحن نعرف معنى الاستواء (القاموسي) ونطبقه على المعلم ، ولكن هذا المعنى لا يمكن أن يكون هو بذاته المقصود حين نقرأ ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ .

هذا كله متفق عليه بين العلماء ، فهم جميعا مقرّون بأن آيات الصفات هي كلام الله . فإذا قال الله ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ . لم يستطع أحد أن يقول : ما استوى .

وهم جميعا معترفون بأن المعنى القاموسي البشري لكلمة (استوى) ليس هو المراد من قوله ﴿ استوى على العرش ﴾ .

ولكنهم مع ذلك اختلفوا اختلافا كبيرا ، في المراد المقصود ، بعد اتفاقهم على ترك التعطيل والتشبيه ، تساءلوا :

هل هذه الآيات حقيقة أم مجاز ؟

وهل تؤوّل أم لا تؤول ؟

أما الذين أوّلوا فقالوا بأن الحقيقة هي استعمال اللفظ بالمعنى الذي وضع له . وهذا هو تعريف الحقيقة عند عامة علماء البلاغة ، ولا شك أن اللسان العربي الذي نزل به القرآن ، وضعت فيه هذه الألفاظ قبل نزول القرآن ، ووضعت لمعانٍ أرضية مادية ، حتى إنها لتعجز عن التعبير عن العواطف والمشاعر البشرية ، فضلا عن التعبير عن صفات الله خالق البشر ، فإن مظاهر الجمال وأشكاله لا حدَّ لها ، وما عندنا لها كلها إلا كلمة (جميل) ، وأين جمال المنظر الطبيعي ، من جمال القصيدة الشعرية ، من جمال العمارة المزخرفة ، من جمال الغادة الحسناء ، وفي النساء ألف لون من ألوان الجمال ، وما عندنا لها كلها إلا هذا اللفظ الواحد ، فاللغات تعجز عن وصف الشعور بالجمال .

وكذلك القول في الحب ، في تعداد أنواعه ، واختلاف مشاعره ، وضيق ألفاظ اللغة عن وصف هذه الأنواع ، ونعت هذه المشاعر ، فكيف تحيط بصفات الله وتشرح كيفياتها ؟

وإذا كانت الحقيقة هي (استعمال اللفظ فيما وضع له) ، وكانت ألفاظ : استوى ــ وجاء ــ وخادع ــ ويمكر ــ ونسيهم إنما وضعت للمعاني الأرضية البشرية المادية ، وكان استعمالها في القرآن في قوله ﴿ استوى على العرش ﴾ ﴿ وجاء ربك ﴾ ﴿ وهو خادعهم ﴾ ﴿ ويمكر الله ﴾ وقوله ﴿ فنسيهم ﴾ في غير هذا المعنى المادي الأرضي البشري الذي وضعت له ، لم تكن إذن (حقيقة) بمقتضى تعريفهم هذا للحقيقة .

ومن ينكر أنها مجاز ، ومنهم ابن تيمية ، يعرّف (الحقيقة) تعريفا آخر خاصاً به ، غير التعريف الذي جرى عليه البلاغيون ، ويقول ما معناه : إن تأويل هذه الألفاظ ، أي تفسيرها تفسيرا مجازيا ، والجزم بأنه هو المراد مردود ، لأن المعاني المجازية هي أيضا معانٍ بشرية .

ولقد نظرت فوجدت أن هذه الآيات على ثلاثة أشكال :

١ ـ آيات وردت على سبيل الإخبار من الله ، كقوله : ﴿ الرَّحْمنُ على العَرْشِ اسْتَوىَ ﴾ . فنحن لا نقول : « إنه ما استوى » ، فنكون قد نفينا ما أثبته الله . ولا نقول إنه استوى على العرش ، كما يستوي القاعد على الكرسي ، فنكون قد شبهنا الخالق بالمخلوق ، ولكن نؤمن بأن هذا هو كلام الله ، وأن لله مرادا منه لم نفهم حقيقته وتفصيله ، لأنه لم يبيّن لنا مفصلا ، ولأن العقل البشري (كما قدمنا) يعجز عن الوصول إلى ذلك بنفسه .

٢ ــ آيات ، وردت على الأسلوب المعروف عند علماء البلاغة بالمشاكلة ، والمشاكلة هي كقول القائل :

قالوا اقترح شيئاً نُجِدْ لك طبخه   قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

وقول أبي تمام في وقعة عمورية ، يرد على المنجمين الذين زعموا أن النصر لا يجيء إلا عند نضج التين والعنب :

تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت   جلودهم قبل نضج التين والعنب

والآيات الواردة على هذا الأسلوب كثيرة ، كقوله تعالى :

﴿ نَسُوا الله فَنَسِيَهُمْ ﴾ .

فكلمة (نسوا) جاءت على المعنى (القاموسي) للنسيان . وهو غياب المعلومات عن الذاكرة . ولكن كلمة (فنسيهم) جاءت مشاكلة لها ، ولا يراد منها ذلك المعنى ، لأن الله لا ينسى :

﴿ وما كَانَ رَبُّكَ نَسِيَّاً ﴾ .

ونقول بعبارة أخرى :

إن كلمة (نسوا) استعملت بالمعنى الذي وضعت له . وكلمة (فنسيهم) استعملت بغير هذا المعنى .

ومثلها قوله ﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾ اتفق الجميع على أنها معيّة علم لا معيّة ذات ، لأن صدر الآية ينص على أن الله استوى على العرش .

ومثلها قوله ﴿ سنفرُغ لكم أيها الثّقلان ﴾ ، وقوله ﴿ ومكروا ومكر الله ﴾ ، وقوله ﴿ يخادعون الله وهو خادعهم ﴾ .

كل هذه الآيات لايجوز فهمها بالمعنى القاموسي ، الماديّ ، بل بمعنى يليق به جلّ وعلا .

٣ ــ آيات دلت على المراد منها آيات أخرى . كقوله تعالى :

﴿ وقَالَتِ اليَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ ، غُلَّتْ أَيْدِيهم ، وَلُعِنوا بِمَا قَالُوا ، بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

تدل على المراد منها آية :

﴿ ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلى عنُقِكَ ، ولا تَبْسُطْهَا كَلَّ البَسْطِ ﴾ .

ويفهم منها أن بسط اليد يراد به الكرم والجود ، ولا يستلزم ذلك ، (بل

يستحيل) أن يكون لله تعالى يدان كأيدي الناس والحيوان ، تعالى الله عن ذلك .

وقد جاء في القرآن قوله :

﴿ بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾ ، و﴿ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ أليمٍ ﴾ . والقرآن ﴿ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾

وليس للرحمة ولا للعذاب ولا للقرآن ، يدان حقيقيتان .

المحكم والمتشابه :

بين الله في القرآن ، أن فيه آيات محكمات ، واضحة المعنى ، صريحة اللفظ ، وآيات وردت متشابهات ، وهي التي لا يَضِحُ[٤٠] المعنى المراد منها تماما ، بل تكثر أفهام الناس لها ، وتتشابه تفسيراتها حتى يتعسر أو يتعذر معرفة المراد منها ، وآيات الصفات منها ، وأن على المؤمن ، أن لا يطيل الغوص في معناها ، ولا يتتبعها فيجمعها ، ليفتن الناس بالبحث فيها[٤١].

موقف المسلمين منها وكيف فهموها :

المسلمون الأولون ، وهم سلف هذه الأمة ، وخيرها وأفضلها ، لم يتكلموا فيها ، ولم يقولوا إنها حقيقة ، ولم يقولوا إنها مجاز ، ولم يخوضوا في شرحها ، بل آمنوا بها كماجاءت من عند الله على مراد الله .

فلما انتشر علم الكلام ، وأوردت الشبه على عقائد الإسلام ، و ظهرت طبقة جديدة من العلماء ، انبرت لرد هذه الشبه ، تكلم هؤلاء العلماء في آيات الصفات ، وفهموها على طريقة العرب ، في مجاوزة المعنى الأصلي للكلمة إذا لم يمكن فهمها به إلى معنى آخر ، وهذا ما يسمى : (المجاز) ، أو

---

(٤٠) يضح : هي الفعل المضارع من الفعل الماضي (وضح) . ومثلها : وعظ ـ يعظ .

(٤١) ومن جمعها كلها . وألقاها على التلاميذ ، فقد جانب طريقة السلف ، لا سيما إذا ضم إليها أحاديث الآحاد المروية في مثلها ، والتي لا تعتبر دليلا قطعيا في أمور العقائد .

التأويل[42] .

وهو موضوع نزاع بين العلماء طويل . والحق أن هذه الآيات نزلت من عند الله ، من أنكر شيئاً منها كفر . وأن من عطلها تماماً ، فجعلها لفظا بلا معنى كفر . ومن فهمها بالمعنى البشري ، وطبقه على الله ، فجعل الخالق كالمخلوق كفر . والمسلك خطر ، والمفازة مهلكة ، والنجاة منها باجتناب الخوض فيها ، واتباع سنن السلف ، والوقوف عند حد النص ، وهذا ما أدين الله به ، وما أعتقده .

مظاهر العبادة

القلب الذى يؤمن بأن النفع والضرر كله من الله ، وأن التحليل والتحريم لله ، وأن الحب المطلق والخوف المطلق والطاعة المطلقة لله ، يمتلىء بتعظيم الله ، ويستشعر معنى (الله أكبر) ، فيصغر معه كل شيء في جنب الله .

ولما كان في أعمال الإنسان ما يدل على التعظيم المطلق ، كالدعاء والصلاة ، والركوع والسجود ، والنذر والذبح ، والتسبيح والتهليل ، فإن المؤمن لا يصنعها إلا لله ، فلا يصلي لسواه ، ولا يركع ولا يسجد إلا له ، ولا يقول لأحد غيره : سبحانك ، ولا يطلب غفران الذنوب إلا منه ، لأن هذه كلها من مظاهر التعظيم المطلق ، الذي هو سرّ العبادة .

ومن أعظم مظاهره الدعاء ، والدعاء في اللغة النداء ، والشرع لا يمنع أن تدعو (أي تنادي) إنسانا حيا يسمع صوتك ، ليعينك بعلمه أو قوته ، على جلب النفع لك ، وليس هذا هو الدعاء الذي نتكلم عنه ، بل الدعاء الذي

---

(٤٢) التأويل : من آل الأمر إلى كذا أي : صار ، وأوله إليه (على وزن فعل) أي : صيره ،ولفظ (التأويل) جاء في القرآن بمعنيين : تأويل لفظي ، أى بيان ماينتهي إليه معني اللفظ : ﴿ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا ﴾ وتأويل عملي ، أي بيان ما تنتهي إليه الحال ﴿ يومَ يأتي تأويله ﴾ ومن هنا فرق المتأخرون بين التأويل والتفسير ، فالتأويل ما بينا ، والتفسير كشف المعنى من فسر (مثل سفر) أي انكشف .

نقصده هنا ، والذي هو مخّ العبادة ، هو طلب جلب النفع ودفع الضرر بلا سبب مادي ظاهر ، وهذا الذي لا يوجّه إلا لله وحده ، رأسا بلا واسطة ، فلا يطلب الشفاء نفسه من الطبيب ولو كان حيا ، لأن الطبيب يصف الدواء ، والشفاءُ من الله ، فأولى ألاّ يطلبه ــ أو يطلب ما يشابهه ــ من ميت أو من جماد ، لأنه لا يمنح النفع بلا سبب ظاهر إلا الله .

فالمؤمن يتخذ الأسباب ، ثم يطلب المسبب من الله ، وما لا يعرف الناس له سببا يطلبه من الله وحده ، يدعوه ويقول : « يألله » ، ويعتقد أن بابه مفتوح ، وأن إجابته حاصلة ، ولا يدعو غيره بدله ، ولا يدعو غيره معه ، ولا يتخذ غيره وسيطا في الدعاء بينه وبينه . هذا هو الدعاء الذي هو مخّ العبادة .

غاية العبادة :

قلت إن للعبادة جسدا هو الألفاظ التي ينطق بها اللسان ، والأعمال التي تقوم بها الأعضاء ، ولها روح وروحها العقيدة التي دفعت إليها ، والغاية التي عملت من أجلها ، أي النتائج التي قصدها من عملها .وقد شرحت جانبا من هذه العقيدة ، وسألمّ الآن بطرف من هذه المقاصد .

المقصد الصحيح للعبادة : أن يكون الباعث عليها ، والمقصود بها رضا الله ، فلا نعملها للمال ، ولا للجاه ، ولا لنيل إعجاب الناس ، ولا نتخذها سلما إلى متع الدنيا ، ولا نريد بها الشهرة بالصلاح ، وهذا المقصد الصحيح يسمى (الإخلاص) ، وما يداخله من المقاصد الأخرى يدعى (الرياء) ، والذي يحدّد المقصد من العمل هو (النية) . والله لا يسألنا يوم القيامة عن الأعمال فقط ، بل يسألنا لماذا عملناها ، وقد يكون العمل صالحا في ذاته ، ولكن لم يصح المقصد منه ، ولم تسلم النية ، ولم تكن خالصة لله ، فيتحول صلاحه إلى فساد ، وحسنه إلى قبح .

الصلاة مثلا عمل صالح ، ولكن إذا كانت نية المصلي أن يراه الناس ، فيعتقدوا صلاحه فيعطوه الأموال ، ويهدوا إليه الهدايا . ولم يصلِّ امتثالا لأمر

الله ، وطلبا لرضاه ، كانت صلاته هذه عملا سيئا ، وإن كانت الصلاة في الأصل من الأعمال الحسنة .

لذلك تفاوتت هجرة المهاجرين ، فكان منها الحسن والسيىء ، وإن كان ظاهرها واحدا ، وكانوا جميعا قد اشتركوا في السفر والارتحال ، ومشوا في وقت واحد ، في طريق واحد ، فمن كان يقصد الفرار بدينه ، ورضا ربه ، كانت سفرته هجرة لله ، يثاب عليها ثواب المهاجرين ، ومن كان خاطبا امرأة في المدينة ، يريد زواجها ، فلما رأى المهاجرين ، قال في نفسه : إني أصحبهم لأتزوج بهذه المرأة ، أو كانت له تجارة فصحبهم ليعمل في تجارته ، وكان هذا وحده هو مقصده من السفر ، كانت سفرته للدنيا ، ولم تكن لله .

والنيات هي التي تفرق بين العادة والعبادة ، فمن أفاق متأخرا ، ومضى إلى عمله مستعجلا ، وشغل عن طعامه وشرابه ، فلم يدخل جوفه شيئا إلى الغروب ، يكون قد قام بكل ما يطلب من الصائم ، ولكن لم ينل ثواب الصائمين ، لأنه ما نوى الصيام ولا قصده[٤٣] . والأعمال العادية ، المباحة غير الممنوعة ، إذا قصد بها صاحبها رضى الله ، ونوى بها نية صالحة كانت له عبادة ، ومن هنا قلنا : إن جميع أعمال الإنسان النافعة تكون له (بالنية) عبادة ، فتشمل العبادة الحياة كلها ، ويكون المرء متعبدا في طعامه وشرابه ، وقيامه وقعوده ، وكسبه وزواجه ، ومن هنا يكون الفهم الصحيح لقوله تعالى :
﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُون ﴾ .
فتكون العبادة بهذا المعنى الشامل ، هي غاية الخلق .

الخلاصة

فتلخص من هذا أن توحيد الألوهية ، وهو القسم الرابع ، والقسم

(٤٣) وهذا لا يعارض ما ذهب إليه الحنفية من صحة الوضوء بلا نية ، لمن غسل أعضاء الوضوء كلها لأن (الوضوء) ليس عبادة مستقلة ، ولكنه شرط لهذه العبادة ، كما يشترط لها : طهارة الثوب والمكان ، وستر العورة ، وذلك كله يصح ولو بلا نية .

الأخص من الإيمان بالله ، هو أن نعتقد أن النفع والضرر كله من الله وحده ، فلا تطلب النفع إلا منه ، إما عن طريق السنن التي وضعها لهذا الكون المسماة بقوانين الطبيعة ، وإما منه رأسا بالدعاء ، تدعوه وحده ، لا تدعو غيره ، ولا تدعوه مع غيره ، ولا تتخذ إليه وسيطا ، ولا تستعين إلا به أو بالأسباب التي جعلها طريقا للنفع ، مع ملاحظة أنه هو النافع لا مجرد السبب ، وأن تخصه بالحب المطلق الدافع إلى الطاعة المطلقة ، والخشية الدافعة إلى اجتناب المحرمات ، وأن تخصه بالتعظيم المطلق ، وبكل ما يدل عليه من قول وعمل ، وأن تقصد رضاه وحده ، لا تقصد بعبادتك الدنيا وأهلها .

البحث العلمي :

ولما كان الله قد أعطانا العقول ، وأمرنا بالنظر في أسرار الوجود ، وفي سننه العجيبة ، وقوانينه التي أوجدها فيه ، وكان علينا امتثال أمر الله ، كان درس العلوم الطبيعية ، واكتشاف أسرار الوجود عبادة . بشرط ألاّ تقف عند معرفة القانون ، بل تفكر في الإله العظيم الذي أوجده ، فتزداد بهذا الفكر إيمانا بالله ، وإخلاصا في عبادته ، وشرط آخر : هو أن تستعمل هذه الأسرار فيما ينفع الناس ، ويرضي الله ، لا فيما يضرهم ويؤذيهم ، ويسبب في الأرض الفساد .

شبهة وردها :

يسأل كثيرون ، ما بال الكافر يعمل على ما ينفع الناس ، يوزع الصدقات ، ويبني الملاجىء والمستشفيات ، ويفتح المدارس ، ثم لا يكون له (عندكم) ثواب في الآخرة ؟ **والرد** : إن الله لا يضيع عمل عامل من ذكر أوأنثى ، ولا يحرم محسنا ثمرة إحسانه ، بل يعطيه ما يطلبه ، أليس الجزاء الأعظم أن تعطي المحسن ما يطلبه .

فإن كان المحسن مؤمنا ، مصدقا بالآخرة ، وطلب ثوابها ، أعطاه الله ثواب الآخرة ، وإن كان (هو نفسه) لايريد إلا الدنيا ، والشهرة ، والذكر الحسن ، وأن تكتب الجرائد عنه ، ويسجل التاريخ اسمه ، أعطاه ما يطلبه .

هو لا يريد الآخرة ، فلماذا تحزن أنت ، وتعترض إذا لم يمنح ثوابها ؟ .

جدال في غير طائل :

امتلأت كتب علم الكلام بالجدال : في (الصفات) و (الذات) ، هل علم الله تعالى (مثلا) بذاته ، أم بصفة العلم فيه ، وبالتفريق بين صفات الذات ، كالعلم والقدرة ، وصفات الأفعال كالخلق والرزق . والجدل في كلام الله الذي جر إلى فتنة كبيرة ، ما كان لها من داع ، هي فتنة الامتحان بالقول بخلق القرآن ، وفي الحسن والقبح ، والصلاح والأصلح ، وفي القضاء والقدر ، وإرادة الإنسان ، وأمثالها ، ووجه الحق في هذه المسائل ، هو رفض البحث فيها ، والجدال عليها ، وهي (إذا استعرنا لغة المحاكم) دعوى مردودة شكلا .

أولا : لأن السلف وهم أفضل المسلمين ، وخيار هذه الأمة ، من الصحابة والتابعين الكبار ما عرفوها ، ولا بحثوا فيها ، وكان دينهم أسلم ، وإيمانهم أصح ، وهم قدوتنا في ديننا .

ثانياً : لأن من يدقق في أقوال الفرق المختلفة ، يجدها كلها مبنية على أساس واحد ، هو قياس الخالق على المخلوقين ، وتطبيق منطق العقل البشري ، وأحوال النفس الإنسانية على الله . وذلك باطل ، لأن الخالق لا يشبه المخلوق ، ولأن الله ليس كمثله شيء .

ثالثاً : لأن هذه الأمور كلها ، مما وراء المادة ، أي من عالم الغيب ، وقد تقدم في القاعدة الخامسة من قواعد الإيمان ، أن العقل قاصر حكمه على عالم المادة ، لا يستطيع أن يحكم على ما وراء المادة ، ولا يستطيع أن يدركه .

وجه الحق فيها :

وأنا أدعو إلى شيء جديد ، شيء هو أقرب إلى الحق ، وأنفع لنا ، هو أن ننقل الموضوع من جدال في صفات الله ، إلى سلوك في الحياة يوصل إلى

رضاه ، فبدلا من أن نبحث (بحثا غير منتج) في القرآن هل هو مخلوق ، أم غير مخلوق ،نقول : إن القرآن أنزله الله لنعمل به ، فلنعمل به ، ولنأتمر بأمره ، ولنقف عند نهيه ، وبدلا من البحث في علم الله ، وهل هو بذاته أم بصفة زائدة على الذات ، نقول : إذا كان الله يعلم عنا كل شيء من سرنا وجهرنا ، وانفرادنا واجتماعنا ؛ فيجب أن نسلك في الحياة سلوكا موافقا لشرع ربنا ، حتى يعلم عنا مايرضيه علينا .

هذا هو الحق ، وما مثل من يصنع هذا ومثل من يجادل في صفات الله ، إلا كمثل طلاب المدرسة ، الذين يقال لهم : إنها ستأتي لجنة عليا من الوزارة تتولى هي امتحانكم ، فالعاقل منهم يقول : إذا كانت هذه اللجنة ستتولى الامتحان ، فينبغي أن أستعد وأدرس ، ولا أدع من المنهج المقرر شيئا لا أحفظه ، والأحمق يجادل في هذه اللجنة ، كيف يكون امتحانها ، هل تتولاه كلها أم أفراد منها ، وهل عددها (شفع) أم (وتر) ، وهل تجيء بالسيارة أم بالطيارة، ولا يزال في هذا وشبهه حتى يأتي يوم الامتحان ، وهو لم يُعِدّ له شيئا .

إن الله لا يسألنا يوم القيامة عن شيء مما بنى عليه المتكلمون جدالهم ، وأقاموا عليه مختلف مذاهبهم ، وملؤوا به كتبهم . ولو كان ذلك من شروط الإيمان ، لبحث فيه رسول الله ﷺ وأصحابه ، فلنتركه كله ، فإنه أثر من آثار الفلسفة اليونانية القديمة التي دالت دولتها ، وبطلت أكثر نظرياتها ، ووهت أدلتها ، وحل محلها في مسائل (الميتافزيك) ما وراء المادة ، فلسفة جديدة ، لا تقل عنها ضلالا وتخبطا في مهامه الظنون ، فلنجعل كتاب الله إمامنا ، وليكن عليه اعتمادنا ، وما كان فيه من ذكر لأمور مغيبة لم يعرض إلا إلى جزء منها ، آمنا بما جاء فيه ، وفوضنا ما خفي عنا إلى من أنزله علينا .



مَظاهِر الإيمَان

التلميذ الذي يؤمن بأن الامتحان قريب ، لم يبق دونه إلا أسبوع ، ثم لا يستعد له ، ولا يهتم به ، بل يشتغل عنه باللهو واللعب ، لايكون كامل الإيمان بقرب الامتحان ، والتائه الذي ترشده إلى الطريق الموصل ، فيصدقك ويؤمن بكلامك ، ثم يمشي إلى الشمال بدلاً من اليمين ، لا يكون تام الإيمان بصدق المرشد . فالإيمان الكامل تبدو آثاره فى أعمال المؤمن ، وفي سلوكه .

الإيمان والعمل :

فالإيمان لا ينفك عن العمل ، لأن العمل نتيجة له ، وثمرة من ثمراته ، وهو مظهره الذي يظهر به للناس . ولذلك قرن الله الإيمان بالعمل الصالح ..

﴿ إنّما المؤمِنُونَ الّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وجلَتْ قُلوبُهُمْ ، وإذا تُليَتْ عَلَيْهِم آيَاتُه زَادَتْهم إيمَاناً ، وعلى رَبِّهم يَتَوَكَّلونَ ، الَّذينَ يُقِيمُون الصّلاةَ ومما رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقونَ ، أولئِكَ هُمُ المؤمِنونَ حَقّاً ... ﴾ ﴿ إنّما المؤمِنونَ الّذينَ آمَنوا باللهِ وَرَسُوله ، وإذا كانوا مَعَه على أمْرٍ جَامعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّى يَسْتَأْذنوهُ ... ﴾ ﴿ قَدْ أفْلَحَ المؤمِنونَ الّذينَ هُمْ في صَلاتِهمْ خَاشِعُون ، والّذينَ هُمْ عنِ اللّغوِ مُعْرِضُونَ ، والذين هُمْ للزّكَاةِ فَاعِلونَ ، والّذينَ هُمْ لِفروجِهمْ حَافِظونَ ، إلاّ على أزْواجهمْ أو مَا مَلَكَتْ أيْمانُهُمْ فإنّهُمْ غَيْرُ مَلومِينَ ، فَمَنْ ابْتَغى وَراءَ ذَلِكَ فأولئِكَ هُمُ العَادُونَ ، والّذينَ هُمْ لأمانَاتِهمْ وَعَهْدِهمْ راعُونَ ، والّذينَ هُمْ على صَلَوَاتِهِمْ يُحافِظُونَ ... ﴾ ﴿ لَيْسَ البِرَّ أنْ تُولّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المشْرِقِ والمغْرِبِ ، ولكنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ ، والملائِكَةِ والكِتَابِ والنّبِيِّينَ ، وآتَى المالَ على حُبِّهِ ذَوِي القُرْبَى واليَتَامى والمَساكِينَ وابنَ السّبِيلِ والسّائِلِينَ وفي الرِّقَابِ ، وأقامَ الصّلاةَ وآتَى الزّكَاةَ ، والموفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذا عَاهَدُوا ، والصّابِرينَ في البَأْسَاءِ والضّرّاءِ وحِينَ البَأْسِ ... ﴾ .

الإيمان يزيد :

مِن العلماء مَنْ نظروا إلى الإيمان ، باعتباره عقيدة ، لا تقبل التجزئة ، فلا يكون المرء إلا واحداً من اثنين : مؤمناً ، أو كافراً ، ولا توسط بينهما ، فذهبوا إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص .

ولكن الجمهور نظر إليه ، مقروناً بالعمل الصالح ، فرأوه يزيد بازدياده ، وهذا هو الحق الذي وردت به النصوص القاطعة ، قال تعالى :
﴿ وإذا تُلِيتْ عليهمْ آياتُهُ ، زادتْهُمْ إيمانا ﴾ ﴿ فأما الذينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إيمانا ﴾ ﴿ وما زادَهُمْ إلا إيماناً وتَسْلِيما ﴾ .

ترك العمل لا يكفر :

والعلماء من أهل السنة متفقون على أن مجرد ارتكاب المحرم من غير إنكار لحرمته ، وترك الواجب من غير إنكار لوجوبه ، ولا استخفاف به ، يعرّض صاحبه لعذاب الآخرة لكنه لا يكفر صاحبه ، ولايخلده في النار .

وما ورد في الحديث ، من أن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن ، معناه أنه لا يكون ساعة الزنا ذاكراً أن الله مطلع عليه ، ولو ذكر ذلك لمنعه منه حياؤه من الله ، ولو أن فاسقاً أعد عدة الزنا ، وهَمَّ ، فرأى أباه يطل عليه ويراه ، هل يستطيع أن يمضي فيه ، أم يمنعه منه الحياء من أبيه ؟ فكيف لا يمنعه الحياء من الله ، وهو ذاكر أنه يراه ؟

ثمرات الإيمان

وثمراته هي هذه الأعمال القلبية ، التى لخصها رسول الله ﷺ ، في الحديث الصحيح ، بهذه الكلمة الجامعة المانعة ، التي تعدّ من جوامع الكلم ، ومن دلائل البيان النبوي ، الذي لا يدانيه ولا يقاربه بيان بشري ، هي قوله في تعريف الإحسان : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

الذكر :

وأول هذه الثمرات الذكر ، ولقد قرأت عن أحد الصالحين (ونسيت[44] اسمه) ، أن ابتداء أمره أنه كان له خال متعبد ، وكان يلازمه ، فقال له : « يا خالي ماذا أعمل لأكون مثلك » . فقال له خاله : قل كل يوم ثلاث مرات (إن الله ناظر إليّ ، إن الله مطلع عليّ) . فقالها ، واستمر عليها أسبوعاً ، فأمره أن يقولها ثلاث مرات في عقب كل صلاة ، فقالها ، وتركه أسبوعاً ، وأمره أن يقولها بقلبه بدلاً من أن يحرك بها لسانه ، فتعود بذلك على أن يكون دائماً ذاكراً مراقباً .

وما أمر الله بشيء في القرآن ما أمر بالذكر ، ولا أثنى على أحد ما أثنى على الذاكرين . والذكر في لسان العرب الذي نزل به القرآن ذكران : ذكر القلب ، وذكر اللسان ، وكلاهما ورد في القرآن . فمن ذكر القلب قوله :

﴿ إِنِّي نَسِيتُ الحُوتَ ، وما أَنْسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ .

أي : أن أتذكره ويخطر على بالي . ومنه :

﴿ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وعَلَى وَالِدَتِكَ ﴾ ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ﴾ .

ومن ذكر اللسان قوله :

﴿ واذْكُرْ في الكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ ﴿ واذْكُرْ في الكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ ﴿ اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ ﴾ ﴿ واذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ ﴾ .

فإذا أردت أن تتحقق لك صفة الذاكر ، فتذكر بقلبك[45] (أي :

---

(٤٤) وليس تحت يدي وأنا أكتب هذا الكتاب ، شيء من المراجع لأرجع إليه في تذكر مانسيت ، ما عندي إلا كتاب الله وكفى به مرجعاً .

الرجل الصالح هو : سهل بن عبد الله التستري .

(٤٥) وليس المراد القلب المادي الذى يضخ الدم لأنحاء الجسم ، بل المراد مكان الفكر والمشاعر من الإنسان .

بعقلك) وأنت وحدك ، وأنت في الملأ ، وأنت في السوق ، وأنت في الطريق . وتذكر في كل وقت ، وعلى كل حال ، أن الله يراك ، فلا تعمل إلا ما يرضيه ، فإن أديت واجبا فاذكر أنك تؤديه امتثالاً لأمره ، وإن تركت محرماً فاتباعاً لنهيه ، وإن عملت مباحاً فاقصد به وجهاً تستحق به الثواب ، وإن عرض لك طريقان ، فاختر منهما ما يدنيك من الجنة ويباعدك عن النار ، وإن نسيت فأذنبت ذنباً ، ثم تذكرت فتب منه ، واطلب العفو عنه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ ، تَذَكَّروا فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ .

واذكر بلسانك ، فإن أفضل الذكر ذكر اللسان مع حضور القلب ، فإن كان الفكر غائباً لا يعي ما يقول اللسان ، كان ذكره كلاماً بلا معنى ، كذكر بياع الكعك في الشام ينادى : (الله كريم) ، لايقصد ذكر الله ، ولكن بيع الكعك ، وذكر بياع الخس ينادي : (الله الدايم) . وربما كان ذكر اللسان معصية ، كمن يسمّي الله على شرب الخمر ، ومن يذكر الله في أغاني الفسوق التي تغنيها المغنيات ، فإن قصد بذلك الهزء ، أو دلت عليه دلالة ظاهرة ، كان ذكره هذا كفراً . وأفضل الذكر تلاوة القرآن ، إلا في المواضع التي عيّن لها الشارع ذكراً خاصاً ، كالتسبيح في الركوع والسجود مثلاً . والذكر المأثور عن رسول الله ﷺ .

وأما ما يسمى في أيامنا بحفلات الذكر ، وكان يعرف عند علمائنا بالرقص لما فيه من القيام والركوع ، والانحناء والاستواء ، بحركات موزونة ، ونغمات معروفة ، ولا ينطق فيه بتهليل ولا تحميد ، بل بأصوات مبهمة مثل : (آه) و (أح) ، ففي حاشية ابن عابدين[٤٦] (وهي عمدة المذهب الحنفي) أنه حرام ، إلا إذا فعله مغلوباً على أمره ، غائباً عن حسه ، لم يتعمده ولكن حملته عليه سيطرة العاطفة ، وفرط الوجد ، فإن استحله قد يحكم بكفره .

---

(٤٦) الجزء الثالث ــ صفحة (٣٠٧) من الطبعة الأميرية .

بين الخوف والرجاء :

وأن يكون المؤمن بين الخوف من عقاب الله ، والرجاء لعفوه ، يذكر أن الله سريع الحساب وأنه شديد العقاب ، فيغلب عليه الخوف ، ويذكر أنه عفو رحيم ، وأنه أرحم الراحمين ، فيغلب عليه الرجاء ، فإن ملأ قلبه الخوف وحده . يكون قد يئس من رحمة الله :

﴿ إنَّه لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إلا القَوْمُ الكَافِرُونَ ﴾ .

وإن ملأ قلبه الرجاء وحده ، يكون قد أمن مكر الله .

﴿ فلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إلا القَوْمُ الخاسِرُونَ ﴾ .

وقد قدمنا الكلام بأن الخالق لا يشبه المخلوق ، والخوف منه ليس كالخوف من مخلوقاته ، فأنت تخاف من الأسد الذي يواجهك كاشراً عن أنيابه ، مالئاً الجو بزئيره ، وأنت وحدك أمامه أعزل بلا سلاح ، ولكن خوف الله ليس كخوف الأسد ، لأن الأسد يمكن درء خطره عنك ، ولو أرادك به ، والله رب الأسد وخالقه ، لايمكن دفع قضائه إذا كتبه عليك .

وأنت تخاف السيل الهدار ، يكاد يصل إليك وأنت في مجراه ، لا قوة لك على دفعه ، ولكنه ليس كخوف الله الذي أجراه ، والذي يوقفه ويجففه إذا شاء ويرده إذا أراد ، والسيل يمكن الفرار منه ، والابتعاد عنه ، وعذاب الله إذا وقع ، ما منه مفر . وأنت تخاف الأمراض والآفات ، وفقد الأحباب ، وذهاب المال ، ولكن ذلك ليس كخوف الله ، الذي بيده الأمر كله ، إن شاء ابتلاك به ، وإن شاء عافاك منه ، وما في الوجود شيء يعافيك بما يبتليك به الله .

فالمؤمن ينبغي أن يكون بين الخوف والرجاء ، إذا وقف في الصلاة فقال :

﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

استشعر الرجاء ، وإن قال :

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ .

أحس الخوف . وأكثر المسلمين اليوم ، غلّبوا الرجاء على الخوف ، والأمل بالعفو ، على توقي العقاب .

على أن المسلم إذا أتى الفرائض ، واجتنب المحرمات يكون من الخائفين المتقين ، لكنه يخسر الدرجات العالية في الجنة ، فهو كالتلميذ الذي يحصل أقل درجات النجاح ، لا يرسب في فصله ، ولكن لا ينال تقديراً ولا مكافأة ، ويكون نجاحه (وسطاً) ، لا (جيداً) ، ولا (ممتازاً) .

التوكل :

قال الله تعالى :
﴿ إنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ باللهِ فَعَلَيْهِ تَوكَّلُوا ﴾ .
وقال :
﴿ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوكِّلِينَ ﴾ .

فما هو التوكل ؟ وما حقيقته ؟ لقد تقدم القول بأن الله جعل فيما خلق من الأشياء النافع والضار ، وجعل من سنن الكون ما هو سبب للنفع ، وما هو سبب للضرر ، فهل التوكل على الله ترك الأسباب ؟

لقد كان في المتصوّفة من يرى التوكل في ترك السبب ، لا يعمل لتحصيل الرزق ، وينتظر أن يصل إليه رزقه بلا عمل ، ويدع مريضه بلا تطبيب ، ويرجو أن يناله الشفاء بلا دواء ، ويسلك الصحراء بلا زاد ، ويأمل أن يجيئه زاده من غير تعب ، ويدع طلب العلم ، ويعتقد أن العلم يأتيه بلا طلب[٤٧] ، وهذا مخالف للشرع ، فالشرع يقول :
﴿ فانْتَشِرُوا في الأَرْضِ وابْتَغُوا منْ فَضْلِ اللهِ ﴾ .

---

(٤٧) واحتجوا خطأ بقوله : ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾ مع أنها جملة من آية ، من قرأها كلها أدرك أنها لا تؤدي هذا المعنى ، ولو فرض أنه يحتج بهذه الجملة وحدها ، وأن العلم يكون بالتقوى بلا تعلم ، فإنه يرد عليهم أن التقوى إنما تكون بفعل المأمور به شرعاً ، ومن المأمور به طلب العلم ، فمن لم يعمل بهذا الأمر لا يكون تقياً .

ويقول : « ياعباد الله تداووا » ، ويقول : « وتزودوا » ، ويقول : « طلب العلم فريضة » فمن ترك طلب العلم وزعم أنه يأتيه فقد خالف الشرع والطبع .

ومن الأجانب الذين يعيشون بالمادة وحدها ، وللمادة وحدها ، من يعتقد أن الأسباب هي التي تصنع المسببات ، وأن الدواء يشفي بذاته ، والسعي هو الذي يوصل وحده إلى النجاح ، وهذا مخالف للواقع ، فإنه قد يوجد السبب ولا يوجد المسبب ، قد يحصل التداوي ولا يكون الشفاء ، وقد يكون في المستشفى مريضان في غرفة واحدة ، المرض لديهما واحد ، والطبيب واحد ، والدواء واحد ، فيموت الأول ، ويبرأ الثاني ، وقد يحرث الفلاح الأرض بأحدث الآلات ، ويلقي فيها بأحسن البذور ، ويضع لها أغلى السماد ، فيأتي البرد الشديد ، أو الحر الشديد ، أو الجفاف المحرق ، أو السيل الجارف فتذهب هذه الأسباب كلها هدراً .

فلا الأسباب وحدها توجد المسبب حتماً ، ولا إهمالها يجوز عقلاً ، بل الذي يدعو إليه العقل ، ويأمر به الشرع ، هو أن يتخذ المرء الأسباب كلها ، ثم يسأل الله تحقيق النتائج ، قيد الناقة وتوكل على الله في حفظها ، واقرأ دروسك كلها وتوكل على الله ، واسأله النجاح في الامتحان .

هذا هو التوكل الحقيقي ، ليس التوكل فى إهمال الأسباب ، وتعطيل سنن الله في الكون ، ولا في نسيان أن الله هو النافع الضار ، وابتغاء النفع (حقيقة) من سواه .

الأسباب لا بد منها ، وفي اتخاذها إطاعة لأمر الشرع ، واتباع لسنن الله في الوجود . ولكن الأسباب وحدها لاتكفي ، لأن النتائج بيد الله ، فالمتوكل على الله حقاً ، من يبذل للوصول إلى المطلوب كل جهد ، ويتخذ إليه كل وسيلة مشروعة ، ويعتقد أن الموصل هو الله ، فيتوكل عليه ، ويطلب منه ما يريد .

الشكر :

ويكون بعد ذلك راضياً عن الله ، مهما منعه أو أعطاه ، فيتحقق بصفة الشكر .

﴿ ومَنْ شَكَرَ فإنَّما يَشْكُرُ لنفسه ﴾ ﴿ وسَيَجْزي اللهُ الشَّاكِرينَ ﴾ .

والشكر من ثمرات الإيمان ، وإذا أحسن إليك عبد من عباد الله فلم تشكره ، كنت مقصراً عنه ، مسيئاً إليه ، مع أنه واسطة ، والمحسن الحقيقي هو الله ؛ فكيف لا تشكر الله ، والله هو الذي أنعم عليك بنعمة السمع والبصر ، والصحة والأمن ، وسخر لك ما في الأرض ، وأعطاك من النعم ما لا تستطيع عده ولا إحصاءه ؟ إن الإنسان لا يعرف قيمة النعمة إلا عند فقدها ، إن وجعه ضرسه رأى أعظم النعم في زوال الألم ، فإن زال عنه نسي هذه النعمة ، وإن احتاج يوماً إلى دينار ولم يجده عرف نعمة الغنى ، فإن هو استغنى نسيها ، وإن انقطع تيار الكهرباء ، وشمل الدار الظلام عرف نعمة النور ، فإن وجده لم يعد يدرك قدره .

فإذا كنت لاتستطيع أن تحصي نعم الله عليك ، أفلا تشكره عليها ؟ تشكر الله بلسانك بحمده والثناء عليه ، فتقول : (الحمد لله ... رب لك الحمد) ، وتشكر الله بعملك فتفيض من هذه النعم على من حرم منها ، وشكر الغني أن يعطي الفقير ، وشكر القوي أن يساعد الضعيف ، وشكر صاحب السلطان أن يقيم الحق ، ويسير بالعدل ، فإن كنت من ذوي اليسار ، وكان على مائدتك خمسة ألوان ، وكان جارك جوعان ، فلم تعطه شيئاً لم تكن من الشاكرين ، ولو قلت بلسانك ألف مرة : (الحمد لله) . وتشكر الله بقلبك فتكون راضياً عنه ، قانعاً بما قسم لك ، لا تسخط ولا تستقل النعم ، ولا تحسد أحداً على ما أعطاه الله .

فمن جمع شكر القلب بالرضا عن الله ، وشكر العمل بأن يفيض على

المحرومين من فضل[٤٨] النعم ، وشكر اللسان بأن يكثر من حمد الله ، كان من الشاكرين حقا .

الصبر :

والمسلم بين نعمتين ، إن أصابه خير فشكر كان له أجر ، وإن مسه ضر فصبر كان له أجر ، فلا يعدل أجر الغني الشاكر ، أو يزيد عليه ، إلا أجر الفقير الصابر .

﴿ ولَنَجْزِيَنَّ الذينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسنِ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ .

وهذه الحياة الدنيا ، ليست دار نعيم ، وليست تخلو من المكدرات ، من انحراف الصحة ، أو ضياع المال ، أو فقد الحبيب ، أو غدر الصديق ، أو ذهاب الأمن ، هذه طبيعتها التي لا تتغير ...

جبلت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقذار والأكدار
ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب في الماء جذوة نار

قال تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيءٍ مِنَ الخَوْفِ والجُوعِ ، وَنَقْصٍ مِن الأَمْوَالِ والأَنْفُسِ والثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ..﴾ .

لأنهم مع الأيام ينسون المصاب ، ويجدون الثواب ، وغيرهم يحمل الألم ، ولا ينال شيئاً .

مصاعب ومصائب لا بد منها ، فإما أن تداويها بالصبر فتنال الأجر ، وإما أن تثور عليها ، فتزيد ثورتك من عذابك ، ولا تدفع عنك ما بك . هذا هو النوع الأول من الصبر ، الصبر على المصائب .

والنوع الثاني : هو الصبر عن المعاصي ، صبر الشاب الذي يرى العورات البادية ونفسه تميل إليها . فيغض بصره من خوف الله عنها ، ويعرف

---

(٤٨) فضل النعم : ما يزيد منها ، و (الفضل) فى اللغة الزيادة .

سبيل اللذات المحرمة ، فيمنع نفسه عن سلوكها ، على رغبته فيها ، صبر الموظف الذي تعرض عليه الرشوة ، تعدل راتبه عن ستة أشهر ، فيكف يده عنها ، على حاجته إليها ، صبر التلميذ في الامتحان إذ يتمكن من سرقة الجواب من الكتاب ، فلا يقدم عليها ، وإن كان نجاحه منوطاً بها .

المعاصي لذيذة للنفس ، فإن امتنع عنها ، مع تمكنه منها ، كان مع الصابرين .

والثالث : الصبر على الطاعات ، على القيام لصلاة الفجر ، وترك لذة المنام ودفء الفراش ، في الغداة الباردة ، على احتمال الجوع والعطش في شهر الصيام ، في الصيف الملتهب . على إكراه النفس المحبة للمال ، على إخراج الزكاة ، وبذل الصدقة .

الصبر على التمسك بالدين في هذا الزمان الفاسد ، الذي عاد فيه الدين غريباً كما بدأ غريبا ، وصار القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر ، وصار المتدين فيه معرضاً لسخرية الناس ، وإيذاء الحكام ، ونقص المرتب ، والإخراج من الديار ، فمن احتمل ذلك وحده قاصداً ثوابه ، كان من :

﴿ الَّذينَ صَبَرُوا وعلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ ﴿ أولئِكَ يُؤْتَوْنَ أجْرَهُم مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ ﴿ وما يُلَقَّاهَا إلا الَّذِينَ صَبَرُوا ، وما يُلقَّاهَا إلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ .. ﴾ .

الانقياد لحكم الشرع :

قلنا بأن الإيمان عمل من أعمال القلب ، سر من الأسرار التى لا يعلم بها إلا الله ، وإنما للناس الظواهر ، لذلك ميزنا المؤمن من غير المؤمن بمقاله وأعماله . فالإسلام هو مظهر الإيمان ، والإسلام في اللغة هو التسليم : (أسلم) و (سلم) بمعنى واحد ، فالولد يستسلم لأبيه ثقة به والمحب يستسلم لمحبوبه ميلاً إليه ، والمهزوم يستسلم لمن هزمه خوفاً منه . أما المؤمن فيسلم لحكم ربه استسلاماً مطلقاً ، يطيع له كل أمر ، ولو لم يعرف الحكمة منه ، ووجه المنفعة فيه ، ويدع كل ماينهى عنه ، ولو لم يدرك سر نهيه عنه ،

وهذا الاستسلام له جانبان : جانب عملي ، هو الامتثال بالقول والعمل ، وسيأتي الكلام عنه إن شاء الله ، في الجزء المخصص للإسلام من هذا الكتاب ، وجانب نفسي هو الذي نبحث عنه الآن ، ونحن نتكلم عن الإيمان .

هذا الجانب هو الرضا القلبي بحكم الشرع ، واطمئنان النفس إليه ، وأن نعمل الواجب أو نترك الحرام عن اقتناع ، ليس في قلوبنا تبرم به ، ولا سخط عليه ، قال تعالى :

﴿ فلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فيما شَجَرَ بَيْنَهم ﴾ .

وهذا هو الجانب العملي .

﴿ ثُمَّ لا يَجِدُوا في أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مما قَضَيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ .

وهذا هو الجانب النفسي ، فلا يكفي مجرد الاحتكام إلى الرسول ، إذا لم يكن في قلوبنا اعتقاد صحة هذا الحكم ، والرضا به ، والاطمئنان إليه .

﴿ إنَّما كانَ قَوْلَ المؤمِنينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا (بألسنتهم مقرين معترفين بقلوبهم) سَمِعْنَا وأَطَعْنَا ، وأُولئِكَ هُمْ المُفْلِحُونَ .. ﴾ .

ومن الناس من يسأل دائماً عن حكمة الشرع في كل أمر ونهي ، كأنهم لا يطيعون إلا إذا عرفوا الحكمة ، وللشرع حكمة لا شك فيها ، ولكنها قد تبدو لنا ، بالنص أو بالاستنباط ، وقد تخفى علينا ، أفنعصي ربنا إذا لم تظهر حكمة شرعه لنا ؟! .

تصور : أنك كلما أمرت ولدك بأمر لم ينفذه ، حتى تبين له مقصدك منه ، وحكمتك فيه ، ولو كان الموقف ضيقاً لا يتسع للبيان ، ولو كان في الأمر سر لا يجوز معه الإعلان ! ألا تعد هذا الولد عاصياً لك ؟ أولا تنتظر منه أن يطيعك على أي حال ، لأنه ولدك ولأنك أبوه ؟ ولو أن ضابطاً تلقى أمر القيادة فأبى أن ينفذه حتى تشرح له خطتها التى أوحت به ، وغايتها من إصداره، ألا يستحق العقاب ؟

إن حق الله على العبد لا يقاس بحق الوالد على الولد ، ولا بحق القائد على الجند ، ومن حقه تعالى علينا أن نطيع في المنشط والمكره ، والموافق لنا والمخالف لرغبتنا ، لا أن نتمحل الأدلة ، و نتعسف النظر ، لنجد قولاً في الفقه يرضي أهواءنا ؟ ولا أن نجعل من الحضارة الأجنبية ، وأعرافها التي أخذنا بها حجة على الشرع ، فنؤول ما لا يؤول من النصوص ، ونتنكب الطريق المستقيم في البحث لنقول إن ديننا لا ينافي هذه الأعراف ، ثم إذا تبدلت أعراف[٤٩] المجتمع ، أو تحول مورد هذه الحضارة الأجنبية من الغرب إلى الشرق ، بدلنا بحثنا ، وجئنا بتأويل جديد .

لا ، بل الاحتكام إلى الشرع ، والعمل بحكمه ، والرضا به ، والاطمئنان إليه ، هذا هو شأن المؤمنين المصدقين حقا بصحة هذا الدين .

شدة ولين :

ومن مظاهر الإيمان ودلائله ، أن يكون الحب في الله والبغض في الله ، نحب المطيع التقي ولو لم يكن لنا منه نفع ، ونبغض الكافر الفاجر ولو لم ينلنا منه ضرر ، بل إننا نبغضه ونهجره ولو كان مفيدا لنا ، ولو كانت تربطنا به أوثق الروابط . ذلك لأن أخوة الدين أقوى عند المؤمن من أخوة الدم ، وصلة العقيدة أوثق من صلة النسب . ولقد بين الله لنوح أن ابنه الكافر ليس من أهله ؛ لأنه عمل غير صالح ، ونفى أن تكون بين المؤمنين وبين المعاندين الذين يحاربون الدين مودة ، و(تعايش سلمي) ، مهما كانت قوة الصلات بين الفريقين . فقال :

﴿ لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنونَ بِاللهِ واليَـوْمِ الآخِر ، يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾

لا يكرههم على الإسلام إكراها ، بل يمنعهم أن يعترضوا سبيله ،

---

(٤٩) من هذا التبدل أن نقول يوماً (ديموقراطية الإسلام) ، ونقول في يوم آخر (اشتراكية الإسلام) . وبذلك ندور كلما دارت الأيام ، ونساير هوى الحكام .

ويحاربوا دعوته ، فإن اطمأنوا لدعوتنا ودخلوا في ديننا صاروا منا لهم ما لنا وعليهم ما علينا ، وإن سالموا دعوتنا ، سالمناهم وحفظنا لهم حقوقهم وإن بقوا على دينهم .

فالمؤمن يحب إذا أحب للدين ، ويبغض إذا أبغض للدين . فإذا أحب تجلى فيه كرم النفس ورقة الطبع ، وبدا منه التسامح والبذل ، يذل لأخيه ولا يرى ذلك ذلا ، ويؤثره على نفسه بالشيء ولو كانت به حاجة إليه . وإذا أبغض ظهر منه الغضب لله ، والشدة في الدفاع عن دينه ، والبأس في قتال أعدائه ، فهو يجمع بين اللين والشدة ، والرقة والغلظة . اللين والرقة لإخوانه في الإيمان ، والشدة والغلظة على أعداء الدين أنصار الشيطان .
﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، والذينَ مَعَهُ أشِدَّاءُ على الكُفَّارِ ، رُحَماءُ بَيْنَهُمْ . ﴾
﴿ ذلةٍ على المؤمِنِينَ ، أعِزَّةٍ على الكافِرِينَ ، يُجَاهِدُونَ في سَبِيلِ اللهِ ، ولا يَخَافونَ لَوْمَةَ لائِمٍ (٥٠) .. ﴾.

هذه حال المؤمنين ، لما كانوا من المجاهدين ، فلما تركنا الجهاد ، وخالفنا الشرع ، وصارت شدتنا على أنفسنا ، ولِيننا أمام أعدائنا ، سلط الله علينا بذنوبنا من لا يخافه ولا يرحمنا ، فملك بلادنا ، وتحكم فينا .

التوبة والاستغفار :

خلق الله الإنسان وغرز في نفسه حب العاجلة ، وطول الأمل ، والرغبة في جمع المال ، والشهوة لمقاربة النساء ، والغضب ، والميل إلى البطش والانتقام ، وسلط عليه الشيطان يزين له الفواحش ، ويحبب إليه المعاصي ، ووضع فيه نفسا أمارة بالسوء ، متشهية للحرام ، تعين عليه الشيطان ، فكان من نتائج ذلك أنه يأتي المعاصي ، ويرتكب الذنوب ، فماذا يصنع لينجو من عقاب المعصية وتبعات الذنب ؟ إن الله من رحمته به فتح له باب التوبة .

---

(٥٠) وإلى جانب هذا الجهاد لاينسون قوله تعالى : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم ، أن تبروهم ، وتقسطوا إليهم » .

قال له : إنك تستطيع أن تمحو من صحيفتك كل ذنب عملته ، فكأنه ما كان ، بل (ربما) سجلت لك حسنة ، مكان السيئة التى كانت عليك ، كدفتر التاجر يكون مقيدا فيه أن له عليك مئة دينار ، فلا يكتفي بأن يسامحك بها ويمحوها لك ، بل ينقل قيدها من صفحة الدين الذي عليك ، إلى صفحة الدين الذي لك . قال تعالى :

﴿ إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وعَمِل عملاً صَالحاً ، فأُولـٰئِك يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ ، وَكَانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ .

وباب التوبة مفتوح ، مادام المرء صحيحا معافى ، فإن تاب التوبة الصادقة قبلت توبته ، ولا يغلق إلا ساعة الاحتضار ، الساعة التي تصير فيها الروح في الحلقوم . الساعة التى يواجه فيها الإنسان الحقيقة ، ويرى عياناً ما جاءه به الرسول خبراً ، فتكون توبته حينئذ من قبيل تحصيل الحاصل ، لأن التوبة هي الرجوع الاختياري إلى الله ، وقد أرجع كرها وجبرا ، فلم يعد ينفعه الإقرار ، بعد أن فقد الاختيار. قال تعالى :

﴿ إِنَّما التَّوْبَةُ على الله للذينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بجَهَالةٍ ، ثمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيْبٍ ، فأولئِكَ يَتوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ ، وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حكيماً . وَلَيْسَتِ التَّوَبَةُ للَّذِينَ يَعْمَلُونَ السّيئاتِ ، حَتَّى إِذَا حَضرَ أَحَدَهُمُ الموْتُ ، قَالَ : إِنِّي تُبْتُ الآنَ ، ولا الَّذِينَ يَموتونَ وَهُمْ كفَّارٌ .. ﴾ .

وأول شروط التوبة الانقطاع عن الإساءة ، والعزم علىأن لأيعود إليها . ولو كنت ماشيا في الطريق ، ففتح رجل نافذته ، وألقى عليك ماء وسخا ، فلما لمته وشتمته ، اعتذر إليك ، وهو مستمر بصب الماء عليك ، أو امتنع عنه ، ولكنه أوعدك بالعودة إلى مثله غدا ، فهل تقبل اعتذاره ؟

إن للتوبة روحا وجسدا ، فروحها استشعار قبح المعصية ، وجسدها الامتناع عنها ، كمن يمشي على طريق ، فيرى لوحة تدله على أنه غير طريقه المقصود . إنه يشعر بخطئه ، وهذا الشعور هو الأصل ، إذ لولا معرفة الخطأ ما

كانت الهداية إلى الصواب ،ولكنه إذا اقتصر على هذه المعرفة ، ولم يعمل بمقتضاها ، واستمر ماشيا في الطريق المنحرف لم ينفعه علمه بانحرافه ، بل إنه يكون أكبر ذنبا ، وأعظم تبعة ، لأن الذي ينحرف وهو لا يعرف ، له بعض العذر ، ولكن الذي يعرف الطريق ، وينحرف عنه عمدا ، لا عذر له (٥١).

والشرط الثاني : أن يجعل الإحسان بدل الإساءة ، والإصلاح مكان الإفساد ، أي أن يحقق التوبة ، بتبديل العمل ، وتعديل السلوك .

﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ، أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وأَصْلَحَ ، فأَنَّه غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾﴿فمنْ تابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمه وأَصْلَحَ ، فإنَّ اللّٰه يَتُوبُ عَلَيْه ﴾ ﴿ إلا الذينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذلِكَ وأَصْلَحوا ﴾ ﴿ إلا الذِيْنَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وَبَيّنُوا ، فأُولئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهم . . ﴾ .

ومن الإصلاح أن يكون تركك الذنب حقيقيا ، وأن تعزم عزما صادقا على ألاّ تعود إليه . فإن عقدت على ذلك العزم الصادق ، ثم غلبتك النفس ، أو حملتك الظروف ، فعدت إليه ، ثم تبت قبلت توبتك ، ولو تكررت العودة وتعددت التوبة . أما إن خالط عزمك تردد من الأصل ، وقلت في نفسك : إذا اشتدت رغبتي رجعت ثم تبت لا تكون توبتك صادقة ولا مقبولة .

هذا في التوبة من حقوق الله ، إنه يكفي فيها أن تترك الذنب نادما على فعله ، عازما عزم الصدق على عدم العودة إليه . أما حقوق الناس : إن كنت ظلمت أحدا ، أو أكلت ماله ، أو آذيته في جسده أو في عرضه ، أو شهدت عليه زورا ، أو اغتبته أو وشيت به ، أو أشعت عنه قالة السوء ، فلابد في ذلك وأمثاله ، من أن تؤدي إليه حقه ، أو ينزل لك عنه ويسامحك به ، أو يرحمك الله فيرضيه عنك . وإلا لم تقبل توبتك ، وأخذ المظلوم يوم القيامة من حسناتك ، أو حمل عليك من سيئاته .

---

(٥١) الأول ضال ولكن الثاني مغضوب عليه . واليهود من (المغضوب عليهم) ، لأنهم عرفوا الحق وخالفوه ﴿ فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ﴾ .

وباب التوبة مفتوح مهما كثرت الذنوب ، فلا ييأس أحد من عفو الله ، فإن اليأس من عفو الله أكبر من كل ذنب .

﴿ قُلْ ياعِبَادي الَّذينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِمْ ، لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله ، إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ .

فالتوبة هي ترك للسيىء و (رجوع) إلى الحسن ، أما الاستغفار فهو طلب الغفران من الله ، وقد أمر الشرع به ، وحث عليه .

﴿ هُوَ أنْشَأكُمْ مِنَ الأرْضِ ، واسْتَعْمَرَكُمْ فِيها فاسْتَغْفِروهُ ، ثمَّ تُوبُوا إليْه ﴾ ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إليه إنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾ . وَياقَومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثم توبوا إلَيْهِ ﴾ .

وجاء مثل ذلك على لسان كل رسول ، ينصح به قومه ، ويدلهم به على طريق العفو من الله ، والنجاة من عذابه .

والمذنبون على درجات : أما الذين ماتوا على كفرهم فلا أمل لهم في المغفرة .

﴿ إنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ .

والمشركون في الأصل أشد كفرا من أهل الكتاب ، ولكن الجميع في حكم هذه الآية سواء ، فلا يقال لمن مات كافرا (رحمه الله) ، ولا (غفر الله له) ، ولا يقال له (المرحوم أو المغفور له فلان) . وأما العصاة من المسلمين ، الذين ماتوا بلا توبة فأمرهم إلى الله ، إن شاء غفر لهم .

﴿ ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلكَ لمنْ يَشاءُ ﴾

وإن شاء عذبهم بالنار ، لكنهم لا يخلدون فيها . ولا يستهن أحد بعذاب النار ، ولا يستخِفّه ، فإن نار الدنيا وهي نعمة ، لا يطيق أحد احتمالها دقائق ، فكيف نعرض أنفسنا لعذاب جهنم دهورا ؟

وأما التائبون فيتوب الله عليهم بمنه وكرمه ، هذا الذي يتوب من بعد الذنب ، أما الذي يتوب منه ، ويتنبه لنفسه ويدركه خوف ربه ، قبل إتمام الذنب ، ويتركه لله مع شدة الرغبة فيه ، وعظم الميل إليه ، فله أعظم الثواب ،

كمن يستزله الشيطان ، فيدفعه إلى الزنا ، حتى إذا تمت له أسبابه ، وشرع به أو هَمَّ ، فذكر الله ، فأعرض عنه وشهوته متعلقة به ، ونفسه راغبة فيه ، وأين من يقدر على ذلك إلا إن أمده الله بقوة منه ؟ فلا يجرب هذه التجربة أحد ، فإنه يكون كمن يتناول جراثيم المرض الخطر ، إن نجا منه اكتسب مناعة تجعله أقوى ممن لم يدن منه المرض ، ولكن احتمال حصول المناعة من المرض واحد في المئة ، واحتمال الهلاك به تسعة وتسعون ، هذا في مرض الجسد ، أما الكف عن الذنب ، فإنه لا يكسبه مناعة من العودة إليه ، فمن أراد السلامة من الشر فليبتعد عنه ، وليقطع أسبابه ، وليسد الطريق إليه ، ويهجر من الناس من يرغبه فيه ، ويدعوه إليه . فإن الصاحب ساحب ، والمرء على مذهب خليله ، وقديما قالوا : « قل لي من ترافق ، أقل لك من تكون » .

فلينتبه لذلك الناشئون ، ويطلبوا من الله العون .





الإيمَان باليَوم الآخِر

نحن والموت :

نحن والموت على أصناف أربعة ، صنف يهتف مع الشاعر الأحمق :

مامضى فات والمؤمَّل غيبٌ ولك الساعة التي أنت فيها !!

لا يفكر في ماض ، ولا يعد لمقبل . يظن الأمس[٥٢] قد فني ، والغد لا يأتي ، يقول : (ما مضى مات) ، ولا والله ما فات ، ولكن قيد علينا حسنه وسيئه ، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . و (المؤمل غيب) ، ولكنه غيب عن الحس ، حاضر في النفس موجود عند الله ، آت لا شك فيه ، وهذا الصنف شر الثلاثة ، وهو الذي لا يذكر الموت ولا يفكر فيه .

وصنف يذكر الموت ، ولكن كذكر الشاعر الفارسي ، عمر الخيام الذي فتن بباطله الناس ، يقول : إذا كان الموت حقاً لاشك فيه ، وكانت الحياة قصيرة لا بقاء لها ، فلنملأها بالعشق والهيام ، وإذا كانت قد جبلت على المكاره والآلام ، فلنهرب منها إلى كأس المدام ، فنمضي العمر في شعر ... وسكر .. وعهر ...

وصنف يذكر الموت ، ولكن كذكر أبي العتاهية ، ملأ بذكر الموت بيانه ، وشغل به لسانه ، ولكنه لايذكر (إلا قليلا) ما بعد الموت . فكأنه يقول مع القائل : « رأيت الموت غاية كل حي » . والقائل الآخر : « إن تحت الرجام نوماً طويلاً » .

وأهل الحق الذين عرفوا أنه ليس غاية ولكنه البداية ، وما هو بنوم ولكنه

---

(٥٢) أمس إذا أتت (دون تعريف) تكون مبنية على الكسر ، فإذا عرفت بـ (ال) أعربت .

يقظة من النوم ، (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا) ، وعرفوا أن وراء الموت حياة أطول ، حياة لاتكاد تنتهي ، إما أن يكون فيها النعيم المقيم ، وإما أن يكون فيها العذاب الأليم . وهذا هو الصنف الرابع ، صنف المؤمنين المهتدين .

الحياة الأخرى :

هذه هي الحياة الحقيقية ، من أصيب بقصر النظر لم يرها ، ومن ابتلى بضعف العقل لم يصدق الخبر عنها ، ومن كان له بصر يرى ، وعقل يدرك ، رأى أن حياة الإنسان مراحل . فلقد كان يوماً منطوياً على نفسه ، مكوماً في بطن أمه ، يعيش بين أحشائها ، ولو كان يفكر يومئذ لظن أن هذه هي الحياة فهو يتمسك بها ، لا يخرج منها إلا مرغماً . ولو كان ينطق لحسب هذا الخروج موتاً ودفناً في الأعماق ، مع أنه (ولادة) ، وانتقال إلى عالم أرحب ، هو هذه الدنيا ، والذى نراه نحن موتا ، وخروجا من هذه الدنيا ، هو في الحقيقة ولادة ، وانتقال إلى عالم أرحب ، إلى عالم البرزخ ، البرزخ بين الدنيا المادية الفانية ، والحياة الأخرى الباقية . .

الاستعداد للموت :

الإنسان مغروز فيه طول الأمل ، فهو (غريزة) في نفسه ، لذلك كان الموت أقرب شيء في حواسنا منا ، وأبعد شيء في أفكارنا عنا . نرى مواكب الأموات تمر بنا كل يوم ، ونحس أننا باقون ، ونمشي في الجنائز ، ونحن نفكر في الدنيا أو نتحدث عنها ، ونرى القبور تملأ رحاب الأرض ، ولا نفكر أننا سنكون يوما من ساكنيها . أستغفر الله ، بل تسكنها أجسادنا ، وما الأجساد ؟ إن الرجل يتوسخ قميصه فيخلعه ويرميه ، والطفل يولد فيدع مشيمته ويخرج منها ، والرجل يموت فيفارق جسده ويتخلى عنه ، وما الجسد إلا قميص ، يلبس ويخلع ، وما يوضع في التراب إلا الجسد .

الإنسان ينسى الموت ، ولكن المؤمن يذكره دائما ، ويكون أبدا على استعداد لاستقباله ، يستعد بالتوبة والاستغفار ورد الحقوق ، كلما أصبح وكلما

أمسى حاسب نفسه ، فشكر الله على ما وفقه إليه من خير ، واستغفره مما وقع منه من شر ، يذكر الآخرة ، ويخاف يوما تتقلب فيه الوجوه والأبصار ، يخشى ما بعد الموت من العذاب ، ويرجو ما بعده من المكافأة ، ويستعين على ذلك بالصبر والصلاة ، وفعل الخير ابتغاء رضا الله ، واحتسابا لما عنده .

ساعة الموت من أدلة الإيمان

تأمل قوله تعالى ﴿ فلولا إذا بلغت ﴾ أي الروح ﴿ الحلقوم ﴾ ، وجاءت ساعة الموت التي لا مهرب منها ، ﴿ وأنتم حينئذ ﴾ تحفون بالمحتضر الحبيب إليكم ، العزيز عليكم ﴿ تنظرون ﴾ تظهرون العاطفة ، تستنجدون الطب ، تبذلون الجهد .

تعانقونه تحدبون عليه ﴿ ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون ﴾ : لأن حواسكم لا تدرك إلا عالم المادة ، وقد أوشك أن يدخل عالم ما وراءها ﴿ فلولا إن كنتم غير مدينين ﴾ ــ كما تزعمون ــ وغير خاضعين لرب الكون ومالكه ، وكان لكم شيء من الأمر ﴿ ترجعونها إن كنتم صادقين ﴾ تردون الروح إلى الجسد بعدما خرجت منه ، تسخرون لذلك عقولكم وعلومكم وأموالكم . فإن لم تستطيعوا ، فلم لا تقرون بأن لهذا الكون ربا ، مالكا لكم ، هو أحياكم وهو يميتكم وهو بعد ذلك يحييكم؟

شبهة تافهة :

قرأت لبعض الملحدين فصلا يسألون فيه ساخرين ، يقولون : « إذا كان يموت في لحظة واحدة ميت في أميركا وميت في الصين ، فكيف يقبض ملك الموت روحيهما ؟.. »

الجواب (أولا) : إن مثل الملك بالنسبة لأرضنا ، كمثل أحدنا لو انحنى على قربة فيها آلاف النمل ، أو كأس فيها ملايين الجراثيم ، بل إن الملك من الملائكة أكبر من ذلك بالنسبة إلينا ، وما كرتنا الأرضية في كفه إلا كحبة قمح في كف واحد من البشر .. هذه واحدة .

والثانية : إن لملك الموت أعوانا في قبض الأرواح ، قال تعالى :
﴿ حتى إذَا جَاءَ أحَدَهُمُ الموتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفرِّطُونَ ﴾

يوم القيامة :

الإيمان باليوم الآخر (يوم القيامة) الركن الثاني من أركان العقائد ، ولا يكاد يذكر الإيمان بالله في القرآن ، حتى يقرن به الإيمان باليوم الآخر .

والمؤمن يذكره دائما ، فيكثر من الخير ابتغاء ثوابه ، ويبتعد عن الشر ما استطاع خوف عذابه ، إذا عرض له محرم لذيذ ، ذكر ألم الآخرة على ارتكابه فصرف نفسه عنه ، وزهدها في لذته . وإن واجه واجبا صعبا ، ذكر ثواب الآخرة على فعله ، فحمل نفسه عليه ، ورغبها فيه ، تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، ينفقون في السراء والضراء ، يؤثرون على أنفسهم بالخير ولو كانوا أحوج إليه ، يفكرون في شدة عقاب الله ، فتوجل من سماع اسمه قلوبهم ، ثم يتذكرون رحمته فتلين قلوبهم به ، وتستريح إلى ذكره .

موعد الساعة :

لقد صرح القرآن ، بأنه لا يعلم موعدها أحد من الخلق ، لا يعلمه إلا الله وحده .
﴿ يَسْأَلُونَك عَنْ السَّاعَةِ قُلْ إنَّما عِلْمُهَا عِنْدَ ربِّي لا يُجَلِّيها لِوقْتِهَا إلا هُو .. ﴾
وأنها لا تأتي إلا بغتة ، وأن أمرها .
﴿ كَلَمْحِ البَصَرِ أوْ هُو أقْربُ ﴾

ولكن ورد في القرآن أنه يسبقها أحداث غريبة تقع في هذا الكون ، منها : أنه يخرج من الأرض دابة تكلم الناس ، وهذا خبر حق ، من الغيب الذي لا يدرك بالعقل البشري ، ولا نعلم عنه إلا ما أعلمنا الله به ، والله لم يبين لنا ما هي هذه الدابة ؟ وما صفتها ؟ فوجب الإيمان بها ، وترك الكلام فيها بلا دليل سمعي ثابت .

ومن ذلك : دك سد يأجوج ومأجوج ، وخروجهم منه . والله لم يبين من هم يأجوج ومأجوج ، وأي الأمم هم ، وما بلدهم ، وأين يقع السد ، فإن استطعنا تحديد ذلك بالبحث والاستقراء ، ووصلنا إلى نتيجة لا تخالف خبر القرآن ، قلنا بها ، وإلا صدقنا بخبر القرآن مجملاً ، ووقفنا عند حدوده ، قال تعالى :

﴿ واقْتَرَبَ الوَعْدُ الْحَقُّ فإذا هِي شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِين كَفَرُوا .. ﴾

وأمور أخرى ورد بها الحديث الصحيح (٥٣) ، ولم يصرح بذكرها القرآن ، منها : أنه يرفع العلم ، ويظهر الجهل ، ويشرب الخمر ، ويظهر الزنا ، ويقل الرجال ، ويكثر النساء ، وتندر الأمانة ، وتضطرب موازين المجتمع فيرتفع المنخفض ، وينزل العالي ، ثم يكون ظهور (الدجال) ، ونزول (عيسى) ناصراً لشريعة خاتم الرسل ، (محمد) صلى الله عليه وعلى إخوانه المرسلين .

ابتداء الساعة :

الذي يظهر من آيات الساعة في القرآن الكريم (٥٤) ، أن ابتداءها يكون بزلزال هائل ، لا يشبه ما عرف الناس من الزلازل ، يقع ــ والله أعلم ــ والحياة البشرية لا تزال مستمرة على الأرض ، والناس لا يزالون أحياء فى الدنيا ، فيصاب المجتمع البشري بفزع عام ، ورعب شامل ، يبلغ من شدته أن الأم تذهل عن رضيعها ، على ما ركب في طبعها من الحنو عليه ، والميل إليه ، والحوامل يسقطن من الرعب ما في بطونهن ، والناس يكادون يفقدون عقولهم

---

(٥٣) الأحاديث التى يرويها واحد عن واحد لا نستطيع أن نجزم بأن الرسول قد نطق بها كما نجزم بصحة نص القرآن ، لذلك نحكم بكفر من يكذب شيئاً من القرآن ، ولا نحكم بكفر من ينكر شيئاً من هذه الأحاديث .

(٥٤) فى الفصول الأولى من الكتاب : جعلت الكلام عاما للمسلم وغير المسلم ، واعتمدت فيه على أدلة العقل أكثر من أدلة النقل ، فلما وصلت إلى شعب الإيمان ، وصار الكلام موجها ــ على الغالب ــ للمؤمن ، جعلت الاعتماد على الأدلة السمعية ، وأكثرت الاستشهاد بالآيات .

الواعية ، فيغدون كأنهم سكارى .

﴿ وما هُمْ بِسُكَارى وَلكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَديدٌ ﴾

ومما يرجح القول بأن هذا الزلزال قبل القيامة قوله تعالى :

﴿ إذا زُلْزِلَت الأَرْضُ زِلْزَالَها وأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَها وقَال الإِنْسَانُ مَالَها ﴾ ؟

فالإنسان باق في الأرض ، يشهد الزلزال ، ويسأل عن أمره ، ويبحث أسبابه[٥٥] .

حوادث فلكية :

يوم القيامة ، وما يكون فيه ، وما يأتي بعده ، هو (كما تقدم القول) من الأمور الغيبية ، ليس للحواس إحاطة به ، كما تحيط بالمخلوقات المادية ، ولا للعقل البشري حكم عليه ، كما يحكم على الحوادث الدنيوية ، وعمله كله في فهم النصوص ، وإدراك معناها .

وفي القرآن نصوص صريحة ، تدل على أن كثيراً من السنن الكونية ، التي سميناها (اصطلاحا) قوانين الطبيعة ، تطرأ عليها تبديلات وتعديلات ، فكأن استمرارها منوط باستمرار هذه الحياة الدنيا ، فإذا انتهت مدتها انتهى أمد هذه القوانين .

وكأن العالم الذي تشاهده ، بأرضه وكواكبه ، على ما فيه من الإتقان العجيب ، بناء مؤقت ، أقيم لغرض محدود ولمدة محدودة .

من هذه الحوادث ، أن الجبال تصيبها رجفة أرضية هائلة ، تفتت صخورها حتى تصير الجبال كالقطن المنفوش ، ويغدو الجبل العظيم تلا متداعيا ، وكثيبا مهيلا . ثم تنسف نسفا ، فتسير كما تسير كثبان الرمل ، ثم

---

(٥٥) وقال قوم في ذلك : بل هو البعث لقوله تعالى : ﴿ وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ . والقولان محتملان . ولا أجزم .. بل أقول : « الله أعلم ... » .

تغدو سرابا ، وتصير الأرض كلها قاعا مستويا .

كل هذا خبّر به القرآن ، وخبّر أن البحار تتفجر مياهها ، ثم تتبخر . والكواكب ينتثر عقدها ، ويتبدل مسيرها . والقمر يجمع مع الشمس ، والسماء تكشط وتنشق وتنفطر ، ثم تطوى كما تطوى الرسائل في السجل الكبير ، ثم تكون النتيجة أن الأرض تبدل فكأنها غير الأرض ، وأن السماء تبدل فكأنها غير السماء ، وكل هذا خبر به القرآن .

النفخ في الصور :

لا نعرف ما هو (الصور) على حقيقته ، ولا (كيفية) النفخ فيه ، وكل ما يقال في وصفه وتفصيل أمره ، ما لم يكن مستندا إلى دليل سمعي صحيح ، لا يعوَّل عليه . والذي جاء في القرآن : أنه ينفخ فيه (فيفزع) من في السماوات ومن في الأرض ، وينفخ فيه (فيصعق) من في السماوات و من في الأرض . والظاهر من القول : أنهما نفختان ، وربما كانت — وهذا أرجح — نفخة الفزع هي نفخة الصعق ، فلا يبقى بعد ذلك من الأحياء أحد إلا مات ﴿إلا من شاء الله﴾ ، وتمضي مدة الله أعلم بمداها ، لم يخبرنا الله عنها ثم ينفخ نفخ البعث ، فتعود الحياة لكل ميت ، ويبعثون من قبورهم ﴿ ينظرون ﴾ ﴿ إلى ربهم ينسلون ﴾ .

البعث والحشر :

يبعث كل ميت على الحالة النفسية التى مات عليها ، يظن أنه لم يمر عليه إلا ساعة أو ساعات ، كالذي تصدمه سيارة وهو يشتري أو يبيع أو يتحدث ، فيغمى عليه ويغيب عن وعيه ثلاثة أيام ، فإذا صحا عاد يتم حديثه ، أو يكمل بيعه وشراءه ، لا يدري أنها مرت عليه ثلاثة أيام ، وكذلك يكون الناس يوم البعث ، لذلك علمنا الدين أن نسأل الله حسن الخاتمة .

وقد أقام الله للناس أمثلة على ذلك في الدنيا ، منها الذي مر على القرية الخالية الخاوية فقال :

﴿ أنّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْد مَوْتِهَا ؟ فَأماتَه الله مئة عام ، ثمَّ بَعَثَهُ ، قال : كَمْ لَبِثْتَ ؟ قال : لَبِثْتُ يَوْماً أو بَعْض يَوْمٍ ، قَالَ : بَلْ لبِثْتَ مِئَة عَامٍ ﴾ .

وأهل الكهف ، الذين ناموا ثلاثمئة وتسع سنين ، ثم قاموا يظنون أنهم ناموا ساعات ، وبعثوا يشترون بنقودهم التي ألغي التعامل بها ، وهم لا يدرون .

هذه حال الناس عند البعث ، يظن كل منهم أنه نام قليلاً واستيقظ ، يتناقشون فيما بينهم :

﴿ يُقْسِمُ المُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ . . . وقال الَّذين أُوتُوا العِلْمَ والإيمانَ : لَقَدْ لَبِثْتُمْ في كِتَابِ اللهِ إلى يَوْمِ البَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ البَعْثِ ، ولَكِنَّكم كُنْتُم لا تَعْلَمُونَ . . . ﴾

يظنون أنهم لا يزالون في الدنيا ، ولكن هول الموقف ،يقطع كل رابطة بينهم .

﴿ فلا أنْسابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ ﴾

يرى المرء صديقة الحميم فلا يسأل عنه ولا يهتم به . لايهتم أحد إلا بنفسه ، يهرب من أخيه وأمه وأبيه ، ومن زوجته وبنيه . بل إنه يضحى بهم ويقدمهم أفدية له ، لو كان يقبل منه الفداء ، ويتركون أمدا ــ الله أعلم بمدته ــ يموج بعضهم في بعض ، ثم يجمعون فيساقون إلى الحشر ..يساقون جميعا .

البشر كلهم ، من آدم إلى آخر واحد من ذريته ، من مات منهم على فراشه ، ومن غرق في البحر ، ومن أكله السبع ، ومن سقط من الطيارة ، ومن أحرق بالنار وذري رماده في الهواء ، يعيدهم الذي أوجدهم من العدم أول مرة ، ويجمعهم جميعاً ، ويساقون إلى أرض المحشر ، هم والجن والشياطين والوحوش .

﴿ مُهْطِعِين إلى الدَّاعِ يَقُول الكَافِرُون هذا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴾ .

ثم يأمر ربنا بجهنم فتبرز للناس من بعيد ، ويقول لهم :

﴿ ألمْ أعْهَدْ إلَيْكُمْ يابَنِي آدمَ أنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيطانَ ، إنَّـهُ لَكُمْ عَدُوٌّ

مُبينٌ ، وأن اعْبُدُوني هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ ، ولَقَدْ أضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاً كَثيراً أفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُون ؟ هذهِ جَهَنَّمُ الَّتي كُنْتُم تُوعَدُون ..﴾ .

ويأمر ربنا فيفرز المجرمون ويمتازون فيعرفون : فيتمنى كل منهم أنه لم يكن بشراً ، ويقول :

﴿ يالَيْتَنِي كُنْتُ تُرابًا ﴾ .

ثم يجمع الله الكافرين في جهنم ، مع الذين كانوا يعبدونهم من دون الله ، ويظنونهم آلهة من الجن والشياطين ، وما اخترعوا من أسماء ما لها حقائق ، وما أنزل الله بهامن سلطان ، زعموها آلهة ، كما فعل اليونان بما سموه (زيوس) و (أفروديت) . والرومان : (جوبتير) و (فينوس) . والفرس : (هرمز) و (أهرمان) . والمصريون : (حابي) . والفينيقيون (بعل) . و (اللات) و (العزى) عند العرب . زعموهم شركاء لله ، وزعم اليونان أو الرومان أن (أبولّون) إله الشمس والفنون . و (باخوس) إله الخمر ، و (ديانا) وهي نفسها (أرتيميس) إلهة الصيد ، و(مينرفا) إلهة الحكمة ، و (نبتون) إله البحر إلخ .. فيقول لهم :

﴿ نادُوا شُرَكَائِيَ الَّذين زعمْتُمْ . فَدعَوْهُمْ فَلمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾

فقال لهم ربنا :

﴿ مالَكمْ لاَ تَناصَرُونَ ؟! ﴾ .

وينظر الضعفاء إلى المستكبرين ، الذين جعلوا أنفسهم في الدنيا (زعماء) ، فقادوا قومهم إلى الشرك وإلى الكفر ، فاستنصروهم فقالوا :

﴿ إنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبعاً فهلْ أنْتُم مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ منْ شَيْءٍ ؟ ﴾ .

فأجابوهم بالبراءة منهم ، وأقروا بعجزهم عن أن يغنوا عنهم ولا عن أنفسهم شيئاً ، ووقف الجميع خاضعين خانعين ، قد ذلوا جميعاً أمام رب العالمين ، وذهبت الألوهيات المزعومة ، ومحيت الزعامات الباطلة المكذوبة ، وانفصمت عرى الحلف الشيطاني بين الكفار وما كانوا يعبدون من مخلوقات، وتبرأ

كل معبود بالباطل ممن كان يعبده ، حتى الشيطان يعترف لمن تبعه بكذبه فيقول :

﴿ لما قُضِيَ الأَمْرُ إنَّ اللهَ وعَدَكُمْ وعْدَ الحقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فأخلفْتُكُمْ ﴾ .

ويتملص من التبعة ويلقيها كلها عليهم ، مقراً بضعفه وعجزه في الدنيا ، وأنه لم يكن يملك إلا الوسوسة والتضليل ، ما كان له من حول ولا طول ، ولا كان يقدر على نفع ولا ضر ويقول :

﴿ وما كان لي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلا أنْ دَعَوْتُكُمْ فاسْتَجَبْتُمْ لي[٥٦] فَلاَ تَلُومُونِي وَلومُوا أنْفُسَكُمْ ﴾ ﴿ إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعِيفاً ﴾ .

الحساب :

ولا بد من الوقوف للحساب ، فيقام ميزان العدل المطلق ، الذي لا يضيع مثقال حبة من خردل ، ولا ذرة من غبار ، ولا واحدة من الكهارب (الإلكترونات) التي تسبح في فضاء الذرة ، ولا أصغر من ذلك ، تحصى على المرء أعماله كلها . وتقدر ظروفه كلها ، وتبرز نياته الخيرة وإخلاصه القلبي ، فتكون ثقلاً له في جانب الحسنات من الميزان ، وما كان في قلبه من نفاق أو رياء ، فيكون ثقلاً عليه في جانب السيئات من الميزان[٥٧] .

محاكمة عادلة ، لا ينفع فيها الإنسان إلا عمله الذي قدمه ، وعفو ربه الذي يرجوه ، ورحمته التي يؤملها ، لا يسعفه ما كان له من مال إلا ما أنفق منه لله وفي سبيل الله ، ولا يعينه ما كان له من جاه إلا إن استعمله في طاعة الله ، ولا يستطيع أحد أن ينفع أحداً أبداً ، ولا تملك نفس لنفس شيئاً ،ولا يجد أحدهم شفيعاً يشفع له إلا من بعد إذن ربه .

---

(٥٦) وفي هذا : دليل على بطلان الدجالين ، الذين يزعمون أنهم يستخدمون (الجن) و (الشياطين) ، فيضربون بهم من يريدون ، وينفعون من يشاؤون ، وأنهم يستخرجونهم من أجسام المصابين بداء الصرع !! .

(٥٧) إن كل ما قالوا في وصف الميزان وشكله لا دليل عليه .

وشفاعة الآخرة ليست كشفاعة الدنيا ، فالشفيع في الدنيا يدخل على الحاكم يدل عليه بمودته له أو جاهه عنده ، يلزمه الشفاعة ولو كان في قرارة نفسه لا يريدها ، فيحابي بها موظفاً ، أو يبرىء بها متهماً ، أما الشفاعة في الآخرة فتكون عندما يريد ربنا (برحمته) العفو عن أحد ، ويريد (بكرمه) تشريف أحد ، يجعله سبباً ظاهراً لهذا العفو ، فيأذن له بالشفاعة له ، فيشفع بإذنه وأمره .

الشهود والبينات :

محاكم الدنيا ، التي يتولاها حكام من العباد ، لها عدالة بشرية محدودة ، ووسائل للإثبات ظاهرة معدودة ، ولكن محاكمات الآخرة قاضيها رب الأرباب ، وعدالتها مطلقة لا حد لها ، وبيناتها شهادات الأنبياء ، والملائكة الذين كانوا يحصون الأعمال ، ويدونون الحسنات و السيئات . والصحف التي دونت فيها هذه الإحصاءات ، واعترافات المذنبين ، وشهادات الأعضاء .

شهادة الرسل :

إذا كان يوم الحساب أحضر النبيون كما قال تعالى :

﴿ وَوُضِعَ الكِتَابُ ، وجِيءَ بالنَّبِيِّينَ ﴾ .

وكانت محاكمة كل أمة وفق شريعتها ، بحضور نبيها :

﴿ وتَرى كُلَّ أمَّةٍ جاثيةً ، كلُّ أُمةٍ تُدْعى إلى كتَابِها ﴾ ﴿ فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وجِئْنَا بِكَ عَلى هَؤُلاءِ شَهيداً ﴾ .

الكتب والصحف :

هذه الصحف التي تسجل فيها أعمالنا كلها في الدنيا ، تكون مطوية مخفية ، سراً لا يدري به الخلق . فإن تاب العبد من ذنوبه المدونة فيها ، التوبة الصادقة ، محيت منها ، وإلا بقيت فيها ، فإذا حل يوم الحساب ، نشرت وأعلنت ، كنتائج الامتحانات ، تكون سراً عند الفاحصين فلا يعلم برسوب

الراسب سواهم ، فإذا جاء وقت إعلانها ، عرف بذلك الناس ، وافتضح الراسب في أهله وبين إخوانه ، ولكن الفضيحة هنا على رؤوس الخلائق جميعا ، وهي الفضيحة الكبرى ، والراسب هنا يسقط في جهنم ويخسر ـــ إن كان كافراً ـــ سعادة الأبد ، ويلقى العذاب الدائم .

تنشر الصحف وتوزع ، فيلقى كل إنسان كتابه منشوراً ، ويقال له :
﴿ اقْرأ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً ﴾ .

فمن كانت حسناته التي دَوَّنها ملك اليمين أكثر ، ناوله كتابه بيمينه بشارة له بأنه سوف ﴿ يحاسب حساباً يسيراً ﴾ ، فإذا رأى ما فيه فرح واستبشر ، كما يفرح التلميذ الذي يأخذ نتيجة الامتحان فيرى أنه ناجح ، ويحب أن يطلع على نجاحه الإخوان والأقران ، يقول :
﴿ هاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ ،إنِّي ظَنَنْتُ (أي : إني أيقنت في الدنيا) أنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ .. ﴾ .

ومن كانت سيئاته التي دوَّنها ملك الشمال أكثر ، ناوله كتابه بشماله فيبكي على نفسه ، ويوقن بهلاكه ، ويقول :
﴿ ياَلَيْتَنِي لمْ أوتَ كِتَابِيَهْ ، ولَمْ أدْرِ مَا حِسَابِيَه ، ياليْتَها كانَتِ القَاضِيَة ، ما أغْنَى عَنِّي مالِيَهْ ، هلكَ عَنِّي سُلْطَانيهْ ﴾ . ﴿ وأما مَنْ أوتِيَ كِتَابَهُ وراءَ ظَهْرِهِ ، فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً ، وَيَصْلَى سَعِيرَا ﴾ .

ويقرأ المجرمون كتبهم ، فيرون كل عمل عملوه مدوناً فيها ،﴿ أحصاه الله ونسوه ﴾ . فيقولون متعجبين :
﴿ ياوَيْلَتَنَا ، مالِهذا الكِتَابِ لا يُغادِرُ صَغِيرةً ولا كَبِيرة إلا أحْصَاهَا ؟! .. ووجَدُوا ما عَمِلُوا حَاضِراً ﴾ .
وأيقنوا أنهم ظلموا أنفسهم .
﴿ ولا يَظْلِمُ رَبُّكَ أحَدا ﴾ .

وندموا على ما فرطوا ، حين اتبعوا وسوسة الشيطان ، وهوى النفس الأمارة بالسوء ، فمقتوا لذلك أنفسهم ، وإذا هم :

﴿ يُنَادَوْنَ : لَمقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُم إذ تُدْعَوْنَ إلى الإيمانِ فَتَكْفُرُونَ ... ﴾ .

الدفاع ثم الإقرار :

ثم إذا وقف الكفار للحساب ، لجؤوا إلى الإنكار ، وحلفوا كذباً على براءتهم ، يظنون أنهم أمام حاكم من البشر ، ممن لهم الظواهر ، ونسوا أنهم أمام رب العالمين ، الذي يطلع على ما في النفوس ، ويعلم ما تكن الضمائر .

﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ .

يقولون :

﴿ واللهِ رَبِّنَا ما كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ .

فيمسك الله بألسنتهم ، ويمنعهم من أن ينطقوا ، ويأمر أعضاءهم التي مارست الحرام فتقر بما صنعت ، وتنطق اليد معترفة بما اجترحت من حرام والرجل بما مشت إليه من حرام .

﴿ اليومَ نَخْتِمُ عَلى أَفْوَاهِهِمْ ، وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ ، وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بما كَانُوا يَكْسِبون . . ﴾ .

فإذا أخذوا بإقرارهم ، وثبت الذنب عليهم ، عاتبوا أعضاءهم .

﴿ وقالوا لِجُلُودِهِمْ : لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا ؟ قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللهُ الذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ !! ﴾ .

كانوا يختبئون في الدنيا ليأتوا الفواحش ، مع أن المتحدث اليوم في الرائي (التلفزيون) يكون في غرفة لها أبواب مغلقة ، وجدران مطبقة ، ثم يراه من ورائها الملايين ، ويسمع كلامه ، ويشهد عليه ، فإن كان هذا مما وفق إليه البشر في الدنيا ، فكيف بعلم الله وحسابه في الآخرة ؟ لذلك يؤنبهم ربهم ويقول لهم :

﴿ وما كُنْتُم تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سمعُكُمْ ولا أَبْصَارُكُمْ ولا جُلُودُكُمْ ﴾ .

وكيف يفر المرء من جلده ، وبصره وسمعه ، وهو معه قائم به .

﴿ ولكِنْ ظَنَنْتُمْ أنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمّا تَعْمَلُونَ ، وذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الذي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ ، أَرْداكُمْ فأَصْبَحْتُمْ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ .

وهذه عاقبة كل كافر بالله ، منكر ليوم الحساب ، لا يمتد إلى أبعد من هذه الدنيا ، يجحد الآخرة وهي آتية لا ريب فيها ، ويختفي بذنبه من الله ، والله مطلع عليه ، وأعضاؤه التي يمارس بها الذنوب ستشهد عليه ، فكيف يتوارى من شاهد ، هو معه ، لا يستطيع أن يفارقه ؟

اللهم عفوك وغفرانك ، واستر علينا في الآخرة ، كما سترت علينا في الدنيا وأنت الغفار الستار .

اعتراض تافه :

وقد كان فريق من الناس ، يقولون لنا ساخرين ونحن صغار : « كيف تنطق اليد والرجل ، وماهما لسان ، وما تقدران على بيان ؟ » . فاخترعت آلات التسجيل ، والسينما الناطقة ، وصارت تقام في مداخل المصارف آلات تصوير خفية ، تصور بالأشعة التى لا ترى(٥٨) ، تتحرك لمجرد اجتياز الشخص من أمامها ، فإذا سرق السارق وأنكر ، عرضوا عليه (الفلْم) يعيد حركاته وسكناته ، وهمسه لنفسه وكلامه مع رفيقه ، فكانت هذه المخترعات حجة على هؤلاء المتعالين الجهلاء ، كأنها تقول لهم : « ويحكم ، الذي أنطق الشريط في الدنيا ، وسجل الحركات والكلمات ، تعلن كلام السارق الذي أخفاه ، وتثبت عليه فعله الذي أنكره .. الذي وفق إلى هذا في الدنيا ، ألا ينطق اليد والرجل في الآخرة ؟ » .

الحساب ونتائجه :

الحساب أنواع ، منه الحساب اليسير كحساب الذين أعطوا كتابهم

---

(٥٨) الأشعة التي يسمونها : « تحت الحمراء » .

بأيمانهم ، ومنه الحساب الشديد كحساب القرية التى عتت عن أمر ربها .
ويخرج الناس بنتيجة الحساب وهم أصناف : السابقون المقربون ، وأصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة .

﴿ فأمَّا إنْ كَانَ مِنَ المُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعيمٍ ، وأمّا إنْ كَانَ مِنْ أصْحَابِ اليَمِينِ ، فَسَلامٌ لَكَ مِنْ أصْحَابِ اليَمِينِ ، وأمّا إنْ كَانَ مِنَ المُكَذِّبينَ الضَّالِّينَ ، فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ، وتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ، إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليَقِينِ ، فَسَبِّح باسمِ ربِّكَ العَظِيم ﴾ .

ورود جهنم :

ويمرون جميعا على صراط من فوق جهنم ، يسرعون باجتيازه بمقدار قربهم من الله ، واستكثارهم من الحسنات ، فينجو منها المتقون ، ويسقط فيها الظالمون ، قال تعالى :

﴿ وإنْ مِنْكُم إلا وَارِدُها ، كانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ، ثم نُنَجّي الذين اتَّقوا وَنَذَرُ الظَّالِمينَ فِيها جِثِيّاً ﴾ .

وفي سورة (ألهاكم التكاثر) قوله تعالى :

﴿ لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ ، ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ اليَقِين ﴾ .

أما الرؤية الأولى : فهي — والله أعلم — ورود المتقين عليها ، الذي يكون معه النجاة منها ، وأما الرؤية الثانية : فهي ورود الظالمين عليها ، وسقوطهم فيها . وربما كانت الرؤية قبل الحساب ، حين تبرز الجحيم فيراها الناس كما قدمنا .

الجنة وجهنم :

أوصاف الجنة التي وردت في القرآن ، كقوله تعالى : ﴿ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأنْهارُ ﴾ ، وأن أهلها يُحَلّون فيها من أساور من ذهب ، ولؤلؤاً ، وأن لباسهم فيها حرير ، وأن فيها أنهاراً من لبن ، وأنهاراً من خمر ، وأنهاراً من عسل، وأن فيها الحور العين ، والغلمان .

كل ذلك جاء على وجه التقريب إلى الأفهام ، لأن اللغات البشرية موضوعة في الأصل للتعبير عن الأشياء الأرضية ، ومن المحقق أن أنهار الجنة ليست كأنهار الدنيا ، ولا لبنها وعسلها وخمرها ، كخمر الدنيا وعسلها ولبنها ، ولا حورها كنساء الأرض ، ولا غلمانها كغلمانها ، ولو رجعنا إلى المقدمات التى قدمناها في أول هذا الكتاب ، وهى (قواعد العقائد) لذكرنا أن الخيال البشري يعجز عن الإحاطة بها ، أو تمثل حقيقتها .

والذين فصلوا في وصفها من المفسرين ، لم يستندوا في ذلك إلى دليل وكان منتهى جهدهم أن قاسوا الآخرة على الدنيا ، كما قاس المتكلمون عدالة الله وصفاته ، على ما عرفوا من الصفات البشرية ، والعدالة البشرية ، فتخبطوا في متاهات وضلالات ، كان ينجيهم منها ، ويبعدهم عنها ، أن يقفوا عند حدود النصوص ، وأن يسلكوا مسلك السلف ، وأن يقروا بعجز العقل عن إدراكها ، والخيال عن تمثيلها .

ومن هذه المباحث السقيمة ، والمجادلات العقيمة ،ماقالوه عن الحور العين ، وهل الاستمتاع بهن كالاستمتاع بنساء الدنيا ، ونسوا أن هذه المتعة على شكلها المعروف ، غايتها الحمل وبقاء النسل[٥٩]،ولا داعي لذلك في الآخرة ، فكان الحق أن نؤمن بكل ما ورد في القرآن ، ثم نشتغل بالعمل الصالح الذي يوصلنا إلى الجنة ، بدلاً من المناقشة في تفصيل أمرها ، والخلاف على وصف حقيقة ما فيها ، مما لم يذكره القرآن لنا .

دخول الجنة :

وليس دخول الجنة بالتمني والتشهي ، ولكن بالإيمان والطاعة .

﴿ ليس بِأَمَانِيِّكُم ، ولا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ ﴾
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجَنَّةَ ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذين جَاهَدُوا مِنْكُمْ ويعلَم

---

(٥٩) ولو فكر فيها العاقل لاستقبحها ، واستقذر موضعها ، ولكن الله وضع الشهوة لمنع هذا التفكر ، كما وضع البنج (أي المخدر) ليمنع الشعور بألم العملية الجراحية .

الصَّابِرِين ؟ ﴾ .

فالمؤمن الذي يدخل الجنة إما أن يكون (فاعلاً) للخير داعياً إلى الله ، باذلاً الجهد في سبيل إعلاء كلمته ، عاملاً على ذلك بنفسه وماله ولسانه ، فيكون من الذين جاهدوا ، فإن لم يستطع فعليه ــ على الأقل ــ ألا يكون (منفعلاً) بالشرّ ، ولا متبعاً لدعوته ، وأن يسلم بنفسه وأهله ، وأن يصبر على ما يلقى في سبيل تمسكه بدينه ، فيكون من الصابرين .

فإذا انتهى الحساب ، واجتاز المؤمن الصراط ، تحققت النجاة .

﴿ وسِيقَ الذين اتَّقَوا ربَّهم إلى الجَنَّةِ زُمَراً ، حتَّى إذا جَاؤُوها وفُتِحَتْ أبْوابُها[٦٠]، وقال لَهمْ خَزَنَتُها سَلامٌ عَلَيْكم طِبْتُمْ فادْخُلُوها خَالِدين ، وقَالُوا الحَمْدُ لله الذى صَدَقَنَا وعْدهُ ، وأوْرَثَنَا الأرْض نَتَبَوَّأُ من الجَنَّة حَيْثُ نَشَاءُ ، فَنِعْمَ أجْرُ العَامِلِين .. ﴾ .

وصف الجنة :

أما سعتها فإن عرضها عرض السماوات والأرض ، ولا تعجبوا من هذ فإن الآخرة بالنسبة لهذه الدنيا ، كهذه الدنيا بالنسبة لبطن الأم ، أما يرى الجنين بطن الأم دنياه كلها ، أو ليست دار واحدة من دور الدنيا ، أوسع من دنيا الجنين بآلاف المرات ؟

هذه الجنة (أعدت للمتقين) ، ومن هم المتقون الذين أعدت لهم ؟ وماذا كانوا يصنعون ؟ لعلنا نصنع مثلهم فنكون معهم ، لقد بيّن الله أن المتقين هم :

﴿ الذين يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ، والكاظمين الغَيْظَ ، والعَافِينَ عَنْ النَاسِ . . والَّذين إذا فَعَلُوا فَاحِشَةً أوْ ظَلَمُوا أنْفُسَهُمْ ، ذَكَرُوا الله فاسْتَغْفَرُوا

(٦٠) في آية جهنم قال : ﴿ حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها ﴾ . لأنها كسجن مغلق الأبواب ، فلا تفتح إلا لاستقبال داخل ، أو خروج خارج أما هنا فقال : ﴿ وفتحت أبوابها .. ﴾ ، لأنها مفتحة الأبواب دائماً ، وإن كان لا يدخلها أحد ، إلا بإذن ربها خالقها .

لِذُنُوبِهِمْ ﴾ .

هذه بعض صفات المتقين ، فمن اتصف بها بعد تصحيح العقيدة ، وصدق التوحيد ، أدخله الله بكرمه ومنّه ، هذه الجنة التي أعدّها لهم .

والجنة درجات : ففيها جنة النعيم وهي أبعد من أن ينالها كل واحد :

﴿ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِىءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴾ .

وهي للسابقين السابقين .

﴿ أولَئِكَ المقرَّبُون في جَنَّاتِ النَّعيم ﴾ .

وفيها الجنة التي سماها الله (الغرفة) ، ووعد بها عباد الرحمن ، الذين وصفهم في سورة الفرقان بأنهم الذين يجمعون صحة الاعتقاد ، واستقامة السلوك ، وكثرة العبادة ، وعلو الأخلاق ، فدل ذلك على أن (الغرفة) درجة عالية في الجنة ، خص بها هؤلاء الذين جمعوا صفات الكمال ، وصبروا على مشقة القيام بها ، وصرف النفس عن رغبتها في التملص منها .

وبين ربنا أن في الجنة :

﴿ جنَّاتٍ معْرُوشَاتٍ وغيرَ معْرُوشاتٍ ﴾ .

وأن فيها مكاناً اسمه : (جنة المأوى) ، ومكاناً اسمه : (جنات عدن) ولمن خاف مقام ربه جنتان (لا جنة واحدة) ، وأن فيها ما دعاه بـ (عليين) ؛ دَلَّ ذلك على أن نعيمها درجات ، وأهلها منازل .

أهل الجنة وأحوالهم :

يجتمع أهل الجنة بإخوانهم وأهلهم :

﴿ ادْخُلُوا الجَنَّةَ أَنْتُمْ وأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُون ﴾ ﴿ هُمْ وَأَزْواجُهُمْ في ظلالٍ عَلَى الأرائِكِ مُتَّكِئونَ ﴾ ﴿ والذين آمَنوا واتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَتُهُمْ بإيمانٍ ، أَلْحَقْنَا بهِمْ ذُرِّيَتَهُمْ . . . . . ﴾ .

يجتمعون على ود وصفاء .

﴿ ونَزَعْنَا ما في صُدُورهِم مِنْ غِلٍّ ﴾ ، وحقد .

تصف لهم الأسرة والأرائك ، فتكون مجالسهم عليها :
﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ ﴾ .
يقعدون عليها .
﴿ إخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقَابِلين ﴾ .
عليها فرش بطائنها من شيء نفيس ، سماه ربنا (الاستبرقْ) ، وحولهم جنتان ملتفتان ، ثمارهما قريبة من أيديهم ، دانية منهم .

يخدمهم فيها خدم صغار .
﴿ غلْمَان لهمْ كأنَّهُمْ لؤلؤٌ مَكْنُونٌ ﴾ ﴿ يَدْعُون فيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنينَ ﴾ . يُطافُ عَلَيْهِمْ بكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ، بَيْضاء لَذَةٍ للشَارِبين ، لا فِيها غَوْلٌ ولا هُمْ عَنْها يُنْزَفون ﴾ .
والطعام (يطاف) به :
﴿ عليهم بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ ﴾ .
أما شرابهم فيحمل إليهم :
﴿ بأكْوابٍ وأبَاريقَ وكَأْسٍ منْ مَعين ﴾ .
يؤتى إليهم بكل ما يريدون من طعام .
﴿ وفَاكِهَةٍ مما يَتخَيّرون ، ولَحْم طَيْرٍ مما يَشْتَهُونَ ﴾ . ﴿في سِدْرٍ مَخْضُودٍ ، وطَلْحٍ مَنْضُودٍ ، وظِلٍّ مَمْدُودٍ ، وَمَاءٍ مَسْكُوبٍ ، وفَاكِهَة كَثيرةٍ ، لا مقْطُوعةٍ ولا مَمْنُوعَةٍ ، وفُرُشٍ مَرْفُوعَة﴾ . ﴿ لا يَرَوْن فيها شَمْساً ولا زَمْهَريراً ، ودانيةً عَلَيْهِمْ ظِلالُها ، وذُلِّلَتْ قُطُوفُها تذْليلا ﴾ ﴿ تعْرِفُ في وُجُوهِهِم نَضْرة النَّعِيم ﴾ فوجوههم ﴿ ناعمةٌ لسعيها رَاضية ﴾ ..
يقصدون من أركان الجنة حيث شاؤوا ، يتقابلون فيها ويتحدثون .
﴿ تَحِيّتهُمْ فيها سَلامٌ ﴾ .
لا يقولون إلا خيراً .
﴿ وهُدُوا إلى الطَّيِّبِ من القَوْلِ ﴾ ﴿ وأقْبَل بَعْضهُمْ على بَعْضٍ يَتَسَاءَلون ، قالُوا إنَّا كُنَّا قَبْلُ في أهْلِنَا مُشْفِقِين (خائفين من دخول النار) ، فَمَنَّ

اللهُ عَلَيْنَا ووقَانَا عَذاب السَّمُوم ﴾ .

وهذا : من ثمرة الدعاء والاستغفار .

﴿ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوه إِنَّهُ هُو البَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ .

فإذا تحدثوا تذكروا في أحاديثهم أيام الدنيا ، وأحوال أهلها ، وما كان من أمرهم فيها ، وما انتهوا إليه في الآخرة .

﴿ قَال قَائِلٌ مِنْهُمْ :إِنِّى كان لِي قَرِينٌ ، يقولُ (ساخراً معانداً) أَئِنَّكَ لَمِن المُصَدِّقِينَ ، أَئِذا مِتْنَا وكُنَّا تراباً وعِظَامَاً أَئِنَّا لَمَدِينُون ؟﴾ .

قال : (أي المؤمن في الجنة لإخوانه فيها) .

﴿ هَلْ أَنْتُم مُطَّلِعُونَ ﴾ .

على أهل النار لتروه فيها ؟ ودل ذلك على أنهم يستطيعون الاطلاع عليهم .

﴿ فاطَّلَعَ فرآهُ في سَواءِ الجَحِيمِ ﴾ .

قال له (وهذا وما يأتي بعده يدل على أن أهل الجنة وأهل النار يتبادلون الحوار) :

﴿ تاللهِ إنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ، ولولا نِعْمَةُ ربي لَكُنْتُ مِن المُحضَرِينَ ﴾ .

ويمن عليهم ربهم بالحور العين ، يزوجهم بهن .

﴿ وزوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ . كأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤ المَكْنُون ﴾ .

أنشأهن إنشاء ، فجعلهن :

﴿ أبْكَاراً ، عُرُباً أتْرابَاً ﴾ .. . قاصرات الطرف (من الحياء) ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ ولا جَانٌّ . . . ﴾ .

وأهل الجنة .

﴿ دعْواهُمْ فيها سُبْحانَكَ اللَّهُمَّ ، وتَحيَّتُهُم فيهَا سَلامٌ ، وآخرُ دعْواهُم أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العَالَمِينَ ﴾ .

يقولون :

﴿ الحَمْدُ للهِ الذى هَدانَا لهذا ، وما كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لولا أنْ هَدانَا اللهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ

رُسُلُ رَبِّنَا بالحَقِّ . ونُودُوا : أنْ تِلْكُمُ الجَنَّةُ أورِثْتُمُوها بما كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾ . ﴿ لا يمسُّهمْ فيها نَصَبٌ . وما هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِين ﴾ . ﴿ لا يَذُوقُونَ فِيهَا الموت إلا الموتَةَ الأولى ﴾ . ﴿ والملائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ .

يحيونهم ويهنئونهم يقولون :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُمْ بما صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ . ﴿ وفيها ما تَشْتَهِيهِ الأنْفُسُ وتَلَذُّ الأعْيُنُ ﴾ . ﴿ إنَّ هذا لَهُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ ، لِمِثْلِ هذا فلْيَعْمَلِ العَامِلُون ﴾ . ﴿ وفي ذلكَ فَلْيَتَنَافسِ المتنافِسُون ﴾ .

اللهم برحمتك التى وسعت كل شيء ، وعفوك ومغفرتك ــ وأنت العفوّ الغفور ــ أعذنا من عذاب النار ، وأدخلنا الجنة بسلام .

جهنم :

المتبادر إلى الأذهان أن جهنم نار كالنار التي نعرفها في الدنيا ، لكنها أشد منها ، حتى إنها لا تقاس من شدتها بها ، وإن ماثلتها في نوعها ، ولكن الذي يبدو لمن ينعم النظر في وصف القرآن لها ، أنها من نوع آخر ؛ إذ لو كانت ناراً من نوع نار الدنيا ، لأحرقت كل شيء ، فتركته فحماً . مع أن جهنم فيها شجر ، وفيها ماء ، وفيها ظل ، وإن كان ظلها وماؤها وشجرها ، للتعذيب لا للنعيم . ونار الدنيا تحرق من يدخل فيها فيموت ، فيستريح من ألمها ، وجهنم ــ نعوذ بالله منها ــ ألم دائم لأهلها .

﴿ لا يُقْضَى عَلَيْهِم فَيَمُوتُوا ، ولا يُخَفَّفُ عَنْهُم منْ عَذابها ﴾ .

لا تحرق الجلود فتذهبها ، ولكن تنضجها ، وكلما نضجت جلودهم ، بدلهم الله جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب ، وأهلها يعيشون ويفكرون ، ويتذكرون ويختصمون . وفي جهنم شجر ، ولكنها شجرة الزقوم ، التي :

﴿ تَخْرُجُ مِنْ أصْلِ الجَحِيمِ ، طَلْعُهَا كأنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِين ﴾ .

وفي جهنم طعام ، وأهلها يأكلون ، ولكنهم آكلون من ثمر هذه الشجرة الخبيثة .

﴿ فمالِئون منها البُطُون ﴾﴿ إنَّ شَجَرة الزقُّومِ ، طَعَامُ الأَثِيمِ ، كالمُهْلِ (عكر الزيت) يَغْلي في البطون كغَلْي الحَميم ﴾ .

وفي جهنم شراب ، فيها ماء ، ولكنه ماء صديد ، يسقى منه الكافر ، فهو :

﴿ يَتَجَرَّعُهُ ولا يَكَادُ يُسِيغُهُ ﴾ .

فإذا أكلوا من هذه الشجرة ، وشربوا بعدها من الحميم ، من هذا الماء الذي وصفه القرآن ، وهم من شدة عطشهم يشربون منه شرب الهيم ، شرب الإبل الهائمة العطشى ، ثم يصب من فوق رؤوسهم من هذا الحميم .

﴿ يُصْهَرُ بِهِ ما في بُطُونِهِمْ والجُلودُ ﴾ .

وفي جهنم ثياب ، ولكنها من نار .

﴿ فالَّذين كَفَرُوا قُطِّعَتْ لهمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾ .

وفي جهنم ظل وظلل ، ولكنها من نار .

﴿ لهمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ من النَّار ، ومنْ تَحْتهمْ ظُلَلٌ ﴾ ، إنَّهُ ﴿ ظِلٌّ منْ يَحْمُومٍ ، لا بَارِدٍ ولا كَرِيمٍ ﴾ .

هذه عاقبة من آثر الدنيا وترفها ، وأصر على الكفر ، وأنكر البعث .

﴿ إنَّهُمْ كانُوا قبْل ذلِك مُترفين ، وكانُوا يُصِرُّون على الحنْثِ العَظِيمِ ، وكانوا يَقُولُون : أئذا مِتْنا وكُنَّا تُراباً وعِظَاماً أئِنَّا لَمبْعُوثُون ؟ ﴾ ﴿ لهمْ فِيها زفِيرٌ وشَهيقٌ ، خَالِدِين فِيها مَا دامَتِ السَماواتُ والأَرْضُ ، إلا ما شاء ربُّكَ ، إنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لما يُريدُ ﴾ .

دخول النار :

إذا انتهى الحساب ، وحقت كلمة العذاب على الكفار ، يساقون إلى جهنم زمراً . فتغتاظ جهنم نفسها من كفرهم وإصرارهم ، وإعراضهم عن رسل ربهم . وخزنة جهنم لا ينقضي عجبهم من حماقتهم وعنادهم فهم يعودون إلى سؤالهم :

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ ، كُلَّما أُلْقِيَ فِيها فَوْجٌ ، سَأَلَهم خَزَنَتُها : أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ؟! ﴾ .

فلم يسعهم إلا الاعتراف .

﴿ قالُوا : بَلى ، قَدْ جاءَنَا نَذِيرٌ ، فَكَذَّبْنَا وقُلْنَا ما نَزَّلَ اللهُ مِنْ شَيءٍ ﴾ .

فقالت لهم الملائكة :

﴿ إِنْ أَنْتُمْ إلا في ضَلالٍ كَبِيرٍ ﴾ .

فأقروا بأنهم كانوا صُماً لا يسمعون ، وكانوا قد عطلوا عقولهم فلا يفكرون ، وأنهم لو كانوا سمعوا المواعظ ، وفكروا في أنفسهم ، وفي الكون من حولهم ، لا ستدلوا بذلك على الله ، فآمنوا به واتبعوا رسله ، وما وصلوا إلى جهنم .

﴿ وقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ ، ما كُنَّا في أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِم فَسُحْقاً لأَصْحَابِ السَّعِيرِ . . . ﴾ .

جهنم سجن :

جهنم .

﴿ لها سَبْعةُ أبْوابٍ ﴾

يوزع أهلها عليهم .

﴿ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴾ .

وهي مغلقة بمزاليج ضخمة ، كأنها الأعمدة .

﴿ إنها عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ في عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ ﴾ .

وهم يلقون فيها ــ في مكان ضيق :

﴿ مُقَرَّنِين ﴾ مربوطاً بعضهم ببعض .

وقد أعد الله لهم :

﴿ سَلاسِلَ وأَغلالاً وسَعِيراً . . ﴾ .

محاولات للخروج :

عمر الله الإنسان في الدنيا دهراً ، وأعطاه فيها عقلاً يختار به ما يريد ، وإرادة ينفذ بها ما يختار ، فاختار بعض الناس سلوك طريق جهنم ، وعملوا ما يوصلهم إليها ، فلما بلغوها ، راحوا يحاولون الخروج منها ، ويعدون أنهم إن أعيدوا إلى الدنيا ، آمنو وأصلحوا ، يحسبون الأمر كامتحانات الدنيا ، فمن رسب في دورة ، استدرك النجاح في أخرى ، لا يدرون أن من خرج من الدنيا لا يعود إليها ، ومن دخل النار لا يخرج منها ، فحق عليهم قول الله عز وجل :

﴿ ولَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلى عِلْمٍ ، هُدَىً ورحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ، هَلْ يَنْظُرُون إلاّ تَأْوِيلَهُ ، يَوْمَ يأتي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الْذين نَسُوهُ مِنْ قَبْل : قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بالحَقِّ ، فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعاء فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُردُّ ، فَنَعْمَلَ غَيْرَ الْذي كُنَّا نَعْمَلُ ؟﴾ ﴿ وترى الظالمين لمـا رَأَوُا العـذابَ يقولـون هلْ إلـى مَردٍّ من سَبيل ؟!﴾ ﴿وهم يصطرِخون فيها : ربَّنا أخرِجْنا نَعْمَلْ صالحاً غيرَ الذي كُنَّا نعْملُ . . ﴾

فيكون الجواب الحاسم .

﴿ أَوَ لَمْ نُعَمِّركُمْ ما يَتَذَكَّرُ فيهِ مَنْ تَذكَّرَ ، وجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟! فَذُوقوا ، فما للظَّالِمين مِنْ نَصِيرٍ ﴾ .

فيلجؤون(٦١) إلى خزنة جهنم ، كما يلجأ السجين إلى حراس السجن ، يظن أنهم يملكون له نفعا ، أو يدفعون عنه ضرا ، يقولون :

﴿ لِخَزَنَةِ جَهَنَّم : ادْعُوا ربّكم ، يُخَفِّفْ عَنّا يوماً مِنَ العَذابِ ، قالُوا : أَوَ لم تَكُ تَأْتِيكُم رُسُلُكم بالبَيِّنَاتِ ؟! قالُوا : بَلى ، قَالُوا (لهم ساخرين منهم) : فادْعُوا ، وما دُعَاءُ الكَافِرين إلا في ضَلالٍ . . ﴾ .

فإذا يئسوا منهم عمدوا إلى مالك ، رئيس حرس جهنم .

---

(٦١) من الناس من يضع همزة هذه الكلمة على الألف (فيلجأون) ، وهو غلط ، ومنهم من يضعها على مدة هكذا : (يلجئون) ، إذ يرسمون الهمزة على (كرسى) بعد الجيم والصواب (فيما أرى) هو ما رسمتها عليه .

﴿ ونَادَوْا : يامالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا ربُّك ﴾ .

فأجابهم الجواب الصارم الحاسم ، قال :

﴿ إنَّكُمْ ماكِثُونَ ﴾ .

فيفكرون في أن يفتدوا أنفسهم ، كما كانوا يفتدون الدنيا بالمال ، ولكن هيهات :

﴿ ولَوْ أنَّ للَّذِينَ ظَلَمُوا مَا في الأرْضِ جَمِيعاً ، ومِثْلَهُ مَعَهُ ، لا فْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ العَذَابِ يَوْم القِيامَةِ ، وبَدا لهمْ مِنَ اللهِ ما لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبون ، وبَدا لهمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبُوا ، وحَاقَ بهمْ ما كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون ﴾ .

فلا تفيدهم هذه المحاولات شيئا ، ويبقون في جهنم .

﴿ وَلَهُمْ مَقامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ، كُلَّما أرادُوا أنْ يَخْرُجُوا مِنْها مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فيها ﴾ .

وقيل لهم :

﴿ ذُوقُوا عَذاب الْحَرِيقِ ﴾ .

أحاديثهم واختلافهم :

أهل الجنة إخوان على سرر متقابلين ، قد نزع ما في صدورهم من غل ، وهدوا إلى الطيب من القول ، فما في أحاديثهم لغو ولا كذب ولا إثم . وأهل جهنم في نزاع وجدال :

﴿ كلَّما دخلَتْ أمةٌ لَعَنَتْ أخْتَها ، حَتَّى إذا ادَّارَكُوا فِيها جَمِيعا ، قالتْ أُخْراهُمْ لأُولاهُمْ : ربَّنَا هَؤلاءِ أَضَلُّونَا ، فآتِهِمْ عَذاباً ضِعْفاً مِن النَّار ، قال : لِكُلٍّ ضِعْفٌ ، ولكِنْ لا تَعْلَمُون . وقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْراهُمْ : فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ ، فَذُوقُوا العَذاب بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُون ﴾ ﴿ هذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ ، لا مَرْحَباً بِهِمْ ، إنَّهُمْ صَالُوا النَّار ، قالُوا : بَل أنتُمْ لا مَرْحباً بِكُمْ ، أنتُم قَدَّمْتُمُوهُ لَنا ، فَبِئْس القَرارُ . قالُوا : ربَّنا مَنْ قَدَّم لنا هَذا ، فَزِدْهُ عَذاباً ضِعْفاً في النَّار ، وقالُوا : مَا لَنَا لا نَرى رِجَالاً ، كنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الأشْرار ، أتَّخَذْناهُمْ سِخْرِيًّا أمْ زاغَتْ عَنْهُمُ

الأَبْصَارُ . . . إِنَّ ذلك لَحقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾ وقال الَّذين كَفرُوا : ربّنا أرِنَا اللَّذيْن أضلَّانا مِن الجِنِّ والإنْسِ ، نَجْعَلْهُمَا تَحْت أقْدامِنَا لِيَكُونَا مِن الأَسْفَلِين .. ﴾ .

حوار بين أهل الجنة وأهل النار :

سبق ما يشير إلى أن أهل الجنة يستطيعون أن يطلعوا على أهل النار ، وفي القرآن أن هؤلاء وهؤلاء يتنادون ويتحدثون :

﴿ ونادى أصْحَابُ الجَنَّة أصْحَابَ النَّار أنْ قَدْ وجَدْنَا ما وعدنا ربُّنا حَقّاً فَهَل وجدتم ما وعَدَ ربُّكم حَقّاً ؟ قالُوا : نَعمْ ، فَأَذَّن مُؤذِّنٌ بَيْنَهُم أنْ لَعْنَةُ الله على الظَالمين . . . ونَادى أصْحَابُ النَّار أصْحَابَ الجَنَّة أنْ أفِيضُوا عَلَيْنا مِنَ الماءِ أو مما رزقَكُمُ الله ، قالُوا : إنَّ الله حَرَّمَهما عَلى الكَافرين ، الَّذين اتَّخَذُوا دِينَهم لَهْواً ولَعباً وغَرَّتْهُمُ الحَياةُ الدُّنْيا . . ﴾ .

الأعراف :

الذي يفهم من الآيات ، أن (الأعراف) مكان بين الجنة والنار . يقوم فيه مدة من الزمان ، من قصرت به حسناته عن دخول الجنة ، ولم تبلغ سيئاته إدخاله النار ، يرون منه الجنة ويأملون في دخولها ، ويخاطبون أهلها ، ويرون النار ويعوذون بالله منها ويكلمون أصحابها ، وبينهما (أي بين أهل الجنة وأهل النار) حجاب .

﴿ وعَلى الأعْرافِ رِجَالٌ يَعْرفُون كلاً بِسِيماهُمْ ، ونَادَوْا أصْحَابَ الجَنَّةِ : أنْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، لم يَدْخُلُوها (أي أهل الأعراف) وهُمْ يَطْمَعُونَ ، (في دخولها) وإذا صُرِفَتْ أبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أصْحَابِ النَّارِ ، قَالُوا (أي قال أهل الأعراف) : ربنَا لا تَجْعَلْنَا مَع القَوْمِ الظَّالِمين .. ﴾ .

ورأوا في جهنم ناسا يعرفونهم ، كانوا في الأرض من الجبارين ، يعتزون بجموعهم وأتباعهم . وجماهير العامة التي تؤيدهم ، فيتكبرون بذلك ويطغون

فنادوهم وقالوا لهم :

﴿ ما أَغْنَى عنْكُمْ جَمْعُكُمْ وما كُنْتُم تَسْتَكْبِرُونَ ؟! ﴾ .

وسيرون يومئذٍ ، أنه ما أغنى عنهم شيئا ، ولا خفف عنهم من عذابهم كثيرا ولا قليلا ، وأنهم قد خلفوه كله وراءهم ، وتركوه خلف ظهورهم ، إنه لا ينزل مع الميت إذا مات صديق ، ولا (رفيق) ، ولا حليف ولا أليف ، ولا جند ولا أعوان ، كلهم يتركه وينصرف عنه ، فينزل القبر وحده ، ويبعث من القبر وحده ، ويقف للحساب وحده . هذه حقيقة مشاهدة في الدنيا ، ولكن عميت الأبصار عن رؤيتها ، وعميت البصائر عن إدراكها . فيا رب افتح أبصارنا حتى نرى الحقائق الدالة عليك ، ونور بصائرنا حتى نبصر الطريق الموصل إليك ، وجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وارزقنا رضاك والجنة ، وأعذنا من غضبك والنار ، يا عفو يا غفار .



الإيمان بالقدر

معنى القدر والقضاء :

الذي يفهم من الآيات التي ذكرت القدر كقوله تعالى .

﴿ وإنْ مِنْ شَيءٍ إلا عِنْدنَا خزائِنُهُ ، وما نُنَزِّلُهُ إلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ .

وقوله :

﴿ إنّا كُلَّ شَيءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ .

وقوله عن الأرض :

﴿ وبَارَكَ فِيها ، وقَدَّر فِيها أقْواتَها ﴾ .

وقوله عن القمر :

﴿ والقَمَرَ قَدَّرناهُ مَنَازِلَ . . ﴾

وقوله :

﴿ وخَلَق كُلَّ شَيءٍ فَقَدَّرهُ تَقْدِيراً ﴾ ﴿ وكُلُّ شَيءٍ عِنْدهُ بِمقْدارٍ ﴾ .

الذى يفهم منها أن القدر ، هو السنن التي سنها الله لهذا الكون ، والنظام[٦٢] الذي سلكه به والقوانين الطبيعية التي سيّره عليها ، وأن كل ما فيه قد خلق بمقادير معينة ، ونسب محددة ، فما من موجود إلا وقدر قبل إيجاده مقداره وعدد ذراته ، وكمية العناصر التي يتألف منهاونوعها ، وما يعرض له من امتزاج بغيره ، وانفصال عنه ، وما يناله من حركة وسكون ، كل ذلك محدد منذ الأزل .

وأنا أوضح الفرق بين القدر والقضاء بمثال ﴿ ولله المثلُ الأعْلى ﴾ : العمارات التي تقام تعلق عليها لوحة فيها : « إن التصميم للمهندس الفلاني ،

---

(٦٢) هو الخيط الذي تنظم به حبات العقد والسبحة والسلك الذي تسلك به .

والتنفيذ للمقاول الفلاني » . فالمهندس يرسم خريطة ويعين علو البناء وسمك الجدران ، وما يوضع فيها من الحديد و(الإسمنت) والحجر ، ونسبة كل منها ، وما يكون فيها من أبواب ونوافذ ، يقدر ذلك ويحدده ، هذا مثال القدر . والمقاول ينفذ ما قدره المهندس ، وهذا مثال القضاء ، وكلاهما لله وحده : وكما يمكن للمهندس أن يبدل (إذا أراد) في بعض تفصيلات التصميم ، فالله من رحمته جعل الدعاء والصدقة سبباً في رفع بعض ما كان مقدراً . قدرها وحده ، ورفعها بالدعاء وحده [٦٣] .

الثواب والعقاب :

هذا معنى القدر بوجه عام ، وهو يشمل كل موجود أوجده الله ، قدر الله مقاديره وأحواله ، وعلم ما سيكون له وما يكون منه ، ومن جملة مخلوقات الله الإنسان ، وهنا تعترض مشكلة طالما خاض فيها الخائضون ، وطالما كثر فيها الجدال ، هي أمر الثواب والعقاب . إذا كان كل ما يقع في الكون مرسوماً ومعلوماً عند الله من قبل ، وكانت سنن الله لا تبديل لها ولا تغيير ، فكيف يكون الثواب والعقاب ؟

والجواب الإجمالي : أنه لا بد من التفريق بين وضع الإنسان المشاهد (الملموس) ، وبين صفات الله وأعماله ، وهي مغيبة ، لا يستطيع العقل أن يحكم عليها ، ولا يصل إلى إدراكها ، ولا يعرف عنها إلا ما جاء بطريق الوحي .

الإنسان مخير :

وأنا أتكلم الآن عن الوضع القائم المشاهد ، وسأتكلم بعد ذلك عن

---

(٦٣) ولو كان كل ما يفعل العبد مجبراً عليه من الأزل ، لا يبدل ولا يعدل ، وليس له اختيار فيه ، لم يبق من فائدة لبعثة الأنبياء ، وجهاد الكفار ، ولا للدعاء . وقد دعا الأنبياء والخلفاء الراشدون وصلحاء كل أمة ، طالبين دفع الشر ، وجلب الخير ، وقد رأيت عند وجيه الحجاز ، الشيخ الجليل محمد نصيف ، رحمه الله ، رسالة مخطوطة للشوكاني في هذا المضمار ، ولم يكتب في موضوعها مثلها .

النصوص . والواقع أن الإنسان له حرية ، له (عقل) يستطيع أن يحكم به على الأمور المادية ، ويميز به بين الخير والشر ، والصلاح والفساد ، وله (إرادة) يستطيع أن يعمل بها الخير أو أن يعمل الشر ، كل إنسان عاقل يدرك أن الصلاة خير ، وأن الزنا شر ، ويقدر إذا خرج من داره أن يمشي من جهة اليمين إلى المسجد فيصلي ، أو يمشي من جهة الشمال إلى الماخور فيزني ، هل يشك أحد في هذا ؟ وإذا كانت يدي سليمة ما بها مرض أو شلل ، فأنا أستطيع أن أرفعها ، فهل في الناس من يدعى أنني لا استطيع رفع يدي ؟ وإذا كنت قادرا على رفع يدي ، رفعتها لأعطى فقيرا دينارا ، أو رفعتها لأضرب بريئا بالعصا ، فهل هذا كذاك ؟ أليس إعطاء الفقير حسنة تستحق الثواب ، وضرب البريء سيئة تستوجب العقاب ؟

التلميذ يستطيع أن يمضي ليالي الامتحان باللهو واللعب ، ويستطيع أن يشغلها بالجد والدرس ، أليس هذا صحيحا ؟ فهل يدعي أحدٌ أن سقوط اللاعب كان ظلما ، أو أن نجاح المُجد كان محاباة ؟ .

والإنسان مجبر :

لقد استطعت أن أحرك يدى بإرادتي ، لأن الله جعل عضلاتها خاضعة لي ، ولكني لا أستطيع التحكم في عضلات قلبي ومعدتي . وهذا التلميذ قد يكون ذكيا يدرس الدرس مرة فيحفظه ، ثم يلهو ويتسلى ، وقد يكون غبيا ، يدرس الليل والنهار ، فلا يفهم ولا يحفظ . وقد يكون بيته هادئا ، وأبوه عالما ييسر له أمر الدرس ، وقد يكون بيته صاخبا ، وأبوه جاهلا مشاكساً ، فلا يستطيع أن يدرس . فهو لا يملك منح نفسه الذكاء ، ولا يملك اختيار أبويه ، ولا انتخاب الزمان الصالح ليوجد فيه . ولا البيئة الصالحة ليمضى فيها طفولته . هذه كلها أمور لا يملكها الإنسان ، كما لا يملك أن يجعل أنفه أجمل ، وقامته أطول ، فهو من هذه الناحية مجبر .

حر مخير في حدود الطاقة البشرية :

فالإنسان حر مخير في حدود الطاقة البشرية ، وكونه مجبرا — في بعض الحالات — لا ينفي عنه صفة الحرية ، كالسيارة والصخرة ، لا ينكر أحد أن السيارة تمشي ولكن في حدود قوة محركها ، ومدى احتمالها ، فإن صنعت سيارة شحن لا يمكن أن تمشي بسرعة سيارة السباق وإن صنعت لتمشي على الأرض لا يطلب منها أن تصعد السلم ، ولا أن تخترق الجدار . إنها تسير على الطريق ، فإن عاق مسيرها عائق ، لم تفقد صفة القدرة على السير ، ولا تكون كالصخرة . وكذلك الإنسان ، تعترضه في الحياة عوارض تعطل إرادته ، وعوائق تحول وجهته ، وتؤثر فيه أمور لا يملك دفعها ولا إبدالها ، ولكن ذلك لا ينفي أنه حر ، فهو (إنسان حر) ، يتصرف ضمن الحدود الإنسانية ، وليس إلّهاً ليصنع ما يشاء .

الثواب والعقاب منوط بالحرية :

فإذا لم تكن حرية فلا عقاب ، المكره على فعل الشر لا يعاقب عليه ، والله إنما يؤاخذنا على ما نملك الخيار في فعله أو تركه ، للإنسان ما كسب . وعليه ما اكتسب ، لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، والله لا يضيع مثقال ذرة . وإذا كانت المحاكم البشرية ، بعدالتها النسبية ، تقدر ظروف المتهم ودوافعه ، وبيئته واستعداده ، وترى تقدير ذلك من العدل ، فهل يترك ذلك فى محكمة رب العالمين ، التي فيها العدالة المطلقة ، وهل يعاقب المذنب الناشىء من والدين فاسقين ، وبيئة فاسدة ، والذي عاش طفولة مهملة مشردة ، كمن أذنب الذنب نفسه ، وهو ناشىء في أفضل البيئات ، مولود من خير الآباء ؟

مقاييس العدالة :

على أن أكثر علماء الكلام قد أخطؤوا أكبر الخطأ ، حين طبقوا على الله مقاييس العدالة البشرية ، تنبهت إلى هذه الحقيقة بواقعة وقعت لي ، أسردها الآن فيها عبرة ، وإن لم يكن موضع سردها هذا الكتاب .

كنت سنة (١٩٣١) أدرّس في مدرسة ابتدائية في الشام ، وكنت في فورة الشباب وعنفوانه ، في رأسي خواطر ، وفي نفسي غرور ، وعلى لساني بيان واندفاع ، فعرضت لي شكوك في مسألة القدر ، كنت أسأل عنها العلماء ، فلا أجد عندهم الجواب الشافي لها ، فيدفعني الغرور إلى جدالهم وإزعاجهم . حتى جاء يوم كنت فيه في المدرسة ، وكنت أؤدب تلميذا بالضرب ، (وكان الضرب من وسائل التأديب في تلك الأيام) ، ففجر الولد وتوقح ، وجعل يصرخ ويقول : « هذا ظلم .. أنت ظالم . » !!

ثقوا يا أيها القراء ، أني لما سمعت ذلك سقطت العصا من يدي ، ونسيت الولد والمدرسة ، ورأيت كأني كنت في ظلمة فأضيء لى مصباح منير ، فقلت لنفسي : إن التلميذ يرى ضربي إياه ظلما ، وأنا أراه عدلا . والعمل واحد ، وإذا ذهب يشكو إلى أهله قالوا له : لا ما هذا ظلم ، هذا عدل ، إنه يضربك لمصلحتك . فإذا كان التلميذ لا يحق له أن يطبق مقاييسه الناقصة على عدالة المعلم . فكيف أطبق أنا مقاييسي البشرية للعدالة على الله .

ألا يمكن أن يكون الفعل الذي أراه ظلما هو عين العدل ؟ الولد المريض يرى الإبرة التي يدخلها الطبيب تحت جلده ظلما ، وهي في رأي أبيه عدل كل العدل ، لأن الولد نظر إلى ألمها ، والأب أبصر أثرها في شفاء الولد .

إن القاضي لا يستطيع أن يحكم في دعوى حتى يطلع على مراحلها كلها ، ووقائعها جميعا ، ونحن إنما نطلع غالبا على طرف من الواقع ، ونصدر أحكاماً خاطئة ، بعد دراسات ناقصة . لو تهت أنت ورفيقك في الصحراء ، فمرت سيارة فخمة ، دعاكما صاحبها ، وأركبكما فيها ، فأخرج صديقك سكينة فمزق جلد المقعد ، ألا تري عمله ظلماً ؟ إنه ظلم بلا شك ، ولكن إذا علمت أن أمامك عصابة من قطاع الطريق . كلما رأوا سيارة سليمة أخذوها ، وإن كانت ممزقة المقعد تركوها ، ألا يتحول هذا الفعل في نظرك من ظلم إلى عدل .

بل إن صاحب السيارة لو عرف هذه الحقيقة ، لمزق جلد مقعدها بنفسه لأنه يفضل أن تبقى السيارة له ، ومقعدها ممزق ، عن أن تذهب كلها وهي سليمة ؟ أليس هذا صحيحا ؟ هذه هي قصة الخضر وموسى ، لما ركبا في السفينة وخرقها ، ضربها الله مثلا ، نفهم منه ألاّ نسرع إلى إصدار الأحكام قبل الإحاطة بالوقائع .

مع النصوص :

لابد لي قبل الكلام على النصوص من التذكير بهذه القواعد :

١ ــ إن عمل العقل منحصر بفهم النصوص ، ولا يستطيع أن يدرك من نفسه حقيقة القدر بالتفصيل ، لأنه ــ كما قدمنا ــ عاجز عن الخوض فيما وراء المادة ، لذلك ينبغي اجتناب المباحث التي لم يوضحها النص .

٢ ــ أن نعرف أن الأصل هو القرآن ، فإن تعارضت آية منه وحديث من أحاديث الآحاد ، ولم يمكن التوفيق بينهما على شكل مقبول ، أخذنا بالآية[٦٤] .

٣ ــ أنه لا يمكن أن يكون في القرآن أو صحيح الحديث نص صريح ، ينكر وجود أمر واقع مشاهد ملموس ، لأن الذي أنزل القرآن هو الذي أوجد الواقع ، ولا ينفي ربنا ما أوجده .

٤ ــ إن كثيرا من النصوص التي يفهم منها الإجبار ، ونفي الاختيار عن الإنسان ، كقوله تعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ في الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾ .

فلا يملك الوليد الذي صور بنتا أن يجعل نفسه صبيا ، ولا الأسود اللون أن يصير لونه أبيض ، ومثلها قوله تعالى :

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ ما يَشَاءُ ويَخْتَارُ ، ما كَانَ لهمْ الخِيَرَةُ ﴾ .

---

(٦٤) من القواعد المعروفة عند أهل المصطلح : أن الرسول ﷺ لا يقول ما يناقض القرآن ، ولا ما يخالف الواقع المشاهد ، فإن روي عنه حديث مناقض للقرآن ، أو يخالف الواقع المشاهد ، نحكم أن الرسول لم يقله ، ولو روي بسند صحيح .

وما يشير إلى الأحداث الكونية التي هي فوق طاقة الإنسان كقوله :
﴿ أفَرَأَيْتُمْ ماتَحْرثُونَ ، أأنْتُم تَزْرَعُونَهُ أمْ نَحْنُ الزَّارعونَ ، لو نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامَاً ﴾ .

ومثلها :
﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بُضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إلا هُوَ ﴾ .

وما يدل على الظروف المؤدية إلى الصلاح أو الفساد ، وليست من صنع الإنسان ، كقوله :
﴿ وَنَفْسٍ وما سَوَّاهَا ، فَألْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ .

ومن الآيات التي جاءت فيها كلمة الهداية بمعنى الدلالة والإرشاد، كقوله : ﴿ وهَديناهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ .
وقوله :
﴿ إنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ ، إمّا شَاكِراً ، وإما كفُورَا ﴾ .

الذي ظهر لى : أن أكثر هذه النصوص ، تشير إلى الأمور التى تؤثر في صلاح الإنسان وفساده بعض التأثير ، وليست من صنعه ، وقد قدمت القول بأن الله لا يؤاخذ العبد عليها ، ولا يمكن أن يجبر الله عبده على أمر بحيث لا يستطيع تركه ثم يعاقبه عليه .

هذه هي النصوص التي وقف عندها أصحاب الفرق المنحرفة ، فأساؤوا فهمها ، وأخطؤوا في تطبيقها . وكان عليهم :

١ ــ التفريق بين آيات الإخبار عن مشيئة الله وقدرته ، وتصرفه في ملكه ، والآيات المتعلقة بالثواب والعقاب .

٢ ــ اعتبار مجموع النصوص لا الوقوف عند أفرادها ، ومن تتبع مجموع النصوص رأى أن القران يثبت للإنسان الحرية والإرادة ، اللتين يترتب عليهما الثواب والعقاب .

فمن يقرأ قوله تعالى عن القرآن :

﴿ يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً ، وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً ﴾ .

يفهم منه بادي الرأي [٦٥] ، أن الهدى والضلال أمر مقرر ، قدره الله على العباد ، فجعل هؤلاء ضالين ، وهؤلاء مهتدين . ولكن إذا انتبه إلى قوله تعالى :

﴿ هُدَىً لِلْمُتَّقِينَ ﴾

وقوله :

﴿ وما يُضِلُّ بِهِ إلا الفَاسِقِينَ ﴾ .

علم أن الهدى والضلال ليس إلزاما من الله ، ولكنه تبع لحالة المرء ، فإن كان متقيا ، كان القرآن هدى له ، وإن كان فاسقا ، كان له ضلالا .

وتبقى مع ذلك الشبهة قائمة ، فيقول القائل : وما يدريني إذا كان الله قد جعلني مع المتقين أو جعلني مع الفاسقين ؟ فإذا انتبه إلى قوله تعالى :

﴿ لِلْمُتَّقِينَ الَّذينَ يُؤْمِنُونَ بالغَيْبِ ويُقِيمُون الصّلاةَ ، ومِمّا رَزَقْناهُمْ يُنْفِقُونَ . . ﴾ .

وقوله :

﴿ إلا الفَاسِقِين الذينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ الله مِنْ بَعْدِ ميثَاقِهِ ، وَيَقْطَعُونَ ماأمَرَ الله بِهِ أنْ يُوصَلَ ، ويُفْسِدُونَ في الأَرْضِ ﴾ .

علم أن المسألة ليس فيها إجبار ، وأن مردها إلى صفات وأعمال داخلة في نطاق حرية الإنسان وطاقته .

فأنت تستطيع أن تؤمن بالغيب وتقيم الصلاة ، وتنفق في سبيل الله ،

---

(٦٥) في قولك : بادي الرأي ، وبادىء الرأي ، أي : من النظرة الأولى ، ومن أول وهلة .

وتستطيع أن تنقض العهد وتقطع الموصول ، وتفسد في الارض . أمور في طاقتك عملها ، وفي إمكانك تركها ، فإن عملت الثلاث الأولى ، كنت بذلك من المتقين ، فاستحققت الهداية ، وإن عملت الثلاث الأخرى ، كنت بذلك من الفاسقين ، فاستحققت الضلال .

بحث عقيم :

وهنا يرد قولهم : هل عملت السوء بمشيئة الله أم لا ؟ هل كنت أستطيع ألا أعمله ؟ وهل خلقت أنا عملي ؟ وأمثال هذه الأمور التي ملأ بحثها كتب علم الكلام . وذلك كله بحث عقيم ، لأن الخالق لا يقاس على المخلوقين ، والعقل لا يحكم على الله وصفاته .

والله لا يسأل عما يفعل ، وإنما يسألنا عن أفعالنا ، والله عادل لا شك في عدله . وخير لنا أن ننظر إلى أنفسنا ، وأن نحسن استعمال عقولنا ، ونعمل على توجيه إرادتنا إلى الخير ، وندع المباحث المتعلقة بالله ، التي لم يتكلم فيها السلف ولا شغلوا أنفسهم بها .

الاحتجاج بالقدر :

ومن العصاة من يحتج لعصيانه بالقدر ، تقول للزاني : لم زنيت ؟ فيقول : لأنه قدر علي ! وهي حجة واهية ، مردودة من وجهين :

١ ــ لأن الحساب والعقاب يكون على العمل ، وعلى الدوافع إليه والبواعث عليه . وهذا الزاني لم يطلع على اللوح المحفوظ ، ويَرَ أن الزنا مكتوب عليه ــ كما يزعم ــ ويذهب ليزني تنفيذا لحكم القدر ، وإنما تبع الشهوة ، وطلب اللذة العاجلة ، واستجاب لنداء الشيطان .

وقد احتج المشركون بمثل هذه الحجة فقالوا :

﴿ لَوْ شَاءَ الله ما أَشْرَكْنَا ﴾

فرد الله عليهم بقوله :

﴿ قُلْ هلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ؟ ﴾ .

أي : من أين عرفتم قبل أن تشركوا أن الشرك مقدر عليكم ؟ وهل جربتم الإيمان فوجدتم أنه ممتنع عليكم ؟ .

٢ ــ أن لو كان هذا المحتج بالقدر صادقا ؛ لرضي بكل مايقدره الله عليه ، من فقر ومرض وجوع ، وفقد حبيب ، وذهاب مال ، والمشاهد أنه لايرضى بذلك ، وهو مقدر عليه ، ولايسكن إليه ، بل هو يعمل لجمع المال ، ودفع المرض ، وإذهاب الجوع ، ويألم لفقد الحبيب ، وذهاب المال ، فلماذا سخر قواه كلها ، واستعمل عواطفه لجلب لذة الدنيا ، ودرء الألم فيها ، ولم يسخر عقله لقمع الشهوة ، ومنع النفس من الحرام الذي ترغب فيه ، وهو يعلم ما في عقبه من العذاب ؟

نحن والسلف أمام عقيدة القدر :

خصوم الإسلام يتهمون المسلمين اليوم بالتواكل والتكاسل ، لأنهم يؤمنون بالقدر . وإن كان في هذه التهمة بعض الحق ، كان السبب فيها سوء فهم كثير من المتأخرين لعقيدة القدر . لقد اتخذها كثير من المسلمين الجاهلين حجة لارتكاب المعاصي ، وسبباً للكسل والخمول ، مع أن سلفنا قد اتخذوا منها دافعاً إلى العمل والجهاد .

قرأنا أن الرزق مقسوم ، « ماكان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك » ، فظن قوم أن مقتضى ذلك ترك الكسب ، وإهمال السعي ، وأن نقعد بلا عمل ، وننتظر أن تمطرنا السماء ذهباً وفضة ، وأن نسافر بلا مال ولا استعداد ... وقرأ ذلك السلف ، ففهموا منه أن عليهم أن يعملوا كل مافي وسعهم ، وأن يبذلوا لجمع المال من الحلال كل ما في طاقاتهم ، ثم إذا استفرغوا الجهد رضوا بماجاءهم ، فلم يسخطوا على ربهم ، ولم يحملوا الحسد لمن نال من إخوانهم أكثر مما نالوا ، ولم يبطرهم الغنى ولم يؤلمهم الفقر .

وسمعنا أن الأجل محتوم ، فاتخذنا ذلك سبباً لإهمال التوقي

والاحتياط ، وإضاعة المسؤوليات ، والخلط بين الجريمة المتعمدة وبين القدر الذي وقع بلا جرم[٦٦] ، وسمع ذلك أجدادنا فقالوا : إذا كان الأجل محتوما لا يموت أحد قبل موعده ولو خاض اللهب وتلقى بصدره الرماح ، ولايتأخر عن موعده ولو اعتصم في حصن له سبعة أسوار ، فلنعمل لما يرضي الله ، نجاهد بأنفسنا في سبيل الله ، لا نخشى الموت لأن الموت محتوم ، له موعد لا يسبقه ولا يتأخر عنه . ولنجاهد بألسنتنا في إنكار المنكر ، ومواجهة الطاغي الظالم بكلمة الحق ، فأقبلوا لا يخشون في الحق أحدا ، ولا يخافون شيئا إلا الله .

وفهمنا أن كل شيء مقدر ، وأهملنا دراسة سنن الله في الكون ، وقوانين الطبيعة التي جعلها ربنا سبباً للنفع والضرر ، وكان سلفنا هم علماءَها[٦٧] ، وهم الذين يعرفونها ويستفيدون منها ، فكان من نتيجة ذلك أن هبطنا من الذروة إلى الحضيض ، ونزلنا من الأعالي إلى الأسفل . وكانوا بالإيمان سادة الدنيا وقادتها وأساتذتها ، فصرنا المسودين المقودين ، وفتحوا بسيف الحق ثلث العالم المتحضر ، وفتح عدونا بسيف الباطل قلب بلادنا .

سبب تقديس الأموات :

ولما رأينا (أي رأى بعضنا) أن حياتنا كلها قد فسدت ، وأن الأحياء منا قد ذلّوا وذكرنا عز الأجداد وصلاحهم ، تحوّل يأسنا من الحاضر إلى أمل بالماضي ، وصَغَار أحيائنا إلى تعظيم أمواتنا ، فنشأت من هنا مظاهر تقديس الأموات ، والاعتماد عليهم ، وانتظار المدد منهم . نظن أن نجاحهم وخيبتنا ، تمكنهم من إمدادنا ، فصرنا نقيم الأضرحة الفخمة ، والقباب العالية عليها ،ونبدي من التقديس لها ، ما رجع بنا إلى قريب من عقائد الجاهلية ، وصرنا ننذر لهذه القبور ، ونتوسل بها التوسل الممنوع ، وربما طلبنا من

---

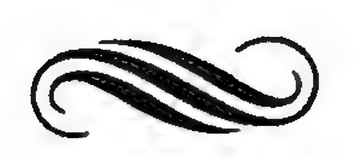
(٦٦) يسرع السائق حتى إذا اصطدم ، قال : إنه القدر ، ويهمل التلميذ ، فإذا رسب ، احتج بالقدر .
(٦٧) (هم) تأكيد ، و (علماءها) خبر كان .

أصحابها النفع والضرر ، بلا أسباب ظاهرة ، ولا واسطة ملموسة . وكل ذلك (رد فعل) لسوء حاضرنا ، وجلال ماضينا .

خلط لا مبرر له :

وكل ذلك جر إليه الفهم الخاطىء منا لعقيدة القدر ، هذا الفهم الذي جعل منا من يخلط بين النصوص الواردة في الأمور الإرادية ، التي نملك التصرف فيها ، والأمور التي جعلها الله فوق إرادتنا ، وأعلى من أن تصل إليها طاقاتنا ، ونشأ هذا الخلط العجيب في المذاهب الكلامية . فمن مدعٍ أن الإنسان مسير لا إرادة له ، لأنه لا يستطيع أن يتحكم في عضلة قلبه مثلا ، ولا عمل له في اختيار أبويه ، وانتخاب بيئته الأولى ، ونسوا أن الله أعطاه عضلات يتحكم فيها ، وأعطاه عقلا يستطيع به أن يصحح (على قدر الإمكان) أخطاء بيئته وآثار تربيته .

وتوسع آخرون ، وأعطوا إرادة الإنسان أكثر مما لها في الواقع ، وخلطوا تبعا لذلك في أمر الثواب والعقاب ، ونسوا أن الله لا يحاسب الإنسان إلاّ في حدود حريته وقدرته ، ولا يؤاخذه على ما أكره عليه ، وتَخبّطوا في البحث عن عدالة الله ، ونسُوا الحقيقة الأولى ، وهي أن عدالة الله لا تقاس بمقياس العدالة البشرية . وطريق السلامة في عقيدة القدر وفي سائر العقائد ، أن نعود فيها إلى المنبع الأصلي : القرآن . وأن نتبع فيها ما كان عليه السلف من الصحابة والتابعين ، وأن ندع هذه البحوث العقيمة التي أثارتها الدراسة الناقصة ، للفلسفة اليونانية البدائية السطحية .



الإيمَان بالغيب

عالم الغيب :

قدمنا فى (قواعد العقائد) أن الحواس لاتصل إلى إدراك كل موجود ، وأن في الوجود عوالم حقيقية ، لا ندركها بحواسنا ، أقربها إلينا الروح التي يحيا بها كل واحد منا ، من ينكر وجود الروح ؟ لا أحد . من أدرك (ماهية الروح ؟ لا أحد . فالعالم المدرَك المشاهد ، هو الذي سماه القرآن، (عالم الشهادة) ، والعالم المغيب عن حواسنا — عالم ما وراء المادة « metaphysique » — هو عالم الغيب .

أما عالم الشهادة فيستوي في الإيمان به ، والتصديق بوجوده الناس جميعاً ، حتى الحيوان الأعجم يدرك بحسه وجودَه . فلا فضل في الإيمان به لأحد على أحد ، لأن ذلك من (العلم الضروري) . ولكن الفضل ، في الإيمان بالغيب ، فيمن يؤمن بما لايراه ويصدق بوجوده ، اعتمادا على صدق الخبر به .

وهذا ما يمتاز به المتقون ، ولذلك جعل الله أول صفة وصف بها المتقين ، في أول سورة البقرة ، أنهم

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ .

كيف نؤمن بالغيب ؟

كيف نؤمن بالغيب ولم يعطنا الله الحواس التي ندركه بها ؟ إننا لو تركنا لحواسنا نعتمد عليها وحدها ، ولعقولنا نحكم بها على ماجاء من طريق الحواس فقط ، لبقينا على جهلنا بما وراء المادة ، فكان من حكمة الله ، ومن رحمته بنا ، أنه لم يترك العقل في عجزه عن إدراكها ، بل أخبره بما يحتاج إليه من خبرها .

وهذا الإخبار لا يأتي من داخل النفس بل من خارجها ، وليس من قبيل الحدس النفسي ، ولا الإلهام الروحي ، ولا الوميض الذهني ، ولا الاستنتاج العقلي . ليس صادراً عن الطاقة الإنسانية ، ولكنه آت من خارجها بطريق من الطرق الثلاثة :

الأول ــ أن يضع الله هذه الأخبار في الإنسان ، بإلهام أو بمنام ، أو بنوع من التلقي الذي لا عمل فيه للإنسان ، ولا يستطيع الوصول إليه باجتهاد ، فيحس بها ، ويعبر عنها .

الثاني ــ بأن يسمعها من غير أن يرى قائلها الحقيقي ، فتصل إلى أذنه ويدركها ويعيها .

الثالث ــ (وهو الأعم الأكثر) أن يرسل الله واحدا من مخلوقاته الخيرة ، المطيعة المغيبة عنا ، التي تسمى الملائكة ، إلى واحد من البشر ، يختاره الله ويصطفيه ، فيبلغه رسالة الله ، ويأمره أن يبلغها الناس .

فهذه ثلاثة طرق ليس لها رابع .

﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللهُ إلا وَحْياً ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ ما يَشَاءُ ﴾ .

الغيب الذي يجب الإيمان به :

والغيب الذي هو ركن الإيمان ، والذي يكفر منكره ويخرج من ملة الإسلام ، هو ما جاء في القرآن . أما الغيب الذي ورد في السنة الصحيحة ، فلا يكفر منكره ويخرج من الملة ، بل يفسق .

وهذا الفرق بين الكتاب والسنة يحتاج إلى شيء من البيان . ذلك أن ما أبلغه الرسول ﷺ من الوحي ، وما نطق به من الحديث ، هما في الأصل في درجة واحدة من الحجيه [٦٨] . فالقرآن وحي من الله بلفظه ومعناه ، والحديث

---

(٦٨) أي في قوة الاحتجاج بهما .

وحي من الله بالمعنى ، واللفظ لفظ الرسول ، قال تعالى :

﴿ وَمَا يَنْطِقُ عنْ الهَوَى ، إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾

والصحابة الذين سمعوا من الرسول ﷺ الآية يبلغها ، والحديث ينطق به ، لم يكونوا يفرقون بينهما ، في وجوب العمل ، وفي الحجية .

ولكن الفرق نشأ من الرواية والنقل ، فالقرآن نقل نقلا متواترا ، بحيث نجزم بأن النص الذي في المصحف ، هو الذي نزل به جبريل على محمد ﷺ ، وهو الذي بلغه محمد أصحابه ، ما نقص منه شيء[٦٩] ولا زيد فيه شيء ، ولا أبدل منه شيء . أما الحديث فنقل جله (إن لم نقل كله) آحاد عن آحاد ، ولقد بذل علماء الحديث في تمحيص روايته ، والفحص عن رجاله ، أقصى ما تصل إليه الطاقة البشرية ، ولكنا لا نقطع مع ذلك بأن الحديث الذي رواه (البخاري) و (مسلم) وأصحاب السنن ، قد قاله ﷺ ، وأنه نقل بلفظه ، كما نقطع بأن ما في المصحف هو القرآن المنزل .

ولما كانت العقيدة أساس الدين ، ويترتب على الإخلال بها الكفر والردة ، وكان لا يحكم على مسلم بالردة مادام في الأمر احتمال ألا يكون كفر .

لذلك قلنا إن من أنكر عقيدة جاءت بصريح القرآن يكفر ، ومن أنكر عقيدة وردت في صحيح السنة يفسق ولا يكفر ، هذا إن ردها عنادا وخلافا ، أما إذا كان من أهل الحديث ، العارفين بعلله ، ورد الحديث لعلة في سنده أو متنه ، فلا شيء عليه .

المغيبات :

المغيبات التي أخبر بها الشرع ، ويجب بها الإيمان ، ويترتب على

---

(٦٩) ومن اعتقد من أتباع الفرق المنسوبة إلى الإسلام ، أن الذي في المصاحف ليس القرآن كله ، وأن من القرآن ما ليس في المصاحف التي يتداولها المسلمون ، كفر وخرج من ملة الإسلام ، إلا ما كان من الآيات التي قال قوم أنها منسوخة التلاوة ، ولم يثبت ذلك بخبر متواتر .

إنكارها الكفر ،هي الملائكة والجن ، والكتب والرسل ، واليوم الآخر ، وما فيه من الحساب ، وما بعده من الثواب والعقاب ، والقدر ، وما جاء في القرآن ، عن خلق السموات والأرض ، وخلق الإنسان ، وكل ما أخبر به القرآن .

شبهة وردها :

الماديون الذين لايؤمنون إلا بما يحسون به ، نرد عليهم بالقاعدة الثالثة من قواعد العقائد التي تبين أنه لا يشترط من عدم الوجدان عدم الوجود ، وأنه لا يحق لنا أن ننكر أشياء لمجرد أننا لا نحس بوجودها ، وبالقاعدة التي بينّا فيها أن الخبر الصادق يفيد اليقين ، كما يفيده الحس ، وما دام قد ثبت صدق محمد ﷺ في إخباره عن الله ، وثبت نقل هذا الخبر إلينا فقد حصل من هنا اليقين لدينا معشر المؤمنين بوجود هذه المغيبات .

أقسام الغيب :

عالم الغيب على أقسام ، كل قسم منها يسمى غيباً :

١ ـــ قسم لم ندركه نحن ، ولكن أدركه غيرنا من البشر ، كقصة يوسف مثلا، سماها الله غيباً لأن محمد ﷺ وقومه لم يدركوها بحواسهم ، لم يروها ولم يسمعوا بها ، ولكن بني إسرائيل ، (أعني أولاد يعقوب) يوسف وإخوته ، أدركوها وعاشوها ، وكانت هي وقائع حياتهم .

٢ ـــ وقسم لم يدركه البشر ، وإن كان من الممكن عقلا أن يدركوه لو قدم الله موعد إيجادهم ، كالحوادث التي كانت في الأرض من قبلهم ، وأخبار المخلوقات التي كانت تسكنها ، ولكنهم لم يعرفوا عنها في الواقع ، وعن أخبار خلق أبيهم آدم ، وبداية الحياة البشرية ، إلا ما جاءهم علمه من طريق الوحي .

٣ ـــ وقسم لا يمكن إدراكه بالحواس ، ولا الحكم عليه بالعقل ، ولا الإحاطة بحقيقته بالخيال ، كصفات الله ، وما غيبه عنا من مخلوقاته ،

كالملائكة والجن والشياطين ، وأحوال يوم القيامة ، وما بعده من الحساب والثواب والعقاب .

شبهة وردها :

قد يقول قائل : إن من أمور الغيب التي استأثر الله بها ، إنزال الغيث والعلم بما في الأرحام ، فكيف تخبر النشرة الجوية عن جو الغد ، أصحو أم ماطر ؟ ويكشف العلم عما في بطن الحامل : هل هو ذكر أم أنثى ؟

والجواب :

١ ــ إن الذي أنزل القرآن هو الله ، وإن الذي خلق الكون وما يقع فيه هو الله ، فلا يمكن أن يأتي في القرآن نص صريح قاطع بإنكار أمر قائم مشاهد ملموس ، وإذا وجدنا نصاً يظهر منه أنه مخالف للواقع ، ندقق النظر فيه ، فنرى أن المعنى المقصود منه غير ما بدا لنا (٧٠) .

٢ ــ النشرة الجوية إنما تخبر عن المطر بعد رؤية أسبابه ، وتمام خلقه ، وبيان ذلك أن المطر الذي ينزل في سواحل الشام مثلا ، تبين (من العلم بسنن الله في الكون) ، أن سببه الهواء الذي يجيء من البحر الأطلسي ، فيمر بمضيق جبل طارق ، فيصطدم بكتلة هوائية راكدة ، فتشكل السحب من اختلاف درجة حرارة الهواء القادم والهواء الراكد ، فإذا رأوه علموا استناداً إلى معرفة سنن الله ، أنه سيتوجه إلى ساحل الشام بعد كذا .

فهو كمن شاهد موزع البريد من نافذته ، وقدر متى يصل إلى داره ، فقال لأهله : سيأتي موزع البريد بعد خمس دقائق ، وكمن يحمل منظاراً يضعه على عينيه ، فيرى السيارة القادمة فيخبر بها قبل ظهورها للعيان .

---

(٧٠) وهذا ، إذا كان النص آية من القرآن ، وليس في القرآن آية تدل دلالة قطعية على نفي أمر حكم العقل بوجوده حكما قطعياً . وأما إن كان النص حديث آحاد (أي نقله واحد عن واحد) . فإننا نجزم أن الرسول لم يقله ، ولو نقله رجال الصحيح ، لأن الرسول صلوات الله عليه لا يقول ما يخالف الواقع المحسوس .

ما علم في الحقيقة الغيب ، ولكن رأى الواقع قبل أن يراه غيره ، ومثله من يخبر عن نوع الجنين بعد تشكيله ، وأما إنشاء السحاب ، وإنزال المطر في أرض كتب الله عليها الجفاف ، ومنعه عن أرض أنزله الله عليها ، ومعرفة جنس الجنين ، وهو لا يزال حويناً منوياً ، أو حويناً صادف بويضه ، فهذا هو المراد من الآية والله أعلم .



الإيمان بالملائكة والجنّ

الإيمان بالملائكة والرسل والكتب من أسس العقائد ، التي لا يكون الإنسان مؤمناً إلا بها ، والملائكة رسل الله إلى الأنبياء ، والأنبياء رسل الله إلى الناس ، والكتب هي الرسالة التي حملها الملك إلى الرسول ، ونقلها الرسول إلى الناس .

الوحي وإمكانه ولزومه :

الوحي ممكن عقلاً ، لأن الله قادر على خلق الملائكة ، واصطفاء الرسل ، وشرع الأحكام ، لا يمنع العقل ذلك ، بعد أن آمن بوجود الله ، وقدرته وإرادته . وهو واقع فعلاً ، لأن الخبر الصادق ورد به ، وقد قدمنا أن الخبر الصادق طريق من طرق العلم (بمعنى اليقين) ، وأننا نوقن بما نصدق الخبر به كما نوقن بما نراه ونسمعه . وهو لازم إذ لولاه لاقتصر البشر على عالم المادة ولجهلوا ما وراءه ، ولكانوا كالأنعام والمواشي ، يعيشون لدنياهم وحدها ، لا يعرفون إلا الطعام والنكاح ، واللذائذ الجسدية ، لا يتصلون بربهم ، ولا يعملون لآخرتهم .

ولولاه لفقدوا السمو الخلقي ، والرفعة الإنسانية . ومهما أوردوا من نظريات في علم الأخلاق « La moiale »، وفي الأساس الذي تبنى عليه ، فإن الأخلاق إذا لم تبن على أساس من العقيدة ، كان بناؤها على كثيب من الرمل ، لأن الإنسان مفطور على حب نفسه ، وجلب النفع لها ، ودرء الأذى عنها ، فلا يعمل عملاً لا يكون له فيه لذة أو كسب [٧١] .

---

(٧١) انظر كتاب الحكم (Maximes) لمؤلفه (Laroche Faucold) لاروشفوكلد .

ولو أن رجلاً لا يملك إلا ديناراً يدخره لعشائه ، ورأى صندوقاً لمساعدة الأيتام ، هل يضع الدينار في الصندوق إذا كان لا يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويبيت طاوياً ولا يخبر بذلك أحداً ، ولا يدع أحداً يراه ؟

أما المؤمن فإنه يضعه في الصندوق لأنه يعلم أن الله يراه ، ويعطيه بدله سبعمئة دينار يوم القيامة . المؤمن وحده هو الذي يعمل الخير ، رآه الناس أم لم يروه ، شكروه أم لم يشكروه ، أثابوه وعوضوه عنه أم لم يثيبوه ولم يعوضوه .

المؤمن وحده هو الذي يدع فعل الشر ، سواء أكان وحده أم كان مع الناس ، أما الذي يعمل الخير للثناء أو للعطاء ، فلا يعمله إلا إذا وجد من يثني عليه ويعطيه . والذي يدع الشر خوف الفضيحة ، أو خشية العقاب ، لايدعه إن أمن أن يبصره الشرطي ، أو يراه الناس . ولو حاسب الله الناس في الآخرة على ذنوبهم . ولم يرسل إليهم رسلاً يعرفونهم شرع ربهم ، لاحتّجوا وقالوا :
﴿ رَبَّنَا لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ ﴾ .

ولا دَّعوا أنهم لو بلغوا الرسالة لعملوا بها ، ولو عرفوا الشريعة لاتّبعوها فكانت الرسالات :
﴿ لئلا يَكُونَ للنَّاسِ على اللهِ حُجَةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ .

شبهة وردها :

يقول ناس : لماذا لم يهد الله الناس كلهم إلى طريق الجنة ؟ ولماذا وضع في نفوسهم الشهوة ثم عاقبهم على الزنا ؟ وغرز فيهم حب المال وحاسبهم على جمعه من غير الحلال ؟ والجواب : إن هذا القول ، كقول طلاب المدرسة ، لماذا لا يعطوننا أسئلة الامتحان من أول السنة ، ولماذا أخفوها عنا ، وكلفونا الاستعداد لها ؟ إنهم أخفوها ليجدّ الطالب ويقرأ المقرر كله ، ولو أعطيناه أسئلة الامتحان من الآن ، لما بقي معنى للامتحان .

والدنيا دار ابتلاء ، والابتلاء في لغة العرب الاختبار (الامتحان) ، ليتميز

الطائع من العاصي ، والمستقيم من المنحرف ، ولولا حواجز السباق[٧٢]، لما بان الخائر الضعيف من الفارس المغوار .

ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ، ولو أراد لخلقهم للطاعة الخالصة كما خلق الملائكة ، ولكن هكذا شاء ، ولا رادَّ لما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل ، ونواصينا بين يديه ، ونحن ملك له راجعون إليه ، ما لنا رب غيره ولا إله سواه ، إن شاء عذبنا وإن شاء عفا عنا ، ونحن نسأل الله عفوه ورحمته ، ونعوذ به من عذابه ، لأننا لا نستطيع أن نتخلص من عذابه إلا بعفوه ، ولا نستطيع أن ننال العفو إلا منه وحده .

الملائكة :

وجود الملائكة ثابت وارد في القرآن ، فمن أنكر شيئاً مما ورد في القرآن من خبرهم كفر ، والذي ورد من خبرهم وصفتهم في القرآن هو :

١ ــ أنهم خلقوا قبل البشر ، وخبرهم ربنا أنه :

﴿ جاعلٌ في الأرضِ خليفةً ، قالوا : أتجعلُ فيها منْ يُفْسِدُ فيها ويسفكُ الدماءَ ﴾ ؟ .

٢ ــ أنهم خلقوا للطاعة الخالصة :

﴿ ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ .

فهم :

﴿ لا يَعْصُونَ اللهَ ما أَمَرَهُمْ ، وَيَفْعلُونَ ما يُؤْمَرُونَ ﴾ ﴿ ويُسَبِّحُونَه وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ . ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدَ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ .

٣ ــ وأن الله لما أتم خلق آدم ، علمه الأسماء[٧٣] وامتحنهم بالسؤال عنها فلم يعرفوها حتى أعلمهم آدم بها ، فلما بان فضله بذلك عليهم ، أمرهم بالسجود له ، سجود تحية لا سجود عبادة .

---

(٧٢) أي سباق الخيل .

(٧٣) لم يبين الله ما هي هذه الأسماء ، لكن الظاهر أنها أسماء الملائكة ، أو أسماء الأشياء الموجودة يومئذ ، ولم يبين اللغة التي علمه الأسماء بها .

٤ ــ أنهم يتشكلون بأشكال مادية أحياناً ، ويظهرون بصورة بني آدم ، ففي قصة مريم :

﴿ فأرْسَلْنا إليها رُوحَنا فَتمثَّلَ لَها بَشراً سَوِيّاً ﴾ .

وضيوف إبراهيم كانوا ملائكة جاؤوا على صورة البشر ، فقدم إليهم عشاءهم من لحم عجل سمين :

﴿ فلما رَأى أيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إليه ، نكِرهُمْ وأوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً . قَالُوا : لا تَخَفْ إنَّا أُرْسِلْنَا إلى قَوْمِ لُوطٍ ﴾ .

٥ ــ وأن مقرهم السماء ينزلون منها إلى الأرض[٧٤] بأمر الله :

﴿ ما نَتنَزَّلُ إلا بِأمْرِ رَبِّكَ ﴾ .

٦ ــ وأنهم درجات وأصناف في أصل الخلقة وفي مقام العبودية ، جعلهم الله :

﴿ رسُلاً أولِي أجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُباعَ ، يَزِيدُ في الخَلْقِ ما يَشاءُ . ﴾
﴿ وَما مِنَّا إلا لَهُ مَقامٌ مَعْلُومٌ ﴾ .

فمنهم من ينزل بالوحي وهو جبريل :

﴿ قُلْ مَنْ كانَ عَدُوّاً لِجبْرِيلَ ، فإنَّهُ نَزَّلَهُ عَلى قَلْبكَ بإذْنِ الله ﴾ . ﴿ وإنه لَتنزيلُ ربِّ العالمينَ نَزَلَ به الروحُ الأمينُ على قلبكَ لتكونَ من المُنذِرين ﴾ .

ومنهم ملك الموت[٧٥] الموكل بقبض الأرواح :

﴿ قُلْ يَتوفَّاكُمْ مَلَكُ المَوْتِ الذي وُكِّلَ بِكُمْ ﴾ .

ومنهم الذي ينفخ في الصور ، ومنهم ميكال (ميكائيل) ، ومنهم حملة العرش :

﴿ والَّذينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ ﴾ . ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمانِيَةٌ ﴾ .

---

(٧٤) إذا كان في النجوم ما يحتاج الوصول إليه إلى مليار سنة ضوئية . والسماء بعد النجوم كلها قطعاً فبأي سرعة كانوا ينزلون ؟ إن العقل يعجز عن تصور هذه السرعة !

(٧٥) لم أجد (على كثرة ما بحثت) نصاً من كتاب أو سنة ثابتة أن اسمه « عزرائيل » .

ومنهم الموكلون بتنعيم أهل الجنة :

﴿ والمَلائِكَةُ يَدْخُلون عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ، سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ .

ومنهم المكلفون بتعذيب أهل النار :

﴿ عليها ملائِكَةٌ غِلاظٌ شِدادٌ ﴾ .

ومنهم من يسجل على الإنسان أعماله :

﴿ ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاَّ لَدَيْه رَقيبٌ عَتِيدٌ ﴾ . ﴿ وإِنَّ عَلَيْكُم لَحافِظِينَ، كِراماً كَاتِبِينَ ﴾ .

ومنهم من يسوق الإنسان للحساب يوم القيمة ومن يشهد عليه :

﴿ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سائِقٌ وَشَهِيدٌ ﴾ .

٧ ـــ ومن أعمالهم التي خبر القرآن عنها ، أنهم يثبتون المؤمنين في المعارك :

﴿ إذ يُوحِي رَبُّكَ إلى المَلائِكَةِ أنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذينَ آمَنُوا ﴾ .

وأنهم يدعون لهم ، ويصلون عليهم ، ويستغفرون لهم : ﴿ هو الذي يصلي عليكُمْ وملائِكَتُهُ ﴾ . ﴿ ويستغفرونَ للذين آمَنوا ، ربّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيءٍ رحمة وعِلْماً ، فاغفِرْ للذين تابوا واتَّبعوا سبيلَكَ ، وقِهِمْ عذابَ الجحيم ، ربَّنا وأدخِلْهُمْ جناتِ عدنٍ التي وعدْتَهمْ ، وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وأزواجِهِمْ وذُرِّياتِهِمْ . إنَّكَ أنتَ العزيزُ الحكيمُ ، وقِهِمُ السيئاتِ ، وَمَنْ تَقِ السيئاتِ يومَئِذٍ فقدْ رَحِمْتَهُ ﴾ . ويشهدون صلاة الفجر مع المؤمنين :

﴿ إنَّ قُرآنَ الفَجْرِ كانَ مَشْهُوداً ﴾ .

ويبشرون المؤمنين عند الموت ويؤنبون العاصين :

﴿إنَّ الَّذينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ، تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الملائِكَةُ ألاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا ، وأبْشِرُوا . . ﴿إنَّ الَّذينَ تَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ ظَالِمي أنْفُسِهِمْ ، قالُوا : فِيمَ كُنْتُمْ ﴾ . ﴿ ولَو تَرَى إذْ يَتَوَفَّى الَّذينَ كَفَرُوا الملائِكَةُ ، يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وأدْبَارَهُمْ ﴾ .

ويسوقونهم من بعد إلى النار ، ويوبخونهم :

﴿ وَسِيقَ الَّذين كَفَرُوا إلى جَهَنَّمَ زُمَراً ، حَتَّى إذا جَاؤُوها فُتِحَتْ أَبْوابُهَا ، وقال لَهُمْ خَزَنَتُهَا : أَلَم يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكم ، وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ؟ قَالُوا : بَلَى ، وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ العَذابِ عَلَى الكَافِرِينَ . قِيلَ : ادْخُلوا أَبْوابَ جَهَنَّمَ خَالِدينَ فِيها ، فَبِئْسَ مَثْوَى المُتَكَبِّرِينَ ﴾ . ويستقبلون أهل الجنة ويرحبون بهم ﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إلى الجَنَّةِ زُمَراً ، حَتَّى إذا جَاؤُوهَا وفُتِحَتْ أَبْوابُهَا ، وَقالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ ، طِبْتُمْ فادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ .

وأنهم لا يتناكحون ولا يتناسلون ، ولا يوصفون بذكورة ولا أنوثة .

هذا جل ما جاء في القرآن من خبر الملائكة ، وفي السنة الصحيحة كثير من أخبارهم . جاءت فى أحاديث آحاد ، لكن صحت روايتها ، وثبت سندها . ومن أنكر شيئاً مما ورد فى القرآن عن الملائكة أو غيرهم كفر .
والإيمان بالملائكة أحد أركان العقائد الإسلامية :
﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ، والمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللهِ ، وَمَلائِكَتِهِ ، وكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ . . . ﴾ .

ثمرة الإيمان بالملائكة :

ازدياد الشعور بعظمة الله ، واستشعار رحمته ، إذ وكل الملائكة بالدعاء للمؤمنين والاستغفار لهم . والتحرز عما أمكن من المعاصي ، حين يتذكر أنهم يسجلون عليه كل ما يقوله ويفعله . والإقدام والشجاعة فى الجهاد ، حين يتصور أنهم يؤيدون المجاهدين ، بأمر رب العالمين . والعمل للجنة ليكون ممن يسلمون عليه .. والبعد عن أسباب دخول النار لئلا يكون ممن يوبخونه . ومن ثمراته الإجمالية التشبه بهم في لزوم الطاعة ، واجتناب العصيان ، وتقوية الجانب الملائكي في الإنسان .

الجن :

خبّر الله في القرآن ، بأنه خلق خلقاً آخر ، تعجز عيوننا عن رؤيتهم على صورهم الأصلية . كما تعجز عن رؤية الملائكة ، ورؤية الأشعة التى هي فوق

البنفسجية وتحت الحمراء ، ورؤية الموجات الصوتية ، ورؤية التيار الكهربائي ، وهو يمشي في سلك النحاس ، وهذا الخلق هو الجن .

والذي يجب الإيمان به ، ويكفر منكره ، هو ما جاء من أخبارهم في القرآن ، وإن لم يخصصه الله بالذكر ، ويجعله من أركان الإيمان صراحة كالإيمان بالملائكة .

الجن في القرآن :

١ ـــ خبر القرآن أن الجن خلقوا من النار . ولا يلزم من هذا أن يكونوا ناراً تحرق ما تمسه ، ولا يمنع أن يكون الله قد حولهم فيما بعد إلى طبيعة أخرى . فالإنسان خلق من الطين ، ولكنه لم يبق طينا بل أنشأه الله خلقا آخر ، فجعله مركباً من عظام وعضلات ودم وأعصاب على سنة الله في الكون ، إذ يحول المخلوقات من حال إلى حال . فيجعل من (الخلية) أحياء مختلفي الصفات والهيئات والطبائع ، ويجعل من (الذرة) معادن مختلفة الأوزان والأشكال والخصائص ، ويجعل من (البذرة) اليابسة شجرة خضراء الأوراق ملونة الأزهار .

٢ ـــ وخبر أنهم خلقوا قبل خلق الإنسان : ﴿ والجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نارِ السَّمُومِ ﴾ .

٣ ـــ وأنهم يروننا ولا نراهم ، وليس في هذا عجب ، فمن كان بيده المنظار رأى الشخص البعيد وذلك الشخص لا يراه ، ونحن في الدنيا وفقنا إلى صنع آلات كالرائي (التلفزيون) والهاتف المرئي نرى منها المتحدث ، وهو لا يرانا ، قال :

﴿ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ ﴾ .

٤ ـــ وأنهم مكلفون مثلنا يحاسبون على أعمالهم كما نحاسب ، ويثابون ويعاقبون كما نثاب نحن ونعاقب ، وأن جهنم والعياذ بالله منها ، تمتلىء بالجن والإنس معاً ، قال تعالى:

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُون ﴾ . ﴿ وتَمّتَ كَلِمةُ رَبِّكَ لأمْلأنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ أجْمَعِين . . . ﴾ .

٥ ـــ وأن رسالة محمد ﷺ بلغتهم ، كما بلغتهم من قبلها رسالة موسى ، ﴿ قالوا : ياقومَنا إنَّا سَمِعْنا كتاباً أُنزِلَ مِنْ بعد موسى ، مصدِّقاً لِما بينَ يَدَيْهِ ، يَهْدي إلى الحقِّ وإلى طريق مستقيمٍ ﴾ .

٦ ـــ وأنه كان منهم الصالحون والعاصون ، وأنهم كالبشر أصناف :
﴿ وأَنَّا مِنّا الصّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ ، كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً ﴾ . ﴿ وأنَّا مِنّا المُسْلِمُونَ ومِنّا القَاسِطُونَ ﴾ .

٧ ـــ وأن الله سخرهم لسليمان :
﴿ يَعْمَلُونَ لهُ ما يشاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وتَمَاثِيلَ[٧٦] وجِفَانٍ كالجوابِ وقُدُورٍ رَاسياتٍ ﴾ .

٨ ـــ وأنهم لا يعلمون الغيب ، لذلك لبثوا يعملون لسليمان بعدما مات :
﴿ ما دَلَّهم عَلَى مَوْتِهِ إلا دابّةُ الأرْضِ ، تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ، فَلَمَا خَرَّ تَبَيّنتِ الجنُّ أنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ الغَيْبَ ما لَبِثُوا في العَذَابِ المهينِ ﴾ .

٩ ـــ وأن الله تحداهم ، كما تحدى البشر أن يأتوا بمثل القرآن :
﴿ قُلْ : لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنْسُ والجنُّ على أنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذا القُرْآنِ ، لا يَأتونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبعضٍ ظَهِيراً ﴾ .

١٠ ـــ وأنهم كانوا يتحسسون أخبار السماء من الملائكة ، فلما جاء الإسلام منعوا من ذلك ورموا بالشهب :
﴿ وأنَّا كنَّا نَقْعُدُ منها مَقَاعِدَ للسَّمْعِ ، فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآن يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَصَداً ﴾ .

---

(٧٦) التماثيل : بالمعنى المعروف ، وهي الصور المجسمة ، وهي محرمة قطعاً في ديننا .

الشياطين :

وهم كفار الجن ، أبوهم إبليس ، وقد قال قوم إن إبليس من الملائكة ، ولكن الصحيح أنه من الجن .

أولاً : لأن الله صرح بذلك في القرآن ، فقال :

﴿ فَسَجَدوا إلا إبْليسَ كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّه ﴾ .

ثانيا : لأن إبليس عصى ربه . والملائكة :

﴿ لا يَعْصونَ الله ما أمَرَهُمْ ﴾ .

ثالثا : لأن القرآن صرح بأنه خلق من النار :

﴿ قالَ أنا خَيْرٌ مِنْه خَلَقْتَني مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ .

الشياطين في القرآن :

١ ــ الشيطان هو العدو الأول للبشر ، أخرج أباهم من الجنة ، وهو يعمل على منعهم من دخولها ويبعدهم عن طريقها . ويغريهم بسلوك طريق النار ، وهم مع ذلكَ يتبعونه ويَدَعون شرع الله إلى وسواسه ، وهدي الأنبياء إلى ضلاله .

وقد وبخهم الله على فعلهم وعلى هذه الحماقة منهم ، إذ يستجيبون لعدوهم الذي يريد العذاب لهم ، ولا يستجيبون لربهم ، الذي يدعوهم ليغفر لهم ويرحمهم :

﴿ أفتَتَّخِذونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أوْلِياءَ مِنْ دوني ، وَهُمْ لَكُمْ عَدوٌّ ؟! بِئْسَ للظَّالِمينَ بَدَلاً ﴾ .

٢ ــ دلت هذه الآية على أن الشياطين يتناسلون ، ويكون لهم ذرية وأنهم جميعاً ذرية إبليس .

٣ ــ سلط الله الشيطان على الناس ، ولكنه لم يعطه القدرة على النفع والضرر ، ولم يمنحه القوة التي لاتُدفع ، بل أعطاه الكيد :

﴿ إن كَيْدَ الشَّيْطانِ كانَ ضَعِيفاً ﴾ ﴿ وليسَ بضارِّهِمْ شَيْئاً إلا بإذْنِ الله ﴾

﴿ وما كانَ له عَليْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ . . . ﴾ .

٤ ــ عمله الوسواس والإغراء بالشر والدعوة إلى القبائح :

﴿ يَعِدُكُمُ الفَقْرَ ويَأْمُرُكُم بالفَحْشَاءِ ﴾ . ﴿ يعدُهُمْ ويُمَنِّيهِمْ وما يَعِدهُمُ الشَّيْطانُ إلا غُروراً ﴾ .

يحملهم على الخمر والميسر وأمثالها ، وأمثالُها :

﴿ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ﴾ .

برنامجه كله ينحصر في الشر والفحش والخلاف ، وأول مادة في هذا البرنامج وأول ما فتن به آدم وحواء ، التكشّف والتعرّي ، ولبس القصير من الثياب :

﴿ يابَني آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنْ الجنَّةِ ، يَنْزِع عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا . . . ﴾ .

فكان نزع الثياب ، وإبداء العورات ، أول مادة في هذا القانون الشيطاني .

ومن شأن إبليس أن يحسن في عيون أتباعه (السّيىء) حتى يروه حسنا ، ويجمل لهم القبيح فلا يبصروه قبيحا :

﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ ما كانوا يَعْمَلُونَ . . . ﴾ .

ومن شأنه أن يدفع أولياءه إلى إثارة الشبه في وجوه المؤمنين ، وشغلهم عن دعوتهم دعوة الحق بالجدال والمراء ، وقد نبهنا الله إلى ذلك ، وقال لنا :

﴿ وإنَّ الشَّيَاطِين لَيُوحُونَ إلى أَوْلِيائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ . . . ﴾ .

فلا تستجيبوا لهم ولا تسقطوا في شركهم :

﴿ وإنْ أطَعْتُمُوهُمْ إنَّكُمْ لَمشرِكُونَ ﴾ .

ومن شأنه أن يشغل المؤمن عن ذكر ربه ، حتى ينساه ، فيقدم على المعاصي ، فالعاصون :

﴿ اسْتَحْوَذَ عَلَيهِمُ الشَّيْطَانُ فأنْسَاهُمْ ذكْرَ اللهِ ﴾ .

ولكن

﴿ الَّذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ (فأنساهم ربهم) تَذَكَّروا فإذا هُمْ مُبْصِرونَ ﴾ .

٥ ــ لكن الشيطان رغم دأبه على الإفساد ، وثباته على عداوة بني آدم ، وأنه يأتيهم عن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومن أمامهم ومن خلفهم ، وأنه يقعد لهم كل مرصد ، وأنه يستفزهم بصوته ويجلب عليهم بخيله ورجله ، وأنه يشاركهم في الأموال والأولاد ... إنه على هذا كله لا يملك إلا الوسواس ، والإغراء بالشر ، لا يقدر على نفع لهم ولا ضر ، وحين يتجادل الكفار والشياطين في الآخرة ، يقول لهم :

﴿ وما كانَ لي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلطانٍ ، إلا أنْ دَعَوْتُكُمْ ، فاسْتَجبْتُمْ لي ، فَلا تَلُومُوني وَلُومُوا أنفُسَكُمْ ... ﴾

ولما دعا إبليس ربه أن يؤجل موته ، وأجابه :

﴿ قَالَ ربِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ في الأَرضِ ، ولأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعِينَ إلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلَصِينَ ﴾ .

قال الله عز وجل :

﴿ هَذا صِراطٌ عليَّ مُسْتَقِيمٌ ، إن عِبَادي ليسَ لكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إلا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الغَاوين ﴾ ﴿ إنَّه ليسَ له سُلْطانٌ على الذينَ آمَنُوا وعَلى رَبِّهِمْ يَتَوكَّلونَ ، إنَّما سُلْطانُه على الَّذينَ يَتولَّوْنَه والَّذينَ هُمْ به مُشْرِكُونَ ﴾ .

٦ ــ وهو يخذل أتباعه ويتخلى في ساعة العسرة عنهم ، ويخون عهدهم :

﴿ وإذْ زَيّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ ، وقال : (أي : يوم بدر للمشركين من أهل مكة) ، لا غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ مِنَ الناسِ وإنِّي جارٌ لَكُمْ ، فَلَما تَراءَتِ الفِئَتَانِ نَكَصَ عَلى عَقِبَيْهِ ، وقَالَ إنِّي بَريءٌ مِنْكُمْ ، إني أرَى مَا لا تَرَوْنَ ﴾ . يعني الملائكة التي نزلت يومئذ لتأييد المؤمنين : ﴿ إنِّي أخَافُ اللهَ ﴾ .

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إذْ قالَ للإنْسَانِ : اكْفُرْ . فَلما كَفَرَ ، قَال : إنِّي بَريءٌ

مِنْكَ إنِّي أَخَافُ اللَّهَ ﴾ .

شياطين الإنس :

هذا بعض ما ورد في القرآن الكريم من صفات الشيطان ، إنه يعمل على نشر الكفر وإذاعة الفاحشة ، وكشف العورات ،يزين للناس ما هم عليه من القبيح ويحسنه لهم ، حتى يقيموا عليه ولا يتحولوا عنه . يثير الشبه ، ويجادل بالباطل ، ويوقع العداوة بين المسلمين ويفرق جمعهم ، حتى إذا استجابوا له واتبعوه ، واحتاجوا يوما إلى نصره ومعونته ، فاستعانوا به واستنصروه ؛ تخلى عنهم وتبرأ منهم .

وكل من تخلق بهذه الأخلاق من الناس ، كان حكمه حكم الشيطان .

﴿ قُل أعُوذُ بربِّ النَّاسِ ، مَلِكِ النَّاسِ ، إله النَّاسِ ، مِن شَرِّ الوَسْواسِ الخَنَّاسِ ، الذي يُوسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ ، مِنَ الجِنَّةِ والنَّاسِ ﴾ .

فمن رغّب بالفاحشة وزينها للناس بالصور العارية ، أو القصص الداعرة ، أو الأدب المكشوف ، فهو من شياطين الإنس . ومن دعا إلى عصبية جاهلية ، (من الجاهلية الأولى أو الجاهلية الجديدة) ، تجعل أمة محمد أمما ، وتحيل وحدتهم تفرقا ، فهو من شياطين الإنس . ومن صرف الناس عن طريق الجنة إلى طريق النار ، وأنساهم ذكر الله واليوم الآخر ، فهو من شياطين الإنس :

﴿ وَقُلْ رَبِّ أعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّياطِينِ ، وأعُوذُ بِكَ رَبِّ أنْ يَحْضُرونِ ﴾



الإيمَان بالرّسُل

وأول ما يقرره القرآن ، أن الملائكة والجن والرسل ، خلق من خلق الله ، كلهم عباده ، وهو أوجدهم وهو المتصرف فيهم ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم (فضلا عن غيرهم) نفعاً ولا ضراً إلا بإذن الله .

الرسل جميعا بشر ، يولدون كما يولد البشر ، ويموتون كما يموتون ، ويمرضون مثلهم ويصحون [٧٧] ؛ لا يختلفون عنهم في تكوين أجسادهم ، ولا في تصوير أعضائهم ، ولا في جريان دمائهم وحركات قلوبهم ، يأكلون ويشربون ، كما يأكل الناس ويشربون .

ليس فيهم شيء من الألوهية ، لأن الألوهية لله وحده ، ولكنهم بشر يوحى إليهم ، وقد عجبت الأمم الأولى من الوحي ، فقال لهم الله عز وجل راداً عليهم ، مبينا أنه لا مكان لعجبهم :

﴿ أكانَ للنَّاسِ عَجَباً أنْ أوْحَيْنا إلى رَجُلٍ مِنْهُمْ ، أنْ أنْذِرِ النَّاس وَبَشِّرِ الذِينَ آمَنُوا ﴾ .

وعجبوا أن يكون الرسول من البشر ومنعهم من الإيمان :

﴿ أنْ قَالُوا أبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولا ﴾ .

فرد الله عليهم ، بأن الرسول إنما يكون من جنس من أرسل إليهم ، فالبشر يرسل إليهم رسول من البشر .

﴿ لو كَانَ في الأرضِ ملائكةٌ يمشون مطْمَئِنِّينَ ، لنزَّلنا عليهِمْ منَ السَّماءِ مَلَكاً رَسُولاً ﴾ .

---

(٧٧) الرسل جميعاً بشر : يشبهون البشر في كل شيء ، إلا ما كان من ذلك منافيا لاصطفائهم للرسالة ، كالأمراض المشوهة المنفرة ، أو المانعة من القيام بالدعوة .

وناقشوا رسلهم

﴿ قالُوا إن أَنْتُمْ إلا بَشَرٌ مِثْلُنا ﴾ ، ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إنْ نَّحْنُ إلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ولكنَّ اللهَ يَمُنُّ على من يَشاءُ منْ عبادِهِ﴾ .

وقد منَّ علينا فأوحى إلينا الشريعة ، وأمرنا بتبليغها :

﴿ وقَالُوا : مالِ هذا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعامَ ويَمْشِي في الأَسْوَاقِ ، لَوْلا أُنْزِلَ إليه ملكٌ فَيكُونَ مَعه نَذيراً ﴾ .

فرد الله عليهم ، مخاطبا رسوله محمداً ﷺ :

﴿ وما أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إلا إِنَّهم لَيأْكُلُونَ الطَّعامَ ويَمْشُونَ في الأَسْوَاقِ ﴾ .

وقال لهم رداً عليهم :

﴿ وقَالُوا لَوْلا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ، ولَوْ أنزَلْنا مَلَكاً لَقُضِيَ الأَمْرُ ثمَّ لا يُنْظَرُونَ ، ولَو جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لجَعَلْنَاهُ رَجُلاً (أي : على هيئة رجل) ولَلَبَسْنَا عليهم ما يَلْبِسونَ ﴾

حقيقة الرسول :

الرسول بشر يمتاز بالوحي ، وقد قال تعالى لمحمد :

﴿ قُلْ إنَّما أنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إليَّ ﴾ .

وقد أكد بشريته باستعمال (إنما) وهي تفيد الحصر والقصر ، وتنفي عنه ماينافي البشرية ، ثم أكدها مرة ثانية بقوله :

(مثلكم) .

هو مثلنا في تكوين جسده ، وطبيعة خلقه ، ولكنا لسنا جميعاً مثله لافي خلقه ولا في مزاياه ولا في عظمته ، ولو لم يكن (محمد) خاتم الأنبياء ، لكان ــ بلا جدال ــ أعظم العظماء وبطل الأبطال .

فإذا كان بشرا مثلنا ، يجوز عليه مايجوز علينا ، فهل يخطىء كما نخطىء ؟ والجواب :

١ ــ إن الخطأ إما أن يكون في مجال التبليغ عن الله ، وفي بيان الشريعة . وهذا النوع من الخطأ يستحيل وقوعه من الرسل جميعاً ، لأن الرسول (لاينطق) إذا بلغ عن الله أو بين شريعته :

﴿ عنِ الهَوَى ، إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .

والله يقول :

﴿ ياأيُّها النَّاسُ قَدْ جاءَكُم الرَّسُولُ بالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ .

ويستحيل أن تقع من الرسول (بعد رسالته) معصية ، أو يأتي مايجرح العدالة أو يخل بالمروءة أو ينافي الكمال ، لأن الله جعله قدوة ، وأمر المسلمين أن يتأسوا به ، وأن يتبعوه في فعله :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ في رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وهذه الأسوة ثابتة للرسل جميعا :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وذلك يقتضي العصمة من ارتكاب المعاصي وإتيان النقائض .

٢ ــ وإما أن يكون الخطأ في أمر شرعي اجتهد فيه الرسول ، ولم ينـزل عليـه فيه شيء من ربه : وهذا النوع من الخطأ ممكن وقوعه من الرسل ، ولكن الله لايقرهم على الخطأ بل يبين لهم وجه الصواب فيه ، كما وقع من الرسول في قصة الأعمى ، وفي قصة أسرى بدر ، اجتهد فبين الله له أنه لم يصب في اجتهاده .

وقد فكرت في موقف الرسول ﷺ يوم جاءه الأعمى ، وقلت لنفسي : لو لم ينزل الله هذه الآيات من (عبس وتولى) ، وعرض موقفه على عقلاء الدنيا وساستها وعلمائها ، هل كان فيهم أحد يقول بأن في موقف الرسول ﷺ ما ينتقد أم يقرر الجميع أن الذي فعله هو عين الصواب ؟

رجال من كبار القوم يتألفهم ويحاول أن يكسبهم لنصرة الدعوة ، فيأتي

واحد من أتباعه يسأله عن مسألة ليست مستعجلة ، ولا ينشأ عن تأخيرها ضرر ، وهو يستطيع أن يسأل عنها في كل وقت ، فيرجيء جوابه حتى ينتهي مما هو فيه . هل يفعل أحد من الناس غير هذا ؟ هل في الدنيا من لايقول بأن عمل الرسول هو الذي يرونه الصواب ؟

إنه هو الصواب في مقياس المنطق البشري ، ولكن لما نزل الوحي بمقياس آخر ، تبين أن ميزان الله أقوم من موازين الناس ، وأن حكم من خلق العقل أصح من حكم العقل ، بل هو الحكيم القويم ، وحكم العقل هو المعوج المنحرف .

ومثل هذا يقال في موقفه ﷺ يوم (أسرى بدر) ، أي إن ما وقع منه ﷺ ، إنما كان خطأ بالنسبة لحكم الله ، ولو لم ينزل الوحي بتخطئته لكان عند أعقل الناس صوابا ، فليس في ذلك خطأ (بالمعنى المعروف) وقع من محمد ، بوصفه عظيماً من عظماء البشر ، بل إن فيه الدليل على ان وحي السماء فوق حكمة الأرض .

٣ ــ وإما أن يكون الخطأ في أمر من الأمور الإدارية والحربية ، وهذا أيضا ممكن وقوعه لأن الرسول بشر ، يفكر في هذه الأمور تفكيراً بشرياً ، وقد كان الصحابة يسألونه في مثل هذه الأحوال : هل القرار الذي قرره بأمر من الله ووحي ، أو باجتهاد منه ؟ فإن خبرهم بأن ليس لديه فيه أمر من الله ، وأنه رأي شخصي ، عرضوا عليه آراءهم فأخذ بها أو ردها .

كما وقع في حادثة اختيار المعسكر يوم بدر ، إذ قالوا له « يارسول الله ، أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أم هو الرأي والمكيدة ؟ » فلما بين لهم أنه رأيه الشخصي ، عرضوا عليه رأياً غيره فأخذ به وعدل عن رأيه ، ووقع مثل ذلك في حفر الخندق ، وفي حادثة الصلح مع غطفان في تلك المعركة .

٤ ــ أما الأمور الدنيوية الخالصة ، فكان الرسول يتكلم فيها برأيه الشخصي ، وقد يخطيء في الأمور الصناعية والزراعية والطبيّة التى لايعرفها في

العادة إلا أهلها ، كما أخطأ في مسألة تأبير (أي تلقيح) النخل ، وليس في هذا عيب أو نقص ، لأنه لا يطلب من العظيم ولو كان عالماً ـــ ولو كان أكبر علماء الدنيا ـــ أن يعرف كل الذي يعرفه أرباب الصناعات ، ورجال الزراعة والتجارة ، وسائر المهن .

ومسألة تلقيح النخل مسألة زراعية فرعية ، أبدى فيها ﷺ رأياً عارضاً ، لم يلزمهم ولم يحملهم عليه ، ولم يقل لهم إنه من الدين ، وأن الله أوحى به ، فلما تبين له خطؤه ، قال : « أنتم أعرف بأمور دنياكم[(٧٨)] » .

الرسول لايعلم الغيب

القرآن قد صرح بأن الرسول لايعلم الغيب ، وأمر الله الرسول في القرآن أن يخبر الناس بأنه لايعلم الغيب :

﴿ قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خزائِنُ اللهِ ، ولا أَعْلَمُ الغَيْبَ ، ولا أقول لكم إِنِّي مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إلا مَا يُوحى إِلَيَّ ﴾ ﴿ قُلْ : لا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً ولا ضَرَّاً ، إلا مَاشَاء اللهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لا سْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وما مَسَّنِيَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إلا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَومٍ يُؤْمِنُونَ ... ﴾ .

فخبر الناس بذلك ، وتلا عليهم هذه الآيات ، وبقيت قرآناً يتلى في المساجد ، ويقرأ به في الصلوات

الرسل كثيرون وأصول الرسالات واحدة :

بين الله في القرآن أن لكل أمة من الأمم رسولاً أرسله الله إليها :

﴿ وإِنْ مِنْ أُمّةٍ إلا خَلا فِيها نَذِيرٌ ﴾ ﴿ لِكُلِّ أُمّةٍ رَسُولٌ ﴾ .

ولكن الله لم يذكرهم جميعاً في القرآن ، بل ذكر بعضا منهم :

---

(٧٨) ولعل الحديث الوارد في الذباب إذا سقط في الإناء من هذا القبيل ، والدليل على ذلك أنه لم يقل أحد إن غمس جناحي الذبابة واجب ، وإن مخالفة هذا الأمر ـــ وعدم غمسه ـــ حرام .

واحد من أتباعه يسأله عن مسألة ليست مستعجلة ، ولا ينشأ عن تأخيرها ضرر ، وهو يستطيع أن يسأل عنها في كل وقت ، فيرجيء جوابه حتى ينتهي مما هو فيه . هل يفعل أحد من الناس غير هذا ؟ هل في الدنيا من لايقول بأن عمل الرسول هو الذي يرونه الصواب ؟

إنه هو الصواب في مقياس المنطق البشري ، ولكن لما نزل الوحي بمقياس آخر ، تبين أن ميزان الله أقوم من موازين الناس ، وأن حكم من خلق العقل أصح من حكم العقل ، بل هو الحكيم القويم ، وحكم العقل هو المعوج المنحرف .

ومثل هذا يقال في موقفه ﷺ يوم (أسرى بدر) ، أي إن ما وقع منه ﷺ ، إنما كان خطأ بالنسبة لحكم الله ، ولو لم ينزل الوحي بتخطئته لكان عند أعقل الناس صوابا ، فليس في ذلك خطأ (بالمعنى المعروف) وقع من محمد ، بوصفه عظيماً من عظماء البشر ، بل إن فيه الدليل على ان وحي السماء فوق حكمة الأرض .

٣ ــ وإما أن يكون الخطأ في أمر من الأمور الإدارية والحربية ، وهذا أيضا ممكن وقوعه لأن الرسول بشر ، يفكر في هذه الأمور تفكيراً بشرياً ، وقد كان الصحابة يسألونه في مثل هذه الأحوال : هل القرار الذي قرره بأمر من الله ووحي ، أو باجتهاد منه ؟ فإن خبرهم بأن ليس لديه فيه أمر من الله ، وأنه رأي شخصي ، عرضوا عليه آراءهم فأخذ بها أو ردها .

كما وقع في حادثة اختيار المعسكر يوم بدر ، إذ قالوا له « يارسول الله ، أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم عنه أو نتأخر ، أم هو الرأي والمكيدة ؟ » فلما بين لهم أنه رأيه الشخصي ، عرضوا عليه رأياً غيره فأخذ به وعدل عن رأيه ، ووقع مثل ذلك في حفر الخندق ، وفي حادثة الصلح مع غطفان في تلك المعركة .

٤ ــ أما الأمور الدنيوية الخالصة ، فكان الرسول يتكلم فيها برأيه الشخصي ، وقد يخطيء في الأمور الصناعية والزراعية والطبيّة التى لايعرفها في

والدعائم في البناء ، وترك لنا أن نضع لكل زمان مايصلح له بشرط المحافظة على هذه القواعد ، وأمثل على ذلك بأمثلة أعرضها عرضاً موجزاً .

من الأمثلة : أن الإسلام أوجب أن يكون الحاكم منتخباً برأي الأمة ، وأن يكون فيه من الصفات مايمكنه من القيام بأعباء الحكم ، وأن يلتزم بالدستور الإسلامي الذي هو القرآن ، وأن يستشير أهل الحل والعقد .

وترك لنا تحديد أسلوب الانتخاب (أي البيعة) ، وطريقة تعيين أهل الحل والعقد ، وكيفية الاستشارة ، الخ .

وألزمنا أن نحكم بين الناس بالعدل ، ولكنه ترك لنا رسم الطريق الموصل إلى العدل ، وأن نحدد أسلوب تعيين القضاة وأصول المرافعات .

ووضع للعقود قواعد عامة تضمن أهلية المتعاقدين وحريتهما ، وصحة صيغة العقد وتعبيرها عن ارادتهما ومحل العقد ، ومنع أنواعاً من العقود فيها مضرة عامة ، أو فيها تغرير بأحد الطرفين . وترك لنا تنظيم الأوضاع التفصيلية للعقود بأنواعها . وجعل الأعمال الفردية والمعاملات المالية جائزة مباحة ، لا تحرم إلا إن ورد بنص تحريمها ، أو دخلت تحت أصل محرم .

وفتح لنا باب (الاستصلاح) ، فكل أمر فيه مصلحة للمجتمع الإسلامي ، وليس في الشرع مايوجبه أو ينهى عنه ، إذا أمر به الحاكم المسلم ، صار واجباً دينياً ، كالقوانين المالية ، وقانون أصول المحاكمات ، والأنظمة الإدارية ، كنظام السير ، ونظام البلديات ، وأمثالها .

فالإسلام فيه من المرونة مايجعله صالحاً لكل زمان ومكان ، ولكن بعض الفقهاء المتأخرين ــ لضيق أذهانهم ــ يضيقون على الناس ما وسعه الشرع ، حتى يضطروهم (كما قال ابن القيم في كتاب الطرق الحكمية) إلى ابتغاء التوسعة ، في غير ماجاء به الإسلام .

وسبب آخر : هو أن الأمم كانت (على عهود الرسل الأولين) تعيش في عزلة لاتقارب بينها ولا اتصال ، إلا على الدواب والجمال ، فتعارفت الأمم

بعد رسالة محمد ، ودنا البعيد ، وطويت للمسافر الأرض ، حتى وصلنا إلى زمان تلقى فيه الخطبة في أميركا ، فيسمعها من في الصين قبل من كان قاعدا أمام الخطيب[79] ، وصارت الدنيا كأنها بلد واحد ، والأمم كلها أمة واحدة ، ولو أن المسلمين قاموا بما يجب عليهم من الدعوة لدينهم ، وتبليغ رسالة الإسلام ، لعمت هذه الدعوة الأرض كلها .

الإسلام لايفرق بين الرسل :

وإذا كان في أتباع الأنبياء (ممن يدعون الانتساب إلى واحد منهم) من يطعن على غير نبيه ، فإن الإسلام أوجب على المسلم تعظيم الأنبياء والرسل جميعاً ، فإذا أساء القول في واحد منهم أو طعن عليه ، خالف طريق الإسلام :

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إليهِ مِنْ رَبِّهِ والمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ باللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرسُلِهِ ، لانُفَرِّقُ بينَ أحَدٍ مِنْ رسُلِهِ ، وقالُوا سَمِعْنَا وأطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وإليكَ المصيرُ ﴾ .

فالمسلم يحب موسى وعيسى وغيرهما كما يحب محمداً ، ويجلهم ويكبرهم كإكباره محمدٍ وإجلاله .

واليهودي الذي دخل النصرانية لما جاء بها المسيح لم يخسر موسى ، ولكنه ربح معه عيسى . والنصراني الذي يدخل اليوم فى الإسلام لا يخسر عيسى وموسى ، ولكن يربح معهما محمدا ، وصلى الله على محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين .

الرسل في القرآن :

المسلم يعتقد أن القرآن كلام الله ، نزل به جبريل على محمد ، وبلغه محمد كما سمعه من جبريل ، وأن مابين دفتي المصحف هو القرآن كله ،

---

(٧٩) هذه حقيقة : لأن انتقالها عن طريق الموجات الإذاعية أسرع من انتقالها عن طريق الاهتزازت الهوائية .

كما نزل به جبريل ، فمن أنكر شيئاً منه أوشكّ فيه ، خرج من الإسلام .

وقد ورد في القرآن ذكر خمسة وعشرين نبياً ، جمعت أسماؤهم في خمس آيات هي قوله تعالى :

﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنا آتَيْنَاهَا إبْراهيمَ على قَوْمِهِ ، نَرْفَعُ دَرَجاتٍ مَنْ نَشَاء ، إنَّ ربَّك حَكِيمٌ عَلِيمٌ ، وَوَهَبْنَا لهُ إسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ، ونَوحا هَدينا مِنْ قَبْلُ ، ومِنْ ذُرِّيَّتِهِ داودَ وسُلَيْمان وأيوبَ ويُوسُفَ ومُوسَى وهَارُونَ ، وكَذِلكَ نَجْزِي المُحْسِنِينَ ، وزَكَرِيّا ويَحْيَى وعِيْسَى وإلْيَاسَ ، كُلٌّ منَ الصَّالحينَ وإسماعِيلَ واليَسعَ ويُونسَ ولُوطاً وكُلاًّ فَضَّلْنا على العَالَمِينَ ﴾ .

وقوله تعالى :

﴿ واذْكُرْ في الكِتَابِ إدْرِيسَ إنَّهُ كانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً ، وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴾ .

وقوله :

﴿ وإلى ثَمودَ أخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ ﴿ وإلى مدين أخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ ﴿ وإسماعِيلَ وإدْرِيسَ وذَا الكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرين ﴾ .

وذكر آدم ولم يصرح بأنه كان رسولاً ، ولكن تدل الآيات التي ذكر فيها على ترجيح القول برسالته .

خمسة وعشرون ، منهم من اقتصر على ذكر اسمه كإدريس وذي الكفل ، ومنهم من أورد قصته موجزة كإسماعيل وإسحاق ويونس ، ومنهم من أورد قصته مفصلة كإبراهيم وموسى ويوسف وعيسى وكل ماجاء به في القرآن من قصص الأنبياء حقٌ وصدق يجب الإيمان به

﴿ تِلكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ على بَعْضٍ ، مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾

المعجزات :

لما أُسري برسول الله ﷺ من مكة إلى القدس ، فذهب وعاد في ليلة

واحدة لم تستطع قريش أن تصدق ذلك ، وعدّته مستحيلاً ، لأنه لايمكن تحقيقه بوسائلها المعروفة وهي الإبل والدواب ، ولكن هذا المستحيل صار اليوم أمراً ممكناً مألوفاً ، لايعجب منه ولا ينكره أحد .

ولو قيل لأكبر علماء الطبيعة قبل قرن أو قرنين من الزمان : إن الناس سيركبون متن الريح بمراكب من الحديد والفولاذ ، ويخترقون نطاق الهواء ، ويسجلون حديث المحدث وخطبة الخطيب ، فيسمعونها من شاؤوا متى شاؤوا . ولو مات المحدث والخطيب ، لقال إن ذلك مستحيل ، مع أنه وقع اليوم وصار معروفا .

فكيف تحقق المستحيل ؟

الجواب : إن المستحيل قسمان ، مستحيل في العادة ، كالأمور التي ذكرتها . ومستحيل في العقل كاجتماع النقيضين ، الوجود والعدم مثلا . فلا يكون الرجل نفسه موجوداً في هذا الوقت في هذا المكان ، وهو غير موجود فيه .

وكتبدل هوية الشيء فلا يكون الكتاب ملعقة ، في الوقت الذي يكون فيه كتابا .

المستحيل في العقل لايتصور وقوعه ، أما المستحيل في العادة ، فقد رأينا كيف نعلم أن العلم (علم العبد بقوانين الطبيعة[٨٠]) صيره ممكناً . فهل يعجز الخالق الذي أوجد هذه القوانين أن يصيره مُمكناً ؟!

لاشك في قدرته على ذلك ، فوقوع المستحيل في العادة ممكن لله عز وجل ، فإذا صح الخبر به تحققنا من وقوعه ، وأيقنا به .

---

(٨٠) أي سنن الله في الكون .

الكرامات :

وقد جاء في القرآن ذكر ثلاثة أنواع ، فيها وقوع المستحيل في العادة .

نوع وقع على يد الرسل لما تحدتهم أقوامهم ، إثباتاً لرسالتهم ، وتأكيداً لصدقهم ، ويسمى المعجزة ، فإبراهيم أُلقي في النار ، فبدل الله طبيعة النار المحرقة وجعلها برداً وسلاماً ، وموسى ألقى عصاه فانقلبت حية ، وضرب بها الصخر فانبجس منه الماء ، والبحر فانحسر حتى مشى فيه الناس ، وعيسى أحيا الموتى بإذن الله ، وكذلك كل ماجاء في القرآن من المعجزات .

ونوع وقع على يد ولي لله صالح ، كوجود الطعام عند مريم في المحراب ، وإحضار الذي عنده علم من الكتاب عرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين ، في أقل من لمح البصر وتسمى الكرامة .

ونوع وقع على يد كافر ، كما صنع السامري لبني إسرائيل من الحلي عجلا له خوار ، وتسمى استدراجاً .

ويجب الإيمان (أولا) بأن الأنواع الثلاثة ممكنة الوقوع ، لأنها وردت في القرآن .

ويجب الإيمان (ثانيا) على وجه التفصيل ، بكل ماورد من ذلك في القرآن .

أما مايرويه الناس من الكرامات ينسبونه إلي بعض من يسمونهم أولياء ، فهو خبر ، يحتمل الصدق والكذب ، فإن كان واقعاً من ولي . والولي هو المؤمن التقي :

﴿ ألا إنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ ، الذينَ آمَنُوا وكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ .

ولم يكن فيه معصية ، وصدقت به ، لم يكن عليك من الله شيء ، وإن لم يصح عندك فلم تصدق به ، لم يكن عليك من الله شيء .

أما إن كانت الكرامة المزعومة تشتمل على معصية ، (كبعض ما يروي

الشعراني في الطبقات) ، أو كانت واقعة من غير مؤمن ، أو من غير تقي ، فليست كرامة .

المعجزة والسحر :

لما كانت المباراة بين موسى وبين سحرة فرعون ، ألقوا حبالهم وعصيهم ، فرآها الناس حيات وثعابين . وألقى موسى عصاه فصارت حية ، وأكلت هذه الحيات والثعابين ، فهل الأمران سواء ؟ هل عمل موسى من جنس عمل سحرة فرعون ؟! .

إذا كان من جنسه فلماذا آمن السحرة ؟ كان عمل السحرة خداعا للبصر وإيهاماً للناس . أرَوْهم حيات وثعابين مع أن الحبال والعصي لاتزال على حالها ، حبالا وعصيا . أما عصي موسى فقد تحولت (فعلا) إلى حية . ولو كان ثمة آلة تصوير والتقطت صورتها ، لظهرت في الصورة حية حقيقية ، على حين تظهر حيات السحرة حبالا وعصيا .

لذلك آمن السحرة هذا الإيمان السريع ، إنهم رأوا شيئاً ليس من السحر ، ولا من التخييل ، ولا من التهويل . شيء هز قلوبهم حتى اضطرها إلى الإيمان ، وبلغ منهم الإيمان مبلغا ، جعلهم يتحدون فرعون ولا يبالون به ، إنهم تصوروا عظمة الله الذي آمنوا به ، فهانت عليهم عظمة فرعون الزائفة ، وربوبيته المكذوبة ، لقد صغرت الدنيا في عيونهم فلم يحفلوا بتهديد فرعون إياهم بالصلب وقطع الأعضاء ، إن فرعون لايملك إلا تعذيبهم في الدنيا وما الدنيا في جنب الآخرة ؟ وما عذابها المؤقت عند نعيم الآخرة الدائم ؟ لذلك صرخوا في وجهه مستهينين بقضائه :

﴿ فاقضِ ماأنتَ قَاضٍ ، إنَّما تَقْضِي هذِه الَحياةَ الدُّنْيَا ﴾ .

إني أتمنى والله وأنا المولود في الإسلام ، الذي تسلسل في آبائه الإسلام ، أن يكون لي مثل هذا الإيمان الذى كان لسحرة فرعون ، بعد دقائق معدودات

من إسلامهم[٨١] .

معجزات محمد عليه الصلاة والسلام :

المعجزتان الكبريان : القرآن ، وهذه المزايا المفردة ، التي جعله الله بها أهلا لحمل رسالة الإسلام .

ترجمة حياته ﷺ كانت في ذاتها معجزة .

كان بشرا وأمره الله أن يقرر هذه الحقيقة ، ويعلنها للناس لئلا يتخذوه إلها ، أو يمنحوه من صفات الألوهية . قال له ربه جلّ وعلا :

﴿قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُم يُوحَى إِلَيَّ﴾ .

بشر مثلكم في المقومات العامة للصفة البشرية ، ولكن ليس في البشر (على التحقيق) من هو مثله في عظمته ، ولم يخلق الله من هذا الطراز من أبناء آدم جميعا إلا رجلاً واحدا اسمه محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وعلى أبيه إبراهيم ، وعلى موسى وعيسى وجميع الأنبياء .

وإن من الظلم لمحمد ، وإن من الظلم للحقيقة ، أن نقيسه بواحد من هؤلاء الآلاف من العظماء الذين لمعت أسماؤهم في دياجي التاريخ ، من يوم وجد التاريخ ، فإن من العظماء من كان عظيم العقل ولكنه فقير فى العاطفة ، وفي البيان ، ومن كان بليغ القول وثاب الخيال ، ولكنه عادي الفكر ، ومن برع في الإدارة ، أو القيادة ، ولكن سيرته وأخلاقه كانت أخلاق السوقة الفجار[٨٢] . ومحمد ﷺ هو وحده الذي جمع العظمة من أطرافها ، وما من أحد من هؤلاء ، إلا كانت له نواح يحرص على سترها وكتمان أمرها ، ويخشى أن يطلع الناس على خبرها . نواح تتصل بشهوته ، أو ترتبط بأسرته ، أو تدل على ضعفه

---

(٨١) الإسلام له معنى عام ، ومعنى خاص ، ومعنى أخص ، فالمسلم بالمعنى العام : كل من اتبع رسولا ، وقت رسالته ، والمسلم بالمعنى الخاص : من اتبع رسالة محمد . وبالمعنى الأخص : ما ورد في حديث (جبريل) ، الذي شرح معنى الإيمان والإسلام والإحسان ، وإطلاق الإسلام هنا بالمعنى العام .

(٨٢) ومن تصفح سير أدباء الإفرنج رآها كلها كذلك ، اسكندر دوماس وبودلير ، وبيرون ، وسير قوادهم كذلك ، من نابليون بونابارت إلى أصغر قائد عندهم .

وشذوذه ، ومحمد هو وحده الذي كشف حياته للناس جميعا ، فكانت كتابا مفتوحا ، ليس فيه صفحة مطبقة ، ولا سطر مطموس ، يقرأ فيه من شاء ماشاء .

وهو وحده الذي أذن لأصحابه أن يذيعوا عنه كل مايكون منه ، ويبلغوه ، فرووا كل مارأوا من أحواله في ساعات الصفاء ، وفي ساعات الضعف البشري ، وهي ساعات الغضب ، والرغبة ، والانفعال .

وروى نساؤه كل ماكان بينه وبينهن . هاكم السيدة عائشة تعلن في حياته وبإذنه أوضاعه في بيته ، وأحواله مع أهله ، لأن فعله كله دين وشريعة ، ولولا أن في القراء الشبان والنساء ، لسردت عليكم طرفا منها ، وكتب الحديث والسير والفقه ممتلئة بها .

لقد رووا عنه فى كل شيء حتى ما يكون في حالات الضرورة البشرية ، فعرفنا كيف يأكل ، وكيف يلبس ، وكيف ينام ، وكيف يقضي حاجته ، وكيف يتنظف من آثارها .

فأروني عظيما آخر ، جرؤ أن يغامر فيقول للناس : هاكم سيرتي كلها ، وأفعالي جميعا ، فاطلعوا عليها ، وارووها للصديق والعدو ، وليجد من شاء مطعنا عليها .

أروني عظيما آخر دونت سيرته بهذا التفصيل ، وعرفت وقائعها وخفاياها ، بعد ألف وثلاثمئة سنة ، مثل معرفتنا بسيرة نبينا ؟

والعظمة إما أن تكون بالطباع والأخلاق والمزايا والصفات الشخصية .

وإما أن تكون بالأعمال الجليلة التى عملها العظيم .

وإما أن تكون بالآثار التى أبقاها في تاريخ أمته وفي تاريخ العالم .

ولكل عظيم جانب من هذه المقاييس تقاس بها عظمته ، أما عظمة محمد فتقاس بها جميعا لأنه جمع أسباب العظمة ، فكان عظيم المزايا ، عظيم الأعمال ، عظيم الآثار .

والعظماء إما أن يكونوا عظماء في أقوامهم فقط ، نفعوها بقدر ماضروا غيرها ، كعظمة الأبطال المحاربين ، والقواد الفاتحين .

وإما أن تكون عظمته عالمية ، ولكن في جانب محدود ، في كشف قانون من القوانين التي وضعها الله في هذه الطبيعة ، وأخفاها حتى نعمل العقل في الوصول إليها ، أو معرفة دواء من أدوية الأمراض ، أو وضع نظرية من نظريات الفلسفة ، أو صوغ آية من آيات البيان ، قصة عبقرية ، أو ديوان شعر بليغ .

أما محمد فكانت عظمته عالمية فى مداها ، وكانت شاملة في موضوعاتها .

وكان مؤمنا بما يدعو إليه ، وكثير ممن نعرف من الدعاة ، قديما وحديثا ، يقولون بألسنتهم ماتخالفه أفعالهم ، ويعلنون في الملأ ما لايأتونه في الخلوات ، وتغلب عليهم طبائع نفوسهم ، في ساعات الرغبة والرهبة والغضب والجوع والحاجة ، فينسون كل مايقولونه . ولست أتكلم عن أحد ، ولكن أضرب نفسي مثلا ، أنا أحاول السمو النفسي حين ألقي المحاضرة وأكتب المقالة الداعية إلى الحق والخير والهدى ، فلا أكاد أعلو قليلا حتى يغلب عليّ ثقل طبيعتي وشهوات نفسي الأمارة بالسوء ، فأعود إلى الأرض . ويرى الناس ذلك من الوعاظ والخطباء فلا يبالون بما يقولون ، ولايكون للوعظ فيهم أثر .

أما الرسول ﷺ فلم يدع يوما إلى محاضرة جامعة في بيان أحكام الإسلام ، ولم يقم مدرسة لها ساعات ودروس ، ولم يجلس في حلقة وعظ ، بل كان يبلغ مايوحى إليه في البيت والمسجد والطريق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، حين تدعو الحاجة إليه ، ولكنه يقول ذلك بلسانه وعمله ، ويعبر عنه بقوله وفعله . فقد كان خلقه القرآن ، وأنتم تسمعون هذه الكلمة ولا تفكرون في معناها ، ومعناها ياسادة : أن كل فعل من أفعاله ، وكل خلق من خلائقه ، آيات تتلى ، ومحاضرة تلقى ، وحلقة درس ومجلس وعظ ، لأنها كلها تنطلق بما يأمر به القرآن .

وكان يقوم الليل يصلي حتى تورمت قدماه ، ويستغفر الله دائما فقيل له :ألم يغفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ وكان في أعماله كلها في صلاة ؛ لأن كل سعي للخير ودفع للشر وعمل لمصلحة الجماعة ، إن أريد به وجه الله ، كان لصاحبه صلاة ، وأنا أكتفي بمثال واحد على إيمانه بما يدعو إليه ، وتمسكه بتطبيقه تمسكا كاملا يعلو على كل الاعتبارات . وأمهد لهذا المثال بصورة واقعة .

لو اتهمت فتاة من أشرف الأسر — من أسرة كبير أو وزير — بتهمة السرقة ، أترونها تسجن كما تسجن (نوريه[٨٣]) ، لو كانت هي السارقة ، وينفذ فيها حكم القانون كما ينفذ في تلك النورية ، أم تمتد إلى قضيتها مائة أصبع ، فتستر الجرم ، أو تسهل المحاكمة ، أو تهون العقاب ؟ .

لقد وقعت قضية كهذه على عهد الرسول . فتاة من أشرف أسر قريش ، من بني مخزوم ، من أسرة الوليد الذي يقال له الوحيد ، أسرة خالد سيد قواد المعارك ، وهي ثالث أسرة شرفا بعد هاشم وأمية ، سرقت هذه الفتاة ، وثبت الجرم ، وتقرر الحكم ، فسعى ناس في الوساطة لها ، يظنون أن الرسول — لما يعرفون من حبه للصفح والعفو — سيعفو ، فإذا هو يغضب ويفهمهم أنه إنما أهلك من كان قبلهم ، أنهم إذا اجترم الشريف تركوه ، وإذا اجترم الضعيف عاقبوه . ويقول لهم قولته العجيبة التي وطدت في حياة الإسلام ركنا ثابتا ، وقررت أن الحدود لاتسمع فيها شفاعة ، و لا يكون فيها عفو : « أما والله لَو أنَّ (فاطمة بنت محمد) سرقت ، لقطعت يدها » .

وكان ذلك عنده شيئاً طبيعياً لأنه كان يعيش بالدعوة ، ويعيش للدعوة ، هواه تبع لما أنزل إليه ، وكل مايصله بالناس من أسباب القرابة والصداقة والمنفعة ، ينقطع إذا اعترض طريق الدعوة .

---

(٨٣) النورية هي الغجرية . والنور منتشرون في آسية وأوربة ، وأظهر الأقوال ، أن أصلهم من الزط الذين أسكنهم الحجاج بن يوسف الثقفي أواسط العراق ، وقاموا — من بعد — بثورتهم المشهورة .

وقد فرغ ﷺ مما يحيا له الناس عادة من أمر الطعام واللباس ، وفرغ من مطالب النفس كلها ، ولم يكن يحرص على التقشف أو يتعمد الجوع ، كما يفعل بعض من يدعي الزهد ، ولا يواظب على لباس الفقر ، ولا على اتخاذ الصوف ، بل كان يأكل ماقدم إليه من الطيبات ، وإن لم يعجبه (مما لم يكن محرما) لم يأكله ، ولم يعبه . وما عرف عنه أنه ذم طعاما قط ، وإن لم يجد صبر على الجوع حتى يبرح به فيربط على بطنه الحجر ، وكان يلبس ماوجد ، ولا يلتزم زيا خاصا ، ولا نوعاً خاصاً ، ولا لونا خاصا ، وقد لبس العمامة على القلنسوة ، والقلنسوة بلا عمامة ، والعمامة بلا قلنسوة ، واتخذ القميص والإزار والرداء ، ولبس البرد ، ولبس الجبة ، لا كهذه الجبة الواسعة والأكمام العريضة ، بل الجبة الضيقة الأكمام ، ولم تكن عمامته كهذه العمائم ، بل كما يعرف من عمائم أهل الحجاز ، قطعة من قماش تلف على الرأس ، فإن لم تكن إليها حاجة ألقيت على العاتق ، أو استعملت في حاجة السلم ، أو لربط الأسير في الحرب . وكان يتخذ لها ذؤابة أحيانا ، والعمائم ضرورة من ضرورات الطبيعة في الحجاز ذات الشمس المحرقة ، فهم يقون رؤوسهم بها ، من وقدة الشمس ، ومن ذلك قيل : « العمائم تيجان العرب » ، ولم يحرص فيها على لون بعينه ، ولقد كانت عمامته يوم الفتح سوداء .

وليس في الإسلام محرم من الثياب إلا ثوبا يكشف عن عورة ، ولا يجوز للمرأة المسلمة أن تكشف عن أكثر من وجهها وكفيها ، وما كان من حرير للرجال ، وما كان من الثياب الخاصة بأهل دين غير الإسلام ؛ بحيث إن لبسه لابس ظن أنه منهم ، كلباس الرهبان مثلا . وما كان من لباس النساء خاصة يلبسه الرجال ، أو من لباس الرجال خاصة تلبسه المرأة ، وما كان فيه من سرف وتبذير ، وكل ثوب بعد ذلك جائز اتخاذه في الإسلام .

والرسول ﷺ لم يكن يحرم زينة الله التي أخرج لعباده ، ولا الطيبات من الرزق ، ولا يردها ، ولا يأباها إن وجدها ، ولكنه لم يكن يحرص عليها ،

ويجعلها أكبر همه من دنياه .

لقد فرغ كذلك من شهوة الغنى والجاه ، وأنتم تعرفون أن قريشا عرضوا عليه ماشاء من أموالهم إن شاء الغنى ، وعرضوا عليه السلطان والإمارة عليهم إن شاء الجاه ، ولم يتركوا شيئا مما يعلمون ميل النفوس إليه ، وتعلقها به ، إلا بذلوه له ، ليترك دعوته ، فكان يأبى عليهم ماعرضوه ، راثياً لهم مشفقاً عليهم .

وفرغ كذلك من أمر الشهوة الجنسية ، ولقد غر أقواما من المستشرقين ، الذين درسوا الرسول بهذه العقلية الأرضية المريضة ، وقاسوه بالمقياس الذي يقيسون به العظماء من رجالهم . فرأوا أنه تزوج تسع نسوة ، فقالوا إنه رجل شهواني ، يحسبونه من نوع من عرفوا من رجال السيف أو القلم . فنابليون مثلا الذي أكره أمة كاملة بحكومتها ووجوه شعبها على أن يكونوا (قوادين) له ، يوصلونه إلى الفتاة البولونية [٨٤] التي أحب ، وزاد على ذلك فاضطر أبا الفتاة على أن يلزمها الإثم الذي أراده منها ، وجعل استقلال بولونيا رهنا بتحقيق هذه الرغبة النجسة الفاجرة . وليس ذلك وزر نابليون وحده ، بل إن اسكندر دوماس ، وبيرون وغوت ، وبودلير والعشرات من أمثالهم كانت كلها كذلك ، وهذه تراجم عظمائهم ، إذا بلغت في أي منها بحث أخباره الجنسية ، زكمت أنفك روائح تلك الأرجاس ، فجاؤوا بهذه العقلية يدرسون سيرة رسول الله ﷺ ، فدلوا بقولهم عنه أنه شهواني ، على جهل بعلم النفس ، وجهل بتاريخ محمد ، وبعد عن الحياد والنزاهة في البحث .

إن أشد أيام الرغبة الجنسية يقظة وثورة هي السن التي بين البلوغ والخامسة والعشرين ، هذه هي السن الخطرة التي ينبغي فيها على كل عاقل وعاقلة أن يحذر فيها كل مايجر إلى المعصية من التكشف والاختلاط ، ومتابعة النظر إلى المحرمات ، وإدمان الفكر فيها ، ولو كان الاختلاط باسم العلم أو

(٨٤) الفتاة البولونية : هي (ماري فاليفسكا) وقصتها مشهورة ، حتى لقد أخرجت بها الأفلام للسينما .

الدرس . فأين كان محمد في هذه السن ؟ وماهي حوادث صبوته ؟ لقد كان حرا ، في بلد حرّ ، ولو أرادها لم يمنعه منها مانع من رقابة ولا من عرف ، ولقد كان لداته من الشباب غارقين في هذه الملذات ، لا يحرمها عليهم دين ولا قانون .

إن سيرة محمد مكشوفة للعدو والصديق ، معرضة لأنظار كل ناقد ، فهل ترون فيها أنه كان في هذه السن من أرباب الصبوات ومن ذوى الشهوة العارمة ومن المقبلين على المتع والملذات ؟ فقد فكر مرة واحدة في أن يمارس بعض مايمارس لداته[٨٥] من اللهو ، فألقى الله على عينيه النوم حتى فاته مافكر فيه ، ولو أنه واقع شيئا من ذلك فهل كان يسكت عنه خصومه من المشركين ، وقد كانوا حريصين على حربه وإيذائه من كل سبيل ؟ وتزوج وهو ابن خمس وعشرين ، فهل تزوج الفتاة البكر الجميلة ، أم تزوج امرأة في سن أمه أرملة في الأربعين ؟ وسائر زوجاته أما كان جلهن أرامل ، تزوجهن زواج المصلحة ؟ وقد أحل الله له أكثر من أربع ، فأعطاه بذلك أكثر من باقى المسلمين . ولكنه حرمه بالمقابل حقا منحه لكل زوج ، وهو حق الطلاق .

على أن القوة الجنسية ليست عيبا ، وكيف وهي مظهر الرجولة ؟ وفيم تكون الرجولة إن لم تكن في هذا ؟ لكن العيب ، أن يحيا الرجل لها وحدها ، ولا يفكر إلا فيها ، وأن يطلبها من طريق الحرام .

وقصة زواجه بزينب هذه التي يجتر بترددادها الخصوم ، لا تستحق أقوالهم فيها الرد ، لأنها في الواقع مبنية على تحريف متعمّد للواقع ، أو على سوء فهم ظاهر .

وزينب فتاة جميلة ، وهي قريبة من الرسول ، لو كان قد فكر فيها لتزوج بها ، وكان ذلك لو أراده أكبر أمانيها و أمانى أهلها ، ولكن الله جعلها محوراً لإصلاحين اجتماعيين من الإصلاحات الإسلامية ، واحد كانت هي مكان

---

(٨٥) اللدات : المتقاربون في السن ، وتكون اللدات للرجال والأتراب للنساء . و (لدة) من (ولد) ، مثل (عدة) من (وعد) .

التجربة فيه ، والآخر كان مكانه الرسول نفسه .

أراد الإسلام القضاء على هذه العزة الجاهلية ، وهذا الشعور الطبقي ، بتزويج زينب — وهي من أشرف أسر العرب — بزيد وهو أسير متبنى ، ولا يُعدُّ في نظر هذا المجتمع كفؤاً لها ، فتزوجته على كره منها ومن أهلها ، وكانت حياتها سلسلة متصلة من المنازعات ، وكان كلاهما يتمنى الفراق ، ولكن الرسول كان يمنعه من طلاقها ، ويقول له :

« أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ واتَّقِ اللّٰه » .

حتى امتلأت الكاس وفاضت ، ولم يبق إلى الاحتمال سبيل .. فطلقها !

وهنا تجيء التجربة الثانية وهي أصعب وأشق ، ويكون على الرسول حمل عبئها ، بزواجه من زينب ، لإبطال عادة التبنى ، وبيان أن زوجة المتبنى لاتحرم على المتبني . والصعوبة فيها في تعريض محمد لأن يظن به هذا المجتمع أنه تزوج امرأة ابنه ، وهذا الموقف أشق ما مر بالرسول ، ومع ذلك قد احتمله راضياً بأمر الله .

فالحكاية ليست كما يظنون ويقدرون . وما يقولونه فيها لغوٌ لا يستحق الرد ، وما عرضتُ له إلا لأبين الحق لمن لا يعرفه من القراء[٨٦] .

وقوة الجسد هي الانتصار على المقاومة المادية ، وقوة القلب نصر على الخصوم ، وهنالك قوة أكبر ، لأنها نصر على ماهو أكبر من المادة ، ومن الخصم . هي قوة الخُلُق ، وهي نصر على النفس ، وطبائعها وغرائزها ورغباتها وميولها .

وهذه مسألة نفسية مسلمة ، عبر عنها الرسول بألفاظ شتى فى مناسبات مختلفة ، فقال : « ليس الشديد بالصُرَعَة[٨٧] ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه

(٨٦) اقرأ كتاب (نداء للجنس اللطيف) للسيد رشيد رضا .

(٨٧) الصرعة : مدمن المصارعة ومحترفها . والمعنى المراد : أن قوة الأعصاب التي يملك بها المرء نفسه عند الغضب ، أكبر من قوة المصارع الذي يغلب بها خصمه عند المباراة .

عند الغضب » . وهذا حق تستطيعون إدراكه من أنفسكم ، وإذا كانت القوة التي تصرع بها الخصم تقدر بواحد مثلا ، فإن القوة التي تحتاجها للتغلب على غضبك ، وإطفاء ناره في صدرك ، وأن تبدو هادئا في حركاتك وصوتك ولهجتك تقدر بمئة ، فهي أصعب بمئة مرة من تلك . وجرب أن تجيء لغضبان قد أعماه الغضب ، حتى لايبصر ما أمامه ، فتحاول أن تذكره الخُلُق الحسن ، واللين والعفو ، هل تجد في كل عشرة آلاف واحداً يستجيب لك في هذه الحال ؟

تصور لو أن رجلا قتل أحب الناس إليك وأعزهم عليك ، ثم جاءك مستسلما لدعوتك (وأنت الداعية) ، هل تنسى ماذرفت من ماء العين على قريبك ، وما أرقت عليه من دمع القلب .. وتعفو ؟ .

لقد عفا الرسول عن (وحشي) قاتل (حمزة) ، لما أسلم ، لكن غلبته طبيعته البشرية ، فيما لايخالف الإسلام ، ولا يضر الرجل ، فقال له : (لاتجعلني أراك) ، فكان يتوارى عن عينيه .

وهند ، هند امرأة أبي سفيان ، التي بلغ من حقدها على محمد ودعوته : أن فعلت مالا تفعله امرأة ، ولا يفعله إنسان ، ولا يفعله الذئب ، ولا النمر . شقت صدر حمزة وأخرجت كبده ولاكته .. هند التي فعلت في حرب الرسول الأفاعيل ، لقد عفا عنها وبايعها وقَبِل إسلامها .

وأهل الطائف الذين سمعتم بخبر ما فعلوا بالرسول ، لما أسلموا عفا عنهم . وهاكم الموقف الأكبر ، المثل الأعلى في بابه ، في كل العصور : أهل مكة الذين جرعوه وأصحابه الصّاب والعلقم ، وآذوه في جسده ونفسه وعقيدته ، وقالوا عنه ، ونالوا منه ، ومن أصحابه ، وقاطعوه ، وحبسوه في الشِّعب ، ووضعوا الشوك في طريقه ، وألقوا على رأسه كرش الناقة ، وهو ساجد ، وسخروا منه أنواع السخريات ، واستمر ذلك لايوما ولا يومين ، ولا سنة ولاسنتين ، ولكن ثلاث عشرة سنة ، ثم حاربوه وذبحوا أقرباءه وأصحابه ،

حتى ظفر بهم ، وأقامهم أمامه حول الكعبة ، أذلاء لايملكون دفاعا ، وجاءت ساعة الانتقام .. لا ، دعُوا كلمة الانتقام فإنها لاتليق بالمقام ، ساعة العقوبة المشروعة ، التي يكون فيها الرد على هذه السلسلة الطويلة من التعديات والإساءات ، وها هو ذا يقول لهم :

« ماترون أني فاعل بكم ؟ » .

إنهم يذكرون ماصنعوا ويعرفون مايستحقون ، ولكن يذكرون أيضا خلق محمد ويعرفون مثله ، فيقولون :

« أخ كريم ، وابن أخ كريم » .

ويسكتون في انتظار الحكم القطعي ، ولو كان الحكم بقتلهم جميعاً ، لما وجد من كتّاب التاريخ الصديق منهم والعدو من يلومه بكلمة ، ولكن حكم محمد كان غير ذلك ، كان مفاجأة لا يتوقعها أحد ، مفاجأة أدهشت عصره وكل عصر يأتي بعده ، قال لهم :

« اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

وأنا آسف أن أعرض هذا الموقف ، هذا العرض الموجز ، ولقد كنت أتمنى لو جعلت الفصل عنه وحده ، لأجلوه عليكم كما ينبغي أن يجلى ، هذا الموقف يحتاج إلى قوة عشرة آلاف مصارع .

وأنا أعجب لماذا حاول المتأخرون من مؤلفي السيرة الاستكثار من المعجزات ، والتوسع فيها ، وإضافة معجزات لم تكن ، وما حاجتهم إليها ؟ وكل موقف من سيرة الرسول ، وكل جانب من شخصيته ، هو معجزة من أكبر المعجزات .

وما المعجزة ؟ أليست الأمر الذي يعجز الناس عن مثله ؟!

إن صدقه وأمانته معجزة ، ولن أسرد عليكم أمثلة كثيرة ، فالمجال ضيق ولكن أعرض مثالاً واحداً ، حادثة مررت بها في مطالعاتي مئات المرات فكنت أقرؤها على أنها خبر عادي ، ثم تنبهت إليها يوما فجأة فإذا هي أعجوبة ،

وكم في السيرة من أمثال هذه الأخبار . كلكم تعرفون أنه لما هاجر الرسول إلى المدينة ، ترك علياً مكانه ليرد الودائع التي كانت عنده لقريش ، فهل فكرتم يوما ما قصة هذه الودائع ؟

يردها لقريش لا للمسلمين ، إذ لم يبق أحد من المسلمين في مكة لما هاجر الرسول ، لأنه كان آخر من هاجر ، بقي كما يبقى الربان في السفينة الجانحة ، لايتركها حتى ينزل الركاب جميعاً ، ويصلوا إلى قوارب النجاة ، وهذه مَنْقبة ذكرتها عرضا .

قصة الودائع هي أن قريشا كانت (على كل ماكان بينها وبين الرسول) لاتجد من تأتمنه على ذخائرها إلا محمدا ، فتصوروا حزبين مختلفين ، الحرب قائمة بينهما ، حرب اللسان واليد والمبدأ والعقيدة ، ثم يأتمن أفراد الحزب على أموالهم وأوراقهم ، رجلا من الحزب الآخر !

هل سمعتم بمثل هذه الحادثة ؟ وكيف يستودعونها هذا الخصم ، إن لم يكن في أخلاقه وأمانته معجزة من المعجزات ، والشك فيه أحد المستحيلات ؟

هكذا كان محمد !

ويوم بدر يوم مر يعدل الصفوف قبل المعركة ، وفي يده قدح (قطعة من الخشب) ، فوجد سواد بن غزية بارزاً من الصف ، فدفعه بالقدح في بطنه وقال : « اعتدل ياسواد » .

قال : « يارسول الله أوجعتني ، وقد بعثك الله بالحق والعدل »*. تصوروا هذه المشهدة ، قائد الجيش يجابهه جندي عادي بهذا الكلام ، ماذا ترونه صانعا به ؟

يؤدبه ؟ يعرض عنه ؟ أو تبلغ به سماحة الصدر ونبالة الطبع ، فيسامحه ويعفو عنه ؟ أو يزيد على الغاية فيقول : « عفوا أنا أعتذر إليك » ؟! .

أما رسول الله فقد صنع شيئا لا يصنعه أحد ، ولا يخطر على بال أحد ، كشف له عن بطنه وأعطاه القدح ، وقال له : « استقد : »، أي : أوجعني كما أوجعتك .

أقاد من نفسه وهو سيد البشر .

هكذا كان محمد !

كانت سيرة حياته كلها معجزة ، عجز عظماء العالم جميعاً عن أن يتركوا لهم سيرة مثلها ، في كل ناحية منها عزة وعظمة ، في قوة جسده ، وتكوينه الرياضي . في روحه الرياضية ، وأنه لا يستخفه النصر حتى يبطره ، ولا تزلزله الهزيمة حتى تثير غضبه أو تذهب بعزمه .

في ثباته في المعامع الحمر حتى كان أبطال الصحابة يحتمون به ، وفي شجاعته التي تضعضع أمامها صناديد الرجال ، وفي تواضعه للمسكين والفقير ، ووقوفه للأرملة وللعجوز .

في إقراره بالحق ، في صدق التبليغ عن الله ، حتى إنه بلّغ الآيات التي نزلت في تخطئته وفي عتابه ، في احترامه العهود وحفاظه على كلمته ، مهما كلفه الحفاظ عليها من مشقة ونصب ، سواء عنده في ذلك معاملاته الشخصية وشؤون الدولة .

في ذوقه وحسه المرهف ، وأنه هو الذي سن آداب الطعام وقرر قواعد النظافة في وضعه مع أصحابه إذ يعلمهم ويعمل معهم ، ويعيش مثلما يعيشون ، ويستشيرهم ويسمع منهم ، ويجلس حيث يجد المكان الفارغ في آخر المجلس حتى كأن القادم عليه لايراه ، ينظر في وجوه القوم فيقول : « أيكم محمد ؟ » .

لأن محمداً لم يكن يمتاز عليهم في جلوسه ، ولا في ثيابه ، كان مثلهم في كل شيء . في سلوكه المهذب العفيف مع النساء ، وفي سيرته في بيته ومع أهله ، ومزحه الصادق ، وانطلاق نفسه . وأنه كان محبباً إلى كل قلب ، في

تواضعه ورفضه أن يعد ملكا .

ونهي أصحابه عن القيام له ، وأنه كان يقوم بحاجة أهله ، ويخصف بيده نعله .

وأنه عاش حياة الفقر زهداً في الغنى لا عجزاً عنه ، ولو شاء لكان قصره أفخم من إيوان كسرى ودارة قيصر ، ولكنه اختار الآخرة فكانت دور نسائه جميعا ، نسائه التسع ، لا يتجاوز طولها كلها (٨٨) خمسة وعشرين متراً .

وكان منزل عائشة غرفة واحدة مبنية من اللبن والطين ، وكانت من الضيق بحيث إنها لم تكن تتسع لنومها وصلاته ، فكان إذا سجد دفع رجلها ليسجد في مكانها ، أما طعامه فقد حدثت عائشة أنه كان يمر الشهر والشهران ، ولا يوقد في بيت رسول الله نار ليخبز عليها الخبز . قالوا :

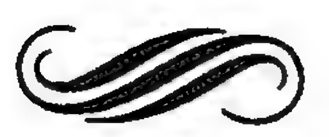
« فماذا كنتم تأكلون ؟ » .

قالت : « التمر والماء » هذا هو طعام أسرة رسول الله .

وفي بيانه وفصاحته ، أنه كان أبلغ من نطق وأبان ..

كل ذلك فيه الإعجاز ، وفيه الدليل على أن الله ما اختاره لأسمى الرسالات ، وما جعله خاتم الأنبياء ، حتى أعده لذلك إعداداً جعله واحداً في بني آدم ، ليس له في شمائله نظير ﷺ .

والله أعلم حيث يجعل رسالته .



---

(٨٨) . نسائه التسع : مكانها في الحجرة الشريفة ، التي دفن فيها ، ومساحتها في حدود ما ذكرت .



الإيمَان بالكتُب

القرآن :

القرآن هو معجزة محمد .

والذين زعموا أن القرآن من تأليف محمد ، أنكروا عليه أنه نبي ، ولكنهم وصفوه بأنه إله ، ونحن نشهد :

« أن لاإله إلا الله وأنه عبد الله ورسوله . »

ذلك أن القرآن لايستطيع أن يأتي به بشر ، ولا يمكن أن يأتي إلا من عند الله . فمن قال إن محمداً ألفه ، فقد منح محمدا صفة الألوهية !

وإلا فأروني رجلا كان أميا لا يقرأ ولا يكتب كما كان محمد ، ولم يدخل في عمره مدرسة ، بل لم يكن في بلده مدرسة ، بل هو لم يكن في بلدة كبيرة من بلدان الحضارة ، بل كان في قرية متوارية بين الجبال السود ، وراء رمال الصحراء ، لم تدر بها (روما) ولا (القسطنطينية) ولا (مدائن كسرى) ، ولم يدر أحد فيها بفلسفة (اليونان) و (الرومان) ، ولم يسمع واحد منهم بأدب (الهند) و (إيران) .

قرية ليس فيها عالم ولا باحث ، ولا مثقف ثقافة صغار المفكرين في ذلك الزمان ، وهو لم يخرج منها إلا إلى قرية مثلها أو أكبر قليلا منها ، هي (بصرى) الشام ، من أرض حوران ، ولم يقم فيها إلا يوما أو أياما قليلات معدودات .

هل يمكن لمثل هذا الرجل أن يأتي بمثل القرآن ؟

هذه تواريخ العباقرة والنابغين بين أيديكم ، تواريخ الأمم كلها في العصور كلها ، فهل فيها حادث مثل هذا الحادث ؟

لقد ألف (موزارت) قطعة موسيقية وهو دون العاشرة ، ونظم (بشار) الشعر وهو في مثل هذه السن ، ونبغت مؤلفة (جين اير) ، وأختها كاتبة (أعالي وذرنج) نبوغا مفاجئا ، وترك (شكسبير) هذه الثروة الأدبية ، ولم يكن من أكابر أدباء عصره ومثقفيه ، كل هذا ممكن ، ويمكن أن يؤلف شاب مغمور ، كتابا يأتي فيه بقصة رائعة ، أو نظرية علمية جديدة لأنه عبقري ، والعبقرية ليست وقفا على المتعلمين ، ولا على خريجى الجامعات ، وقد تظهر العبقرية حيث لا يتوقع ظهورها ، ولكن من عرفهم التاريخ من عباقره العلم والأدب والفن ، إنما سبقوا زمانهم بقرن مثلا ، زادوا على أقرانهم خمسين في المئة ، أو مئة في المئة . إن لسبقهم حدودا ، إنه سبق معقول .

وليس في التاريخ كله ، رجل كانت له ظروف محمد ﷺ ، يأتي بكتاب هو في الأسلوب الأدبي في أبهى صور الجمال ، وهو في مجال التشريع قانون في ذروة الكمال ، وهو في الإلهيات والإخبار عن المغيبات ، يأتي بما لا يعرفه أحد من البشر ، ولا يمكن أن يدركه بنفسه العقل البشري ، وهو في الطبيعة يشير إلى قوانين وظواهر لم يكن يعرفها أحد في عصره ، ولا في العصر الذي تلا عصره ، ولا في العصور العشرة التي جاءت بعد ذلك . فيه إشارات إلى قوانين لم تكشف إلا بعده بألف و ثلاثمئة سنة ، وقوانين لم تكشف للآن .

كتاب أمره الله أن يتحدى به الناس جميعا ، فتحدى الإنس والجن : أن يأتوا بعشر سور من أمثال سوره ، أن يأتوا بسورة واحدة .. فعجزوا ! وهذا تحدي قائم إلى الآن ، والعجز مستمر إلى الآن .

إعجاز ثابت ، ولكن لا تبحثوا كما بحث علماء البلاغة ، عن موطن الإعجاز ، فإن موطن الإعجاز ليس في ألفاظه وحدها ، ولا في أخباره عن المغيبات فقط ، ولا في أمر واحد من الأمور التي ادعوا أن الإعجاز فيها ، بل فيه كله مجتمعاً .

كالمرأة الجميلة ، ليس جمالها في لون بشرتها وحده ، ولا في عينيها

وحدهما ، ولا في أي عضو واحد من أعضائها ، بل جمالها فيها كلها . وإن كان كل ناظر في القرآن ، يلمح الإعجاز من الجهة التي ينظر فيها .

تعرفون قصة رئيس قسم تحقيق الشخصية ، الذي أسلم لما سمع قوله تعالى :

﴿ بَلَىٰ قَادِرِينَ على أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ .. ﴾ .

فكر : لماذا خص (البنان) بالذكر ؟ ماذا فيه ؟ فيه بصمات الأصابع ، هذه المعجزة الإلهية العجيبة ، كم على ظهر الأرض من ناس ؟! إنه ليس فيهم اثنان تتفق بصمة أحدهما وبصمة الآخر .

إنها ظاهرة عجيبة ، لكنها عرفت من قريب ، لم يكن يعرفها أحد على عهد محمد ولا في القرون العشرة التي تلت عهد محمد .

فلابد إذن أن يكون محمد قد تلقاها من عند الله ، ولابد أن يكون القرآن كلام الله ، وفي القرآن مئات من أمثال هذه الإشارة ، لا نزال نجد كل يوم من يتنبه إلى واحدة منها ، كلما درس القرآن دارس ، بدت له من إعجازه جوانب لم يدركها الأولون ، لأنه لا تفنى عجائبه .

لذلك يجب أن يفسر القرآن في كل زمان تفسيرا جديدا . يفسّره الأديب ، ويفسره الحقوقي ، ويفسره الفلكي ، ويفسره عالم النفس ، وعالم الاجتماع ، والمؤرخ ، كل واحد منهم يجد فيه مجالا لعلمه واختصاصه ، ودليلا من اختصاصه وعلمه على أن القرآن كلام الله .

إن معجزات الرسل الأولين وقعت مرة وانقضت ، ولكن معجزة محمد قائمة تتكرر كل يوم ، ومعجزات الرسل دليل ، من غير جنس الرسالة ، على صحة الرسالة ، ومعجزة رسالة محمد ، هي رسالته نفسها ، ﷺ وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين .

الإيمان بالكتب

نحن نؤمن بالقرآن ، وبالكتب المنزلة التي خبرنا عنها القرآن ، وهذه

الكتب هي : (صحف إبراهيم) ، و (صحف موسى) ، وهي (التوراة) ، و (زبور داود) ، و (إنجيل عيسى) .

والقرآن هو الحاكم عليها ، والميزان الذي يعرف به صحيحها من الذي حُرِّف منها ، قال تعالى :
﴿ وأنزلْنَا إليْكَ الكِتَاب بالْحَقِّ ، مُصَدِّقاً لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ ومُهَيْمِناً عَلَيْهِ .. ﴾ .

فما أخبرنا الله في القرآن أنه من هذه الكتب آمنا به ، وقلنا بكفر من أنكره ، وما وافق القرآن من أخبار هذه الكتب اعتقدنا أنه باق على صحته ، وأن التحريف لم يصل إليه ، وما جاء من أخبارها مخالفاً لمارواه القرآن عنها ، إعتقدنا أنه محرف عن أصله .

صحف إبراهيم :

خبرنا الله أن مما جاء في صحف إبراهيم ، وتكرر في صحف موسى :

﴿ ألاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ..... وأنَّ إلى رَبِّكَ الْمنْتَهَى .. ﴾
إلى آخر هذه الآيات .
وأن من ذلك قوله :
﴿ قَدْ أفْلَحَ مَنْ تَزَكَّي ، وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّه فَصَلَّى ، بَلْ تُؤْثِرونَ الحَياةَ الدنْيَا ، والآخرةُ خَيْرٌ وأبْقَى ، إنَّ هَذا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى ، صُحُفِ إبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴾ .

التوارة :

التوراة منزلة من عند الله ، فيها هدى للناس ، وفيها حكم الله ، قال تعالى : ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وعِنْدَهُمُ التَوْرَاةُ فِيها حُكْمُ اللهِ إنَّا أنْزَلْنا التَوْرَاةَ فِيها هُدىً وَنُورٌ ﴾ .
ومما خبرنا به عن أحكام التوراة قوله :

﴿ وكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أنَّ النَّفسَ بالنَّفْسِ ، والْعَيْنَ بالعَيْنِ ، والأنْفَ بالأنْفِ ، والأُذُنَ بالأُذُنِ ، والسِّنَ بالسِّنِ ، والْجُرُوحَ قِصَاصٌ . . . ﴾ (٨٩) .

وخبرنا أن فيها بشارة بمحمد ﷺ ، قال :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعونَ النَّبيَّ الأُمِّيَّ الَّذي يَجِدونَه مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ ﴾ .

وأن فيها وصف المؤمنين :

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ ، والَّذِينَ مَعَه أشدَّاءُ علىَ الكفَّارِ رُحماءُ بَيْنَهُمْ ، تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً ، يَبْتَغُونَ فضْلاً مِنَ اللهِ ورِضْواناً ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أثَرِ السُّجُودِ ، ذَلِكَ مَثَلُهُمْ في التَّوْرَاةِ . . ﴾ .

الزبور :

قال تعالى :

﴿ وآتَيْنَا دَاودَ زَبُورا ﴾ .

وخبرنا أن مما كتب في الزبور وراثة الصالحين الأرض ، قال تعالى :

﴿ ولَقَدْ كَتَبْنَا في الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ، أنَّ الأرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ .

ولعل المراد بالأرض الجنة ، لقوله تعالى حكاية عن المؤمنين الذين يدخلونها :

﴿ وقالوا الْحَمْدُ للهِ الَّذي صَدَقَنا وَعْدَهُ ، وأوْرَثنا الأرْضَ ، نَتَبَوَّأُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ . . ﴾ .

الإنجيل :

قال تعالى :

﴿ وآتَيْنَاهُ **الإنجيلَ** فِيه هُدَىً وَنورٌ ، **ومُصَدِّقاً** لما بَيْنَ يَدَيْهِ مِن التَّوْرَاةِ . . ﴾

وبيّن أن الإنجيل المنزل ، يشتمل على أحكام تشريعية ، قال تعالى :

---

(٨٩) لبعض العلماء بحث في هذه الأحكام ، هل كلفنا نحن المسلمين بها أم لا ؟ راجع تفسير المنار .

﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ **الإِنْجِيلِ** بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فِيهِ . . . ﴾ .

وفيه تعديل لشريعة التوراة :

﴿ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ، ولأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ . . . ﴾ .

وفيه كالتوراة بشارة بمحمد ، ووصف للمؤمنين به

ونحن نؤمن بكل ماأنزل الله من : (صحف) ،و(توراة) ، و (زبور) ، و (إنجيل) ، ونحترم سائر الأنبياء وفيهم : (إبراهيم) و (موسى) و (داود) و (عيسى) .صلى الله عليهم جميعا .

خاتمَة

هذه هي العقائد الإسلامية ..

من اعتقدها واعتقد بكل ما أخبر به القرآن ، من خلق السماوات والأرض والإنسان ، وظهرت آثار هذا الاعتقاد في عمله ، فهو المسلم الكامل . يعمل بالقرآن الذي اعتقد صحته ، لا يكتفي بتلاوته بلا فهم ، ولا بتلحينه والتطريب به بلا علم ، بل يتخذه دستورا لحياته ، يحل حلاله ، ويحرم حرامه . يعمل ما أوجبه ، ويترك ما نهى عنه .

إن كانت ديانات الناس للمعابد وحدها ، فالإسلام ليس للمسجد وحده ، ولكن للمسجد وللدار وللسوق ، ولقصر الحكم ، وللحرب وللسلم . الإسلام يلازم المسلم دائما ، يبين له ما يباح له ، وما يحرم عليه ، هو معه إن خلا بنفسه ، ومعه إن انفرد بأهله ، وهو معه في تجارته وفي عمله ، كل عمل من أعمال المسلم له حكم من الأحكام الخمسة ، ومنها الإباحة الأصلية . وإن كانت الديانات الأخرى عبادات فقط ، لا علاقة لها بالسياسة ، ولا بالعلم ، فالإسلام عبادة ، وقانون مدني ، وقانون جزائي ، وقانون دولي ، ونظام إدارى ، ومذهب خلقي ، وهو علم ، وهو سياسة ، وهو عمل ، وهو جهاد . افتحوا أي كتاب من كتب الفقه ، وانظروا في فهرسه ، تروا هذه الجوانب كلها فيه[٩٠] .

وإن كانت العبادات في الديانات الأخرى صلاة فقط ، فالعبادة عندنا ليست صلاة وصياماً فقط ، بل إن كل عمل ينفع الناس إن قصد به فاعله وجه الله ، كان له عبادة .

وإذا فصلوا بين الدين ــ الذي هو عبادة فقط ــ وبين العلم ، فالإسلام دين العلم . أول كلمة نزلت من كتابه كانت (اقرأ) ، لم تكن (قاتل) ، ولا

---

(٩٠) صار هذا اليوم من المقررات المعلومة التى لا تحتاج إلى بيان ولم يكن كذلك لمّا كنت أكتبه وأحاضر به ، في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات ، وكتاباتي فيه كانت بحمد الله سابقة رائدة .

(اجمع المال) ، ولا (ازهد في الدنيا) . و (اقرأ) هذه أول كلمة أنزلت من القرآن وجاء بعدها ذكر العلم ، ما منَّ الله على الإنسان بما أعطاه من مال ولا قوة ولا جاه ، بل بأنه علمه مالم يعلم .

وكل علم يحتاج إليه مجتمع إسلامي ، يكون تعلمه فرض كفاية على القادرين عليه ، فهل في الوجود دين ــ إلاّ الإسلام ــ يجعل تعلم الكيمياء ، والطب ، والطيران ، من الفروض الدينية ؟

والإسلام دين الغنى ، الله سمى المال في القرآن خيرا ، فقال :

﴿ وإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ .

وقال في آية الوصية :

﴿ إِنْ ترك خيراً . . . ﴾ أي : مالا .

فينبغي أن يكون المسلمون أغنياء ، ولكن بشرط أن يجمعوا المال من الحلال ، وأن يكون المال في أيديهم لا في قلوبهم . والمال وكل ما في الكون مسخر للإنسان . والإنسان المسلم يحس أنه عبد الله ، ولكنه سيد لما في الكون من أشياء ، يتصرف فيه تصرف السيد ، يستجلب النفع الذي أودعه الله فيه ، فهو يرغب في النافع ولكن لا يعظمه لذاته ، فإن عظمه لذاته صار عبدا له ، وكان بذلك قد أشركه في العبادة مع الله .

والمال جعله الله أداة لجلب النفع ، فإن أنت ادخرته وخبأته ولم تنتفع منه صرت خادما له وعبدا ، وقد قال الرسول ، ﷺ :

« تعس عبد الدرهم » .

والثياب جعلت لدفع البرد ، وستر الجسد ، فإن عظمتها لذاتها ، فحفظتها ورعيتها ولم تنتفع بها ، صرت عبدا لها ، وقد :

« تعس عبد الخميصة » .

والإسلام دين القوة ولكن بلا ظلم .

والإسلام للدنيا والآخرة :

﴿ ربَّنا آتِنا في الدُّنيا حَسَنَةً ، وفي الآخِرَةِ حَسَنَةً . . . ﴾ .

وهو يريد من المسلمين أن يصدقوا الإيمان ، وأن يتبعوا الشرع ، وأن يكونـوا مع هذا أرقـى الأمـم ، وأقـوى الأمـم ، وأعلـم الأمـم ، وأغنـى الأمـم ، ليجمعوا حسنة الدنيا وحسنة الآخرة .

وأن يعلم كل مسلم ــ بعد هذا ــ أن عليه واجبا آخر ، هو التعريف بالإسلام ، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة . فلا يكره النّاس على الإسلام .

﴿ لا إِكْرَاهَ في الدِّينِ ﴾ .

بل يعرض عليهم محاسنه حتى يرغبوا فيه ، ولا يدعو بلسان مقاله فقط ، بل بلسان حاله ، بأن يكون المجتمع الإسلامي صورة مجسـمة لمبادىء الإسلام لا بأن يكون صورة مشوهة لها ، تنفر منها وتبعد عنها كما هي الحال الآن . بأن يكون الداعي قوي العقل ليقيم الحجة . عالماً بالإسلام ليحسن العرض ، مثقفا بثقافة العصر . ليكلم الناس بلغة العصر ، وأن يكون لطيف المدخل،خفيف الظل . لا فظا ولا غليظا ، ولا جافيا عاتياً .

وأن يعلم أن الإسلام لا يفزع من المناظرة ، ولا يهرب منها ، وأن كل شيء فيه بالدليل وبالحجة والبرهان ، وأنه يطالب بالدليل حتى ممن يدعي ما يخالف الإسلام :

﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكم إن كُنْتُمْ صَادقِينَ ﴾ ﴿ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ الله إلهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ .

ولو كان له برهان ... ولكن يستحيل إقامة الدليل على خلاف التوحيد .

ولو وجد هؤلاء الدعاة إلى الله ، لدخلت الدنيا كلها في دين الله ، والله أنزل هذا الدين ، وهو قد تعهد بحفظه :

﴿ إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإنَّا لَهُ لَحافِظُونَ ﴾ .

فالإسلام باق لا يزول ، والعاقبة له ، ولكن إما أن نعود ــ نحن المسلمين ــ إلى ديننا ، فيكون لنا شرف النصر في الدنيا ، وثواب الله في الآخرة ، وإما أن يستبدل بنا قوما غيرنا يدخلون في الإسلام ، ويتولون الدعوة

إليه والدفاع عنه .

ونعوذ بالله من أن يستبدل بنا ، ونسأله أن يردنا إلى ديننا ، وأن يكتب النصر له على أيدينا ، وأن يغفر لنا ويرحمنا .

وآخر دعوانا : أن الحمد لله رب العالمين .



الفهرس

من آثار المؤلف

العنوان	الطبعة	التاريخ
١ ــ رسائل الإصلاح		١٣٤٨ هـ
٢ ــ بشار بن برد		١٣٤٨ هـ
٣ ــ رسائل سيف الإسلام		١٣٤٩ هـ
٤ ــ الهيثميات		١٣٤٩ هـ
٥ ــ في التحليل الأدبي		١٣٥٣ هـ
٦ ــ عمر بن الخطاب جزآن		١٣٥٢ هـ
٧ ــ كتاب المحفوظات		١٣٥٥ هـ
٨ ــ في بلاد العرب		١٩٣٩ هـ
٩ ــ من التاريخ الإسلامي		١٩٣٩ م
١٠ ــ أبو بكر الصديق	ط ٣	١٩٨٦ م
١١ ــ قصص من التاريخ	ط ٤	١٩٨٣ م
١٢ ــ رجال من التاريخ	ط ٧	١٩٨٦ م
١٣ ــ صور وخواطر	ط	١٩٨٢ م
١٤ ــ قصص من الحياة	ط	١٩٨٠ م
١٥ ــ في سبيل الإصلاح		١٩٥٩ م
١٦ ــ دمشق		١٩٥٩ م
١٧ ــ أخبار عمر	ط ٨	١٩٨٣ م
١٨ ــ مقالات في كلمات	ط	١٩٥٩ م
١٩ ــ من نفحات الحرم	ط ٢	١٩٨٠ م
٢٠ ــ سلسلة حكايات من التاريخ		١٩٦٠ م
٢١ ــ هتاف المجد		١٩٦٠ م
٢٢ ــ من حديث النفس	ط ٣	١٩٨١ م
٢٣ ــ الجامع الأموي		١٩٦٠ م

٢٤ ـــ في أندونيسيا ١٩٦٠ م

٢٥ ـــ فصول إسلامية ١٩٦٠ م

٢٦ ـــ صيد الخاطر لابن الجوزي (تحقيق وتعليق) ط ٢ ١٩٧٨ م

٢٧ ـــ فكر ومباحث ١٩٦٠ م

٢٨ ـــ مع الناس ١٩٦٠ م

٢٩ ـــ بغداد ١٩٦٠ م

٣٠ ـــ سلسلة أعلام التاريخ ط ٢ ١٩٧٩ م

٣١ ـــ فتاوي علي الطنطاوي ط ٢ ١٩٨٦ م

٣٢ ـــ ذكريات علي الطنطاوي ج ١ ١٩٨٥ م

٣٣ ـــ ذكريات علي الطنطاوي ج ٢ ١٩٨٥ م

٣٤ ـــ ذكريات علي الطنطاوي ج ٣ ١٩٨٦ م

٣٥ ـــ ذكريات علي الطنطاوي ج ٤ ١٩٨٦ م

٣٦ ـــ ذكريات علي الطنطاوي ج ٥ ١٩٨٧ م

وله مئات من البحوث والمقالات في عشرات من الصحف والمجلات

رقم الإيداع بدار الكتب ٧٠٣٦ / ٨٦

الترقيم الدولى ٣ ـ ٩٣ ـ ١٤٢٠ ـ ٩٧٧

مطابع الوفاء ـ المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت : ٣٤٢٧٢١ - ص.ب : ٢٣٠

تلكس : ٢٤٠٠٤ DWFA UN